المغيرة الهويدي

قماش أسود

فريق متميزون
E-BOOK

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قماش أسود

المغيرة الهويدي

عن الكتاب..

الوقتُ يمرُّ ولا يمرّ، لا دليلَ على وجوده ولا دليلَ على انعدامِه، بديهيٌّ ومستحيل. أرفع يدي أمام وجهي، أنظر إلى ساعتي، أمسح الوحلَ عنها لأرى عقاربها، لكنّها تهشمت، كُسرت عدستُها وبقيتْ عقاربها ثابتةً لا تتحرك. يلتبس في رأسي صوتُ الرصاص وصوت ماكينة الخياطة تضغط عليها يدي بقوة وثبات، أحرّك يدي لأزيلَ هذا الالتباسَ، ولا يزول، أفتح عيني لأميّزَ ما يحدث، فلا أرى شيئًا، الظلامُ ولا شيءَ سوى الظلام، وهذه الليلة قطعةٌ من قماشٍ أسود، عباءةٌ بحجم هذه البلادِ خاطتها يداي وأيدي كلّ النسوة على هذه الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الأول

آسيا قالت لي:

«أفضلُ طريقة للنسيان هي التجاهل؛ القصصُ السيئةُ لا تُسرد».

آسيا..

آسيا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الثاني

لم أختبئ كالعادة وراء الباب عندما فتحته. كانت أول مرة تتقاطع فيها نظراتُنا على تلك الدرجة من القرب. وقف على العتبة ويداه على جانبي الباب وكأنه يريد أن يمنع أحدًا من الدخول. راح صدره يعلو ويهبط بسرعة ليسحب أنفاسه المتلاحقة بعد المسافة التي ركضها إلى بيتنا.

وقفتُ ثابتة أشبه بتمثال أُخفي وجهي بطرف الشال الذي يغطي رأسي، دون أن أملكَ القدرة على فهم الإحساس الذي انتابني وقتها أمام رجلٍ يلهث أمامي ونظراتُه مثَّبتة إلى عينيَّ.

كان الليل قد خيَّم عندما سمعت طرقاتٍ قوية على الباب في تلك الليلة من أواخر شهر آذار ٣، الثالث والعشرين من الشهر على نحو دقيق. لأوَّل وهلة ظننت أن أبا كريم قد جاء من الرَّقة ليأخذنا. ركضت إلى البابِ لأفتحه، ولم يخطر ببالي أنَّ أحدًا غيره سيطرق باب امرأتين غريبتين في هذه القرية بعد أن هجرها أكثرُ أهلها خوفًا من اقتحامٍ وشيك لها.

كنت أراقبهم طوال النهار من وراء ستارة النافذة، يحملون أطفالهم وأمتعتهم وينسلُّون من أزقَّة فرعية في شاحنات صغيرة وسرافيس ودراجات نارية، أتلصص عليهم وهم يعبرون الزقاق القريب مني صامتين ونظراتهم تتعلَّق بتفاصيل المكان كأنهم يستذكرونها للمرة الأخيرة، ثم لا أعود أراهم حين يغيبون عن نظري متجهين إلى الطريق العام الذي يخترق القرية ويقسمها إلى نصفين كما يفعل بمعظم القرى التي تمتد شرق مدينة الرَّقة.

فكَّرت أنهم ربما نزحوا إلى قرية أخرى كما أخبرنا أبو كريم. قال أيضًا إن بعضهم سينزح شمالًا نحو البريّة مصطحبين أغنامهم وخيامهم، وبعضهم الآخر سينزح نحو الزّوْر؛ خيارٌ سيئٌ، كما قال، لكنّه خيارٌ متاحٌ لمن لا يملك مكانًا يذهب إليه بعد أن سمح التنظيم لسكان القرى التي سبقتنا بالنزوح إلى هناك، وإن قوات سوريا الديمقراطيّة «قَسَد» قد بدأت مرحلة جديدة في حربها ضد تنظيم الدولة الإسلامية بعد أن سيطرت لوقت طويل على أجزاء واسعة من الريف الشمالي والغربي للمحافظة. أخبرنا أيضًا بأنّ قواتهم ستقتحم القرية التي نقيم فيها خلال أيام قليلة، قريتان أو ثلاث وسيجيئنا الدور في هذه المعركة. ارتدى ثيابه وتناول فطوره كالعادة. قال إنه سينزل إلى الرَّقة لشراء ما نحتاجه وسيعود سريعًا لننزح إلى قرية ما عدت أذكر اسمها، ثم سنتسلل منها إلى قرية أخرى ونقطع بعدها دروبًا، راح يذكرها لآسيا بحكم معرفتها، المعرفةِ التي تنقصني أنا لأستفسر، أو لأعترض.

كان ضوء لمبة الكاز في مدخل البيت الضوءَ الوحيد في الظلام الذي ازداد كثافة مع الغيم، بعد أن نزحت المولِّدات الكهربائية مع أصحابها، وتعطل مُولِّدنا مرة أخرى وما عاد يجدي إصلاحه.

«عليكم أن تخرجوا حالًا».

قال يوسف ثم راح يتنفس عميقًا محاولًا ضبط أنفاسه.

هبَّت نسمة باردة ارتجف بسببها ضوء الفتيلة وارتخت يدي التي كانت تمسك بطرف شالي مع ارتجاف الضوء، ولم تكن هذه المرة الأولى التي يرى فيها يوسف وجهي. أدرتُ رأسي لأناديَ آسيا، لكنه أعاد كلامه:

«بسرعة نسرين، عليكم أن تخرجوا حالًا».

كانت هذه أول مرة يناديني باسمي الحقيقي. ارتبكتُ وأنا أعيد تثبيتَ الشال على محيط فمي، قلتُ له:

«ولكنَّ عمّي لم يعد بعد، قال إنه..».

«سيقتحمون القرية في أية لحظة، يجب أن تخرجا».

قاطعني وهو يزيح يديه عن جانبي الباب، صمت لحظة. قال بعد ذلك وكأنه قد قرأ ما أفكر فيه:

«إلى الزّوْر، عندما يعود أبو كريم سيلحق بنا هناك. جهزَّا نفسيكما، سأمرُّ عليكما بعد..».

ارتفع صوت أذان العشاء في القرية قاطعًا كلامه، تقاطعت نظراتنا لحظةً، وأصغينا معًا لصوت المؤذِّن قبل أن نسمع وقعَ أقدام أشخاصٍ كانوا قد انسلّوا من إحدى الأزِقّة وعبروا أمامنا، ثم راحوا يتراكضون حاملين أطفالهم وأمتعتهم، وعلت صرخاتهم ممزوجة ببكاء الأطفالِ عندما انطلق الرصاص كثيفًا.

رجعت خطوةً واختبأت وراء الباب حتى انقطع صوت الرصاص وتمدد السكون من جديد. مددت رأسي لأراه، لكنه كان قد ركض هو أيضًا وراءهم. وسمعت صوته بعد أن ابتلعه الظلام:

«انتظريني، لن أتأخر».

لم يمهلني لأستفسر منه عن الأرض التي سننزح إليها. تسمّرت في مكاني أنظر إلى الجهة التي غاب فيها قبل أن يجيئني صوت آسيا من داخل غرفتها تناديني. دفعتُ الباب الحديدي ببطءٍ لا يتفق مع حالة الهلع التي سيطرت عليَّ

عندما سمعت صوت الرصاص بعد أن كدت أن أنساه خلال إقامتي في القرية. أصدر الباب صريرًا عاليًا كعادته عندما أغلقته وعدتُ إلى آسيا.

لم تعلِّق على ما قاله يوسف. كانت تروح وتجيء في الغرفة منشغلة بجمع ما بقي من ثيابها وأغراضها. وقفتُ عند باب غرفتها أتابعها وقد أخذت كل ما تحتاجه وما تستطيع حمله، حتى تلك الثياب والحاجات التي تخص أمَّ كريم. كل ما يمكنها أن تستفيد منه من ثياب وأدوية وعلب سجائر ومعلبات وصابون حشتها داخل كيس قماشي كبيرٍ ثم ربطته جيدًا.

نظرتُ إلى حقيبتي في أول الممر المفضي إلى باب البيت، الحقيبة ذاتِها التي غادرتُ بها حِمص، والحقيبة ذاتها التي خرجتُ بها آخر مرة من البيت الذي أقمتُ فيه أنا وكريم عندما تزوجنا قبل أربع سنوات، وغادرت حلب بها وحيدة بعد عشرة أشهر من زواجنا، ثم دخلت بها إلى الرَّقة بعد أن طال اختفاء زوجي قبل أن نغادرها إلى هذه القرية، رتبتها بسرعة بعد أن خرج أبو كريم صباحًا، ثم قضيت وقتًا طويلًا في إعادة ترتيبها أكثر من مرة. وفي كل مرة كنت أتخلص من بعض محتوياتها: عباءة سوداء، دِرع، بيجامتين، مشط، ربطات شعر، ثياب داخلية، زوج من الأحذية، أوراق ثبوتية لي ولابنة أبي كريم، المرأة التي حملت اسمها منذ أن دخلت هذه القرية، اسمها وواجبها أيضًا.

ندَّت ابتسامة ساخرة على شفتي وأنا أرى نفسي في تلك الحقيبة خلال هذه السنوات الأربع. هي هكذا، أن تتخلَّى عن أشياء لصالح أشياءَ أخرى، ما تملكه وإن كان عزيزًا على قلبك لصالح ما تحتاجه فقط. هذا ما يحدث في الحروب، أنْ تتقن فنَّ التخلي يومًا إثر آخر، وأن تقطعَ جذورك بكل ما يصبح فائضًا عن حاجتك، حتى في نفسك، وأن تكون قادرًا دومًا على مقايضة الكثير مما ترغب به مقابل القليل فقط، «الضروري الضروري»، أليس هذا ما قاله أبو كريم؟ تركتُ كل شيء في مكانه في غرفتي بعد أن رتبتها هي أيضًا، كأنّ أحدًا سيقيم فيها بعدي. أخليتها نظيفة ومرتبة، ولم أترك ورائي شيئًا يخصُّني سوى كتاب واحد، غلَّفته بكيس نايلون أسود ودسسته تحت صندوق خشبي كنت أستعمله طاولة أضع عليها أدوية أم كريم، ثم ركنته في إحدى زوايا الغرفة بعد موتِها وكدَّست عليه أدوات الخياطة.

أفسحتُ المجال لآسيا. سحبتْ كيسها إلى الصالة ثم تربعتْ على الأرض بجوار لمبة الكاز. أخرجتْ علبة الدخان من جيبها وأشعلت سيجارة. أخذتْ نفسًا عميقًا منها، حاولتْ أن تختزنه أطول وقت ممكن في صدرها قبل أن تمجَّه ببطء دون أن تزيح عينيها عن شقٍّ أعلى الجدار المقابل لها.

«تأخَّر عمي»، قلتُ.

كانت ملامحُ وجهها قد ازدادت حدَّة قبل أن تخفض رأسها وتنشغل بتدوير سيجارتها بين أصابعها.

«يوسف قال إنه سيأتي بعد قليل ليأخذنا معه، إلى الزور، مع مَن بقي من أهل القرية».

انتظرتها لتعلِّق، لكنها لم تلتفتْ نحوي. وقفتُ أمامها.

«ولكنّ الزور خيار سيئ. عمي قال إنه خيار من لا خيار له، وإننا يجب..».

تركتُ جملتي مفتوحة أفكر في المكان الذي سنلتجئ إليه.

سألتها محاولةً دفعها إلى الكلام:

«هل سيستقبلنا أهل القرية»؟

سحبتْ نفسًا آخر من سيجارتها ونفثته دون أن تجيبني. أكملتُ:

«لن يرحبوا بنا، لم تكوني حاضرة عندما ماتت أمُّ كريم، لم يأتِ أحد منهم لتقديم واجب العزاء، بعض عناصر التنظيم جاؤوا مباشرة بعد الدفن وغادروا بعد أن شربوا الشاي. مضى على وجودك هنا أكثر من ثلاثة أشهر، هل رأيت أحدًا منهم دقَّ بابَنا غير يوسف»؟

رفعتْ نظرها نحوي ثم نهضتْ بعد ذلك. ألقتْ السيجارة على الأرض وداستها بحذائها، ثم أفرغتْ ثياب أبي كريم في إحدى زوايا الصالة وحَشتْ الكيس بما بقي من ثيابها. ارتدتْ عباءتها وربطتْ النقاب على محيط رأسها دون أن تسدله على وجهها.

«إلى أين ستذهبين»؟ تجاهلتْ سؤالي هذا أيضًا.

«سيأتي يوسف بعد قليل».

حملتْ كيسها على ظهرها.

«آسيا انتظري»!

وقفتْ عند الباب لحظةً قبل أن ترتدَّ عائدةً نحوي.

كنت أقف بجوار لمبة الكاز في الصالة بين غرفتي وغرفتها. وقفت أمامي مباشرة، قرَّبت وجهها من وجهي، زمَّت شفتيها وراحت تحدِّق إليَّ مثبتةً نظرها في عيني.

ارتجف ضوءُ الفتيلة مرة ثانية بفعل الريح التي نفذت من الباب. طغى الظلام لحظةً قبل أن يتوهج ضوء اللمبة من جديد. وعندما رأتني ثانيةً بوضوح، قالت

بصوت حازم:

«عندما يتعلق الأمر بالرجال، تعلَّمي ألا تنتظري».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الثالث

«آسيا... آسيا»!

وقفتْ في مكانها عندما ناديتها، ثم غابت عن نظري في زقاق إلى يمينها.

أنزلتُ الحقيبة من يدي ورحت ألتقط أنفاسي. لم أكن قادرة على رؤية أي شيء بوضوح طوال الطريق الذي قطعناه. تجاوزت الطريق العام لأول مرة، ثم عبرنا نحو الجهة الثانية من القرية باتِّجاه الزور.

كان صوت تنهُّداتي عاليًا وهي تختلط بأصوات الحصى والحجارة التي دستُ عليها، تتقدَّمني آسيا مسرعةً تحمل كيسها على ظهرها، تغيب عن نظري ويرشدني وَقْع أقدامها في الظلام إليها، ثم تتباطأ خطواتي من التعب ويعلو لهاثي فتضيع مني، أتنفَّس بعمق أكثر من مرة وأعجِّل في المسير وراءها خلال أزقة القرية الضيقة والوعرة وكأنها تشكَّلت من تلقاء نفسها بين جدران البيوت.

«آسيا توقّفي»!

رأيتها أخيرًا تُنزل الكيس عن ظهرها وتجلس مستندةً إلى أحد الجدران. ألقيتُ حقيبتي أمامها وارتميت إلى جوارها. خلعت النقاب الذي كانت قد لفَّته على محيط رأسها، فعلتُ مثلها؛ لا معنى لارتدائه ونحن وحيدتان في هذه القرية، وفي مثل هذه الليلة. أخرجتْ قارورة ماء بلاستيكية من كيسها، شربتْ منها جرعاتٍ متلاحقة قبل أن تمدَّها نحوي، تناولتها من يدها وشربتُ ما بقي منها. سحَبتْ سيجارة من جيبها دون أن تخرجَ علبة الدخان وأشعلتها. أضاء وجهُها لحظةً. تلفَّتُّ حولي خائفة من أن يرانا أحد عناصر التنظيم؛ ستكون التهمة جاهزة لجلدنا، هذا إذا لم يجعلوا منَّا عبرةً لكل امرأة تسوِّل لها نفسها خلع النقاب والتدخين، ولكن أين هم الآن؟

انحسر الضوء واستحال جمرةً تتوهج كلما أخذت نفسًا من سيجارتها، ثم تخبو فتستحيل نقطةً برتقالية في ذلك العدم المظلم.

سألتني عن الوقت، بصعوبة استطعت تمييز عقاربها. كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف ليلًا، هذا يعني أننا مشينا لأكثر من ساعة دون أن نصل.

كان الزّور يبدو أقرب من سطح المنزل عندما أنشر الملاءات ولا يحتاج كل هذه المدة لنصل، أو لنتوه في طريقنا إليه. مشينا في أزقّة كثيرة وعبرنا أحواش بيوت خاوية، كأن وباءً ضرب القرية وقتل أهلها كلهم، حتى الحيوانات كانت قد اختفت أيضًا. لا شيء يوحي بأنَّ حياةً عبرت من هنا سوى صرير

الأبواب التي كانت تصطك بفعل ريحٍ باردة، تثير الغبار الذي استحالَ إبرًا حادَّةً تخدش وجهي المتعرِّق.

كنت طوال الطريق أفكر في غياب أبي كريم وعودة يوسف إلى البيت ليأخذنا معه. ربما هو الآن هناك، مَرَّ ولم يجدنا، وربما التقى بأبي كريم وسيأتيان معًا، أو ربما لا معنى لكل هذا كما ترى آسيا، المهم هو ما سيحدث عندما نجتمع بأهل القرية.

لم أكن أعرف أحدًا منهم باستثناء زوجة صاحب البيت وابنتيه، قبل أن يهربن خارج مناطق سيطرة التنظيم مع كثير من أهل القرية. كنَّ يأتين مع بعض نساء الحارة التي سكنَّا فيها قبل أن ينقطع معظمهن عن زيارتنا، بعد أن أصبح عناصر التنظيم يترددون على بيتنا للسهر مع أبي كريم، ثم ما عاد يطرق بابَنا أحد منذ أنْ أصبح أبو كريم مؤذِّن المسجد وأحد المنظمين للدورات الشرعية للرجال، باستثناء يوسف، كان أوَّل وجه لمحتُه وأنا أدخل هذه القرية قبل سنة ونصف تقريبًا.

حدث هذا بعد أن قُصف البيت الذي كنَّا نقيم فيه داخل مدينة الرَّقة. ولحسن الحظ، كنتُ أقضي النهار كله في المستشفى برفقة أم كريم التي سقطت في غيبوبة إثر جلطة دماغية.

لم يكن لدينا مكان ننام فيه سوى المستشفى الوطني، أنا إلى جوار أم كريم التي تتشارك غرفة صغيرة مع نساء أخريات على الأسرَّة الحديدية المتزاحمة، بينما افترش أبو كريم حِرامًا صوفيًّا عند مدخل الممر المفضي إلى جناح الصدريَّة، بعد أن أخرجوها من غرفة العناية المركزة نتيجة الضغط المتزايد على المستشفى.

قضينا أكثر من أسبوعين على هذه الحال. كان البيت قد تدمر كليًّا بعد أن أُلقي برميل من إحدى مروحيات النظام على العمارة التي تضم شقتهم. مات الكثير، وتحطم أثاث البيت، أخرجنا بعضه سليمًا من تحت الركام وأودعناه بيت أحد الجيران، ثم جاء أبو كريم بعد ذلك وأخبرني بأن إدارةَ المستشفى أبلغته بوجوب تخريج زوجته. قالوا له إن بقاءها لن يحسِّن من حالتها التي استقرَّت بعد أن عطَّلت الجلطة قدرتها على المشي والنطق، وإنها ستحتاج إلى أدوية وعناية خاصة بالإضافة إلى جلسات علاج طبيعي، وهذا ما لا يوفّره المستشفى الآن، كما أنهم بحاجة إلى كل سريرٍ شاغرٍ لعلاج المصابين نتيجة القصف، أو جرحى التنظيم في خطوط المواجهة خلال تلك المرحلة من توسُّع نفوذه وبسط سيطرته على مناطق واسعة في العراق وسوريا.

غاب قليلًا وعاد بسيارة أجرة، وضعنا أم كريم فيها ومضينا إلى البيت الجديد الذي سنسكن فيه.

حملتنا السيارة خارج مدينة الرَّقة، تخطت ضواحيها شرقًا نحو قرىً ترتصف على جانبي الطريق على نحو غير منتظم، تتلاصق حينًا وتفصلها مسافات خالية أحيانًا أخرى.

وعلى الرغم من صدمتي بأننا نخرج من المدينة وضواحيها إلى الريف، فإني لم أتوقف كثيرًا عند عدم إخباره لي. استطعت أن أجدَ له عذرًا، وفكرت في أنّ القرية قد تكون أفضل من المدينة في حالتي، ولا سيما بعد أن بدأت الأمور تسوء في المدينة أكثر بعد أن فرضَ التنظيم سيطرته عليها وصار حكمه واقعًا.

قضيت الطريق أراقب من تحت النقاب تلك القرى وأستمع إلى أبي كريم والسائق وهما يتحدثان عن الغلاء والقصف وسوء الأحوال بحذرٍ خوفًا من التورط في أية كلمة قد تسيء إلى التنظيم؛ كل كلمة تحتمل التأويل قد تودي بحياة صاحبها.

كانت أسماء بعض القرى مخالفة لأسمائها المكتوبة على شاخصات الطريق كما راح يذكرها السائق عندما كنا نعبرها. بعضها بقي على حاله، وبعضها الآخر صُبغ باللون الأسود ورُسِم عليها شعارُ التنظيم وآيات قرآنية تحث على الجهاد وقتال المنافقين، حالها حال كل شيء في المدينة، السواد يستبيح بقية الألوان، الرايات واللافتات وواجهات المحلات، والنساء أيضًا.

كان يوسف واقفًا أمام دكانه على الطريق العام عندما توقفت السيارة قريبًا منه. سلَّم عليه أبو كريم وسأله عن الطريق، ثم انحرفت السيارة بعد ذلك عن الأسفلت إلى زقاقٍ غير معبَّد ومملوء بالحفر والمطبات التي جعلت أجسادنا تهتز وقتًا قبل أن تتوقف السيارة مرة ثانية عند رجلٍ في أواخر عقده السادس كما بدا لي. نزل أبو كريم وصافحه، تحدَّثا قليلًا قبل أن يطلب من السائق إكمال سيره نحو سورٍ يضم بيتًا قيد الإنشاء في طرف حوش كبيرٍ تقبع في صدره ثلاث غرف ترتصف على خط واحد، وإلى يمينها كان هنالك غرفة طينية جلست أمامها امرأة عجوز، وعندما رأتنا نهضت لاستقبالنا.

نادى صاحب البيت على أحد الأطفال الذين تجمَّعوا قريبًا من السيارة ينظرون نحونا بفضول. طلب منه أن ينادي على يوسف لمساعدتنا على حمل أم كريم إلى إحدى الغرف ريثما تصل الشاحنة التي تحمل ما بقي من أثاث البيت.

نزلتُ من السيارة ووقفتُ أنظر إلى البيت الجديد الذي قال أبو كريم إن صاحبه أعطاه إياه مقابل مبلغ مادي زهيد على حدِّ قوله. رحبتْ بي العجوز بحرارة ودعتني إلى دخول إحدى الغرف.

كانت العجوز وابنتاها قد أعددن فراشًا لأم كريم في صدر الغرفة المفروشة ببسطٍ صوفية ووسائد تحيط بالجدار من جهاته الثلاث، بينما تنتصب طاولة من الألمنيوم وُضِع عليها إبريق ماء وكؤوس شاي، قدَّرت أنها طاولة تلفازٍ لم يعد موجودًا بعد أن عمَّم التنظيم على الجميع بمنع أجهزة التلفاز والدش، لأنها تبث أخبارًا كاذبة وتقدم برامج تحرِّض على الفسق والكفر.

تعاونَ أبو كريم ويوسف على حمل أم كريم بواسطة كرسي بلاستيكي من السيارة إلى الغرفة. ثم دثرتُها جيدًا وجلستُ إلى جوارها، بينما جلس أبو كريم والرجل على بساطٍ في فسحة الشمسِ عند باب الغرفة.

سارعت المرأة بالنداء على ابنتها لإحضار المازوت وإشعال المدفأة، ثم خرجتْ بعد ذلك وراء ابنتها عندما سمعتُ الرجل صاحب البيت يعرِّف أبا كريم بيوسف. كان أول اسم سمعته في هذه القرية، قال إنه بمنزلة ابنه والوحيد الذي يهتم بهم بعد نزوح ابنه الكبير إلى اللاذقية برفقة زوجته وأولاده، وغياب ابنه الثاني للعمل في السعودية. أخبره بأننا سنقيم مؤقتًا في البيت الذي كان قد بناه الأخير قبل سنتين، ثم راح الرجل يسرد قصة بناء البيت والتكلفة المادية التي أنفقها ابنُه لتصميم هذه الفيلا، على حد وصفه، بالأموال التي كان يحولها شهريًّا، لكنه توقف عن ذلك بانتظار ما ستؤول إليه الأحداث، على أن يكملها عندما تتحسن الظروف.

رحت أستمع إليهم يتحدثون وأجيب المرأة التي عادت بالشاي وجلست إلى جواري تسألني عن صحة أمي، أعني أم كريم بعد أنْ عرَّفني أبو كريم أمامهم على أنني ابنته سعاد.

كان ذهني مشوشًا إلى درجة أنني لم أعد قادرة على التركيز بعد الكذبة التي تفوَّه بها. نهضت المرأة بعد ذلك معتذرةً لإعداد الطعام وعندما خرجت من الغرفة نهضت أنا أيضًا وخطوتُ غاضبةً نحو الباب لأنادي أبا كريم، لكنني توقفت وراء الباب أسترق السمع إليه يخبر الرجل عمَّا حلَّ به منذ أن اختطف ولده، عقب زواجنا بستة أشهرٍ عندما غادر حلب متجهًا إلى الرَّقة في الفترة التي سبقت سيطرة تنظيم الدولة على المدينة. أذكر توسلاتي له، حاولتُ أن أمنعه لكنه أصرَّ على الذهاب. قال إن أحد أصدقائه معتقل في مقرٍّ إحدى تلك الكتائب، وإن قائد تلك الكتيبة تربطه به معرفة سابقة سيستثمرها لإخراجه. أخبرني أيضًا بأن والديه قبلا بزواجنا بعد المعارضة الشديدة التي أبدياها عندما علما بهربي من بيت أهلي، وأنني سأرتدي هذه المرة ثوبَ الزفاف الأبيض عندما سأدخل الرَّقة المحررة. قال لي قبل أن يخرج إنه لن يتأخر، أقل من أربع وعشرين ساعة وسيعود، ثم قبَّلني ومضى.

اعتذرَ يوسف بعد ذلك على أن يعودَ لمساعدتنا في نقل أثاثنا إلى داخل البيت. شكره أبو كريم قبل أن يكملَ سرد ما حدث معه خلال تلك الفترة. أخبره بأنه لا يعرف الجهة التي اختطفته، هناك من قال له إن النظام اعتقله مع مجموعة من الشباب عندما كان عائدًا من حلب عند أحد الحواجز، وهناك من أخبره بأنه رآه في أحد شوارع المدينة قبل أن يَشيعَ خبر اختطافه، وأنه لم يترك أحدًا لم يسأله دون أن يحظى بإجابة شافية، وما عاد يعرف إن كان ما يزال محتجزًا أو تمَّت تصفيته. حدث هذا لبعض أصدقائه الذين ذابوا كالملح منذ أن اشتدت قبضة التنظيم وأصبح يلاحق الناشطين المدنيين. هناك من اعتقلوه، وهناك من وجدت جثته عند أطراف المدينة مقيَّد اليدين مع أثر طلقة في مؤخرة رأسه، وقسم استطاع الفرار متجهًا إلى تركيا أو إلى المناطق التي تسيطر عليها المعارضة المسلحة.

كان صوته قد انكسر عندما راح يخبر الرجلَ بالذل الذي تعرَّض له رجل في عمره، الساعات الطويلة التي كان يقضيها أمام أبواب تلك الكتائب، الشتائم والإهانات التي سمعها منهم عندما كان يلحُّ بالسؤال عن ابنه، التهديد باعتقاله هو أيضًا، الصفعة التي تلقَّاها من عنصر إحدى تلك الكتائب قبل أن يشدَّه من طرف قميصه ويلقيه خارج أحد المقرَّات. قال إنه لم يتوقف حتى هذه اللحظة عن البحث عنه بعد أن هدأت الأمور على الأرض، وسيطر التنظيم على المحافظة كلها بعد اختطاف ولده بأقل من شهر.

عادت المرأة ودخلت إلى الغرفة بعد أن وصلت الشاحنة. تركتها جالسة إلى جوار أم كريم وخرجت إلى البيت الجديد. رفعتُ النقاب عن وجهي بعد أن خرج يوسف وشباب آخرون كانوا قد حضروا لمساعدة أبي كريم في نقل الأثاث.

كدّسوا أمتعتنا في الصالة التي تتوزَّع على جانبيها أربع غرف أخرى، ووراء الصالة كان هنالك حمام ومطبخ يفضيان إلى ممرٍّ ينتهي ببابٍ يطلُّ على أرض مسوَّرة، قدَّرت بأنها سُيِّجت لتكون حديقة للمنزل، لكنها لم تتعدَّ كونها أرضًا متسخة بالروث والأشواك وأكوام من البلوك والحجارة، مثل بقية المنزل الذي بدا للوهلة الأولى غير قابلٍ للسكن: الغرف بلا أبواب داخلية، والجدران مطليَّة بطبقة من الأسمنت، حالها حال الأرضية التي سوِّيت في الصالة والغرفة التي تقع في أول المدخل، بينما بقيت الغرف الأخرى على العظم دون كساء، تتناثر فيها قطع الخشب وأكياس الأسمنت الفارغة وروث الدواب التي عبرت المنزل، أو ربما كان البيت هو الحظيرة.

ما فهمته لاحقًا أن ما أُنجز من البيت كان معدًّا ليجلس فيه ابن الرجل الذي نزح إلى اللاذقية برفقة عائلته، بعد أن كان قد رتَّب نفسه للإقامة في بيت أخيه إلى أن تستقر الأحوال، لكنها لم تستقر، اعتُقل لعدة أيام عند جبهة

النصرة، الفصيل الأقوى على الأرض في المدينة بعد سقوطها من يد النظام خلال الأشهر التي سبقت سيطرة التنظيم، وبعد خروجه عاد إلى القرية كما روت لي أمه، أخذ عائلته وسافر.

لم يكن بوسعي الاعتراض، فهذا أفضل خيارٍ متاحٍ وقتها، ما لدينا من المال نحتاج إليه لتوفير الدواء والطعام، راتب أم كريم التقاعدي يأتي على دفعات متباعدة ولا يكفي لسدِّ جزء بسيط من احتياجاتنا، والمال الذي جمعه أبو كريم على طوال سنوات عمله في الخياطة أُنفق كله في البحث عن ابنه المفقود ومصاريف العلاج لزوجته المشلولة، حتى المحل الذي كان يعمل به منذ أن وطئت قدماه الرَّقة قبل ثلاثين سنة وضع التنظيم يده عليه بعد أن هرب مالكه إلى مناطق النظام وأصبح منافقًا أو كافرًا، لا فرق حسب توصيفهم.

كل الأشياء التي يتركها الناس وراءهم تصبح ملكًا للدولة الإسلامية، تعيد توزيعه على المجاهدين بوصفها غنائم مشروعة، السيارات والبيوت والمحلات التجارية كلها ملكٌ لهم، يأخذونها ليسكنوا فيها مع عائلاتهم التي توافدت من كل بقاع الأرض. أصبح كل شيء مختلفًا خلال تلك الأشهر. فجوة راح يحاول التنظيم متعجلًا ردمها بين الشيء واسمه الجديد في الرَّقة التي دخلتها برفقة والدَي كريم عقب اختطاف ابنهما بستة أشهر تقريبًا. لم يكن لديَّ خيار أفضل بعد أن عشت في تلك المدة عالةً على أصدقاء كريم ونفد المال الذي تركه وراءه، أخليت الشقة تحت تهديد مالكها لتأخري في دفع الأجرة، ثم قضيتها أتنقل من بيت لآخر من بيوت أصدقائه.

دخلتُ المدينة بعد أن استولى عليها التنظيم بعدة أشهر، ألبستني أم كريم العباءة عندما اقتربنا من أول حاجزٍ للتنظيم في الطريق إلى المدينة، وساعدتني في ربط النقاب على محيطِ رأسي ثم أسدلَتْه على دموعي.

كنت يائسةً إلى درجة أنني لم أعترض، ولم أناقش عودتنا إلى المدينة التي كانت قد دخلت قبلي في الدهليز، أستمع إلى كلامهما يؤكدان لي أن عودتهما مؤقتة، بعد أن أصرَّت أم كريم على أن أكون معهما، وأننا سنخرج بعد بضعة أيّام إلى تركيا حيث كانت تقيم ابنتها. لكنَّ بضعة الأيام تلك امتدَّت حتى هذه اللحظة، ما كان ممكنًا صار مستحيلًا مع مرض أم كريم ودمار البيت ونفاد المال، والأمل أيضًا.

أنهيتُ جولتي في البيت وعدت لأقف في زاوية الصالة أنظر إلى كومة أمتعتنا وأثاثنا، أفكِّر من أين سأبدأ عملي. دخلتُ الغرفة القريبة من الباب أتصور الشكل الذي سأرتبها عليه، المكان الذي سنضع فيه خزانة الثياب والزاوية التي سأمد فيها فراش أم كريم، وعندما أردت الخروج منها رأيت يوسف يدخل من الباب حاملًا حقيبتي التي كانت آخر ما بقي في حوض الشاحنة.

تقاطعت نظراتنا قبل أن أسدل النقاب على وجهي. أشاح نظره بعيدًا عني وألقى التحية. رددت عليه وشكرته لمساعدته لنا. «العفو» قالها ووقف في مكانه ثابتًا، ثم انتبه إلى أنه كان يحمل الحقيبة، وضعها فوق كومة أمتعتنا وخرج مسرعًا. رأيته بعد ذلك يقف أمام الباب مع أبي كريم وصاحب البيت. وقفتُ أنظر إليه من وراء النقاب. كان يرتدي ثوبًا قصيرًا يبرز فوق كعبيه، ولحيته طويلة وغير مرتبة تشي بالبؤس الذي يعيشه، حاله حال جميع من في هذه البلاد.

دخلت ابنتا صاحب البيت لمساعدتي في ترتيب الأثاث، شكرتهما وتناولت حقيبتي، حملتها ثم ألقيتها عند مدخل الغرفة التي اخترتها لي ولأم كريم وأكملت طريقي إلى الباب الخارجي. رددتُ الباب ببطء، أصدر صريرًا عاليًا ومزعجًا. سمعت أبا كريم يقول إنه سيزيته، لكنه لم يفعل.

«خلينا نمشي».

قالت آسيا وهي تلقي بعقب سيجارتها على الأرض. مسحتْ وجهها بالنقاب مرة ثانية ودسَّته في جيب ثوبها تحت العباءة. ربطتْ كيسها ثم نهضتْ وحملته على ظهرها وعادت أدراجها من الزقاق ذاتهِ الذي كنا قد دخلناه.

«وين راجعة؟».

سألتها وكانت قد خطت سريعًا قبل أن تتباطأ خطواتها مع سؤالي وتلفَّها تلك الليلة بسواد أشدَّ رهبةً من سواد عباءتها، لكنها لم تجبني.

أمسكتُ طرف حقيبتي وأسندتها إلى ظهري كما فعلتْ بكيسها، ومضيتُ خلفها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الرابع

كان لا بد أن نصل في النهاية.

وقفنا عند أطراف القرية التي كانت تطل على منحدر يشكِّل حدود الأرض الزراعية، الزّور كما يسمونه. كنت أرى في النهار أطرافه خضراء أشبه ببساطٍ مفروشٍ على أطراف تلال بيضاء تشوبها الزرقة تحت أشعة الشمس المتوهجة.

عرفت فيما بعد أن هذه الأراضي تعود إلى أهل القرية، يتوارثون ملكيتها جيلًا بعد جيل ويزرعونها بالقمح والذرة وغيرها من المحاصيل الموسمية التي كانت تتناوب على الأرض طوال أشهر السنة، فلا تنقطع منها الخضرة من أطراف القرية إلى النهر الذي يحدُّها من الجنوب، وأنّ التلال التي كنت أراها من بعيد تقع وراء النهر حيث يمتد زَورٌ آخر وقرى أخرى. أما الآن فقد كان منظر الزور من مكاننا مخيفًا، الرهبة التي تدثِّر المكانَ على اتساعه بالظلام، تدثّره وتحشوه أيضًا، ولا شيء سوى صوت الريح تضرب عباءتي بعنف وقد أصبحت أشد اندفاعًا في تلك الفسحة اللانهائية.

راحت آسيا تجيل نظرها في الزور المعتم وتمشي بخطوات مرتبكة وسريعة، تبحث عن المكان الذي أقام فيه أهل القرية مخيمهم. سمعتها تتأفف وتشتم كعادتها، ثم تعود وتستغفر الله وترجوه الستر والرحمة.

سقطتْ حقيبتي من يدي وسقطتُّ فوقها. أحسست بالخوف يقبض على صدري وسرتْ قشعريرة في مسام جسدي. أردت أن أقول لآسيا إني خائفة، لكن صوتي كان قد جفَّ وانسحب إلى داخلي مفسحًا المجال لأنفاسي التي راحت تعبُّ أكبر قدرٍ ممكن من الهواء دون أن تخفِّف من اختناقي.

كان الهواء ثقيلًا وكثيفًا وكأنه استحال إلى زئبق، أحاول أن أستنشق بعضًا منه وأزفره حتى قبل أن يصل إلى رئتي. تشنَّج جسدي، أمسكتُ ببطني لأخفف من الألم الذي تجمَّع في معدتي وزاد من انقباضاتها. استفرغت كلَّ ما في معدتي دفعة واحدة، أحسست بها تندفع نحو فمي ثم تنسحب ببطء إلى داخلي لتزيد من اختناقي أكثر. سدَّتْ رائحة القيء أنفي، تيبَّست شفتاي. كان طعمه مرًّا وهو يسيل مثل ماء النار إلى معدتي، وأحسست بأحشائي تنزلق كلها إلى قدميَّ وتسحب الدم ثقيلًا معها، لم أعد أقوى على تحريكهما. تجمَّعت قطرات العرق على جبيني وبدأ يسيل بغزارة من جسدي المتصلِّب. حاولت أن أستفرغ مرة ثانية لكنني لم أمتلك القوة لأدفع بما بقي في معدتي. تسارعتْ أنفاسي قبل أن تصيبني نوبة سعال حادَّة جعلت دموعي تطفر من عينيَّ ودخلت في نوبة بكاء هستيري. ركضتْ آسيا نحوي، أخرجتْ نقابها من

جيبها ومسحت وجهي وعنقي به، ثم لفَّتْ يدها حول ظهري ومشتْ بي خطوات عديدة قبل أن تجلسني على صخرة قريبًا من أحد جدران البيوت المطلَّة على الزور. مسحتْ ثيابي من آثار القيء الذي لطَّخها. فكَّت كيسها وراحت تبحث فيه بنزقٍ. سمعت صوت تهشّم مرآتها. أخرجت قطعة قماشٍ صغيرة ورشَّت عليها من عطرها، ثم رشَّت منه على عباءتي لتبعد رائحةَ القيء عني. وضعت قطعة القماش في يدي وطلبت مني أن أستنشقها أكثر من مرة. أردت أن أنهض لكنّها منعتني بيدها، «استريحي»، قالت لي قبل أن تبتعد نحو أطراف السفح وتغيب في الظلام من جديد.

لا أعرف الوقت الذي مرَّ قبل أن تعود ثانية. كنت قد غفوت من شدة التعب، غفوة أعادتني على بعد مسافة قصيرة من مكاني، إلى بيت القرية.

رأيت نفسي جالسة بهدوء وتركيز أمام ماكينة الخياطة في غرفتي. ضوء الشمس يتسلل من النافذة ليشكِّل مستطيلًا يغمرني بدفء لذيذ ويمدني بحرارة لا تتوفر دومًا مع انعدام وسائل التدفئة. كنت أجلس بين أكوام القماش الأسود صامتة، أمرر أطرافه بين أصابعي تحت الإبرة التي تتحرك مسرعة من الأعلى إلى الأسفل، وتشده يدي الأخرى بقوة وثبات. «الله يعطيكِ العافية»، قالها لي أبو كريم كما كان يقولها دائمًا كلما دخل ووجدني منهمكة في الخياطة، يراقبني لحظات قبل أن يعيد تكرار ملاحظاته عن ضرورة أن تكون الغرز دقيقة ومتساوية، وألا يكون خط الخياطة متعرِّجًا، وأن أزيل الخيوط الزائدة عند تقاطع الغرز فيها. أستمع إلى ملاحظاته وأهز رأسي بالإيجاب دون أن أتكلم أو أعترض.

لم نكن نتحدث إلا نادرًا وفي أشياء عامة. يدخل البيت ويجدني جالسة إلى جوار زوجته الممددة على فراشها وعيناها معلقتان بالفراغ، تديرهما نحوه عندما يلقي التحية، يجلس عند طرف فراشها ويمسك يدها، يسألني عن صحتها والأدوية التي تأخذها وما تحتاج إليه، ثم ينهض ويغادر.

رأيت انكساره أكثر من مرة عندما كان ينسحب من أمامي ويغلق الباب على غرفته وقتًا طويلًا، ساعات أحيانًا. أصبح في تلك الفترة أكثر توترًا وبدأ يعبِّر عن غضبه واستيائه من أي تصرف لا يعجبه. كان يبدي ملاحظات قاسية كلما أحضر حاجات المنزل أو سألني عنها، يعترض على الأشياء التي أطلبها، يرى أنني لا أحسن التدبير، مبذِّرة، يستغفر ربه، يحوقل، ثم يطلب مني أن أقتصد في كل شيء. كنت أقابل غضبه بالصمت كالعادة، أهزُّ رأسي وأتمتم بكلمات تخفف توتره: «حاضر»، «متل ما تحب عمو»، أكررها قبل أن أنسحبَ من أمام وجهه. صرتُ أكثر حرصًا على تجنُّب فورات انفعاله. أنام في الغرفة ذاتها مع زوجته، أستيقظ فجرًا لأعد له الفطور، أرتِّب البيت، أكنس، أمسح، أطعم زوجته وأعطيها الدواء، أنتظر نصف ساعة قبل أن أغير لها ثيابها

وحفاضها، أبدّل الشراشف، أغسل الثياب بيدي، أنشرها على السطح، وأنزل لأكمل يومي في الجلوس معها.

كلّ هذا كنت أنجزه قبل الساعة الثامنة صباحًا. كان الوقت فائضًا عن حاجة امرأة مثلي ولا أعرف كيف أنفقه. طلبت منه هاتفًا بدلًا من هاتفي المعطَّل، تعلَّل بقلة المال وأن الأهم هو أن نؤمِّن طريقة آمنة للخروج من مناطق التنظيم. أحضر لي مرة بعض الكتب التي كان يوزِّعها التنظيم على الناس، «اتْسلّي فيها»، قرأتها كلها بدافع الفضول أول مرَّة، ثم أعدتُ قراءتها أكثر من مرة بدافع الملل، ولأستمر في تمرين نفسي على القراءة التي تركتها كما تركت أشياء كثيرة ورائي.

يومًا إثر آخر كنت أنقطع عن العالم، تزداد عزلتي، تضيق مساحة حركتي، تغيب وجوهُ الناس وتغيب معها الأحداث التي تحرك الوقت الراكد، التفاصيل التي تستطيع إحداث أي تغيير وإن كان طفيفًا في رتابة المكان الفائض عن حاجتي، الحواراتُ التي تقدر على دفعك إلى التفكير في أشياء تافهة، الأشياء ذاتها التي لا تكتسب قيمتها من أهميتها بل من وجودها. كل هذه الأشياء كانت تغيب عن تفاصيل يومي في القرية، تتلاشى، تزول..

هكذا صرت لا أعرف ما يحدث خارج غرفتي، أكتفي بما أسمعه من قناتي الوحيدة في هذا العالم: أبي كريم. صار الوحيد الذي يخبرني بما حدث وأصدقه. يقول إن الوضع يزداد سوءًا؛ ما كان مسموحًا في الماضي أصبح محظورًا، الطرق تضيق مع تطور الأحداث وبدء الهجوم على مناطق سيطرة التنظيم، أصدقه، يقول لي إنهم يجلدون كل امرأة تحمل هاتفًا، أصدقه، يستغفر الله وهو يسرد لي ما حدث عندما قتلوا رجلًا بطلقة في الرأس بعد أن صلبوه في إحدى ساحات الرَّقة، وأنه شاهد رجالًا في أقفاص حديدية وسط أكوام من الجماجم والعظام البشرية، أصدقه، يخبرني عن شاب قتل أمه لأنها وقفت بينه وبين انضمامه إلى جماعة التنظيم، يقول إنها عَلويَّة، أرتعد وأصدقه، يخبرني أنه سمع صراخ نساء يستنجدن بجلادتهنَّ من نساءٍ أخريات من كتيبة الخنساء، أهزُّ رأسي مستغربة وأكمل استماعي لما يسرده لي عن عالمٍ مخيف وموحشٍ يقع خارج باب البيت. يقول لي من حينٍ إلى آخر إنهم رجَموا امرأة زانيةً في الملعب البلدي بالرَّقة، يصف لي ما رآه بالتفصيل، أستمع له قبل أن أنسحب إلى تخيُّل ما سيحدث لي لو كنتُ مكانها، هو يرى أكثر مني وهذا يكفي ليعرف العالم أكثر مني.

لكنني لم أكن لأصدق يومًا أنني سأعمل في خياطة عباءات ونُقُبٍ ودروعٍ للنساء وفقًا للأحكام الشرعية التي فرضها التنظيم. كان عليَّ أن أقبل لأعيش، ولأهرب، «الحياة بدها تعب، لازم نتساعد» يقولها قبل أن ينهض من جوار زوجته دون أن يتوقَّف عن ذكر الالتزامات الكبيرة التي تقع على عاتق

رجل عجوزٍ مثله، وأنه أصبح ضعيفًا وعاجزًا هو الآخر. قال إننا سنعمل معًا لنوفر احتياجاتنا ولنؤمِّن المال الكافي للهرب إلى تركيا بعد أن ارتفعت أسعار المهرِّبين دون أن تنخفضَ أسهمُ الخطورة بالمقابل، ولا سيما مع وجود امرأة مشلولة، يتطلب الأمر مبلغًا أكبر بكثير، وهذا عملٌ يمكننا أن نتولاه كلانا، أنا أخيط العباءات وهو يبيعها.

كنت أشعر بروحي وهي تحترق وأنا أنصت لتعليماته وشرحه لطريقة خياطة العباءة، «مو صعبة، عباية ورا التانية بتصيري أشطر»، لكنه لم يتوقف عند أصابعي التي كانت ترتجف وأنا أجلس أول مرة أمام ماكينة الخياطة وأضع يدي على لسان المحرِّك، بينما يدي الأخرى تمسح الدموع التي سالت بصمت أمامه.

مع الأيام صرت أكثر مهارة في الخياطة. أنجز أكثر من عباءة ودرعٍ في اليوم الواحد وأصنع من القماش الزائد النُقُب، أرتبها وفق مقاسات مختلفة، ثم أضعها في أكياس نايلون شفاف وأنضدُّها فوق طاولة صغيرة في الصالة ليأخذها بعد أن يعود من صلاة الفجر ويبيعها في الرَّقة أو في الأسواق الأسبوعية التي كانت تطوف القرى داخل مناطق سيطرة التنظيم.

تحسَّنت العلاقة بيننا بعد أن تطور العمل وصار يدرُّ علينا المال. ليس كثيرًا كما كان يقول، لكنه كافٍ لتأمين احتياجاتنا وادِّخار جزء منه لخطة الهرب. صار يتلطف في كلامه معي ويذكِّرني بأنه يخاف عليَّ كما يخاف على زوجته، وأنني أمانة في رقبته إلى أن يعود كريم ويصلح الله الحال، يودعني ويغادر البيت ليؤذِّنَ لصلاة الفجر، أهزُّ رأسي، أتمتم بتحية هزيلة وأنهض إلى واجباتي نفسها، ثم أنفق الوقت الباقي في الخياطة وانتظار أن يمرَّ يوسف في الصباح.

لم يكن يوسف يأتي كلَّ يوم، أحيانًا تنقضي ثلاثة أو أربعة أيامٍ قبل أن يمرَّ ثانية. كان يتردد كثيرًا علينا في بداية إقامتنا في القرية. وجد فيه أبو كريم الشاب الذي سيعينه عند الحاجة، ساعده على استكمال ما ينقصنا، شراء بعض الأثاث المستعمل، تمهيد أرضية إحدى الغرف لنوم أبي كريم، تركيب ستائر على النوافذ وأبواب داخلية للحمام وللغرف، غرفة أبي كريم أولًا، ثم بعد ذلك بعدة أشهر، بالضبط بعد أن ماتت أم كريم، ركَّب بابًا لغرفتي.

في البداية كان يلقي التحية باقتضاب ويدخل إلى الصالة الداخلية، يتعمَّد إدارة ظهره لي، يجلس بطريقة تجعلني أراه من غرفتي، أذهب إلى المطبخ، أعدُّ لهما الشاي، أحمل الصينية، ينقطع حديثهما، أرتبك، تصطك الكؤوس، أضعها على طرف الحصيرة في الصالة، يشكرني أبو كريم، يصمت يوسف، أعود إلى مكاني في الزاوية التي أراه فيها ولا يراني.

صار أبو كريم يعتمد عليه في تدبير حاجات المنزل، ما نحتاجه من دكانه ويسدُّه بالتقسيط. يدق الباب، يضع الأكياس عند العتبة، يرجع إلى الوراء بضع خطوات، أتناول الأكياس بصمت وأغلق الباب. يتجرأ أحيانًا ويحاول التحدث معي، يسألني عن صحة أم كريم، إذا كنا نحتاج لشيء يحضره لنا من الرَّقة عندما ينزل، عن مولِّد الكهرباء، المازوت. كانت إجاباتي مختصرة جدًّا، كلمات موجزة لا تفتح بابًا لأي حديث: «نعم»، «لا»، «الحمد لله بخير»، «يعطيك العافية»، وكان يختصر هو الآخر من ناحيته، يودعني ويمضي.

ظل الحال هكذا بيننا فترة طويلة حتى ذلك اليوم الذي تأخَّر فيه أبو كريم عن موعد عودته إلى البيت. حلَّ الليل ولم يعد. كنت أقف كلما سمعت صوت سيارة أو وقع أقدامٍ قريبة من البيت، أذهب باتجاه الباب، أتأكد من أنه مقفل وأقرِّب أذني لأسمعَ، ثم أعود أدراجي إلى جوار أم كريم، تأخذني أفكاري إلى مناطق مخيفة، أن يكون قد حصل له أي مكروه، عمَّا سيحدث لنا إذا كان قد اختُطف أو قُتل، أو أنه ببساطة مريض في المستشفى، عما سأفعله إذا كان هناك شيء أستطيع فعله في مثل ذلك الظرف.

في تلك الليلة أدركت حجم الهاوية التي وقعتُ فيها، رأيتُ الكسور التي خلَّفها ارتطامي الشديد بالواقع، وأدركت أنني أنا الأخرى بحاجة إلى أبي كريم، بحاجة شديدة إليه، وربما لذلك أيضًا لم تغمض عيني، وانتظرت حتى الصباح لألبس عباءتي وأذهب إلى دكان يوسف.

«هناك».

استيقظتُ من غفوتي على يد آسيا تهزّ كتفي وتردد ما قالته. رفعت رأسي نحوها. كانت قد تعلَّقت يدها في الفراغ مشيرة إلى جهة في أطراف الزور.

«متأكدة»؟ سألتها.

«اشش» قالت وأصغينا معًا.

كانت هنالك أصوات بعيدة، ثغاء أغنام ونباح كلاب تنحدر من السفح نحو الزور. حملت كيسها على ظهرها ومشت مسرعة قبل أن ترتد عائدة نحوي. نهضتُ مستجيبة ليدها ترفعني. أردتُ أن أحمل حقيبتي لكنني لم أستطع، حملتها آسيا بيدها الثانية، ومشتْ أمامي قبل أن ننحدر من السفح إلى الزور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

النبش الخامس

بدا لي الفراغ الهائل الذي كنت أراه من الأعلى مقبولًا وأقل وحشةً، واستطعت تمييز أبعاده أكثر بعد أن ابتلع خطواتنا ونحن نخترقه نحو أصوات الدَّواب. أخذت حقيبتي من يد آسيا، أخبرتها أنني أصبحت أفضل، لم تمانع وأكملنا مشينا داخل الزور.

شعرتُ برطوبة الأرض تحت قدمَيَّ تغزو أنفي رائحتها المشبَّعة بالماء وقد اختلطت برائحة الحنطة الخضراء، كان طولها قد تجاوز الشبرين، لامست رؤوسها ركبتي، مزروعة في مربعات منظَّمة ومرتَّبة، يسمُّونها ألواحًا، رحت أقيسها بخطواتي، كل تسع خطوات لوح حنطة. قطعنا الكثير منها، قفزنا فوق العديد من السواقي الصغيرة، غاصت قدماي في طينها، تلطخت أطراف عباءتي بالوحل. لكنني لم أشعر بالثقل الذي شعرت به منذ أن خرجت من البيت. استعاد جسدي توازنه، لكن رأسي لم يتوقف عن التفكير بما سيحدث عندما سنقابل أهل القرية، ولا أعرف إن كان أبو كريم سيلحق بنا أو أنه سيغيب كما في تلك المرة، ولم يترك لي سوى انتظاره لخمسة أيام ومخاوف تتشعب في رأسي بحجم الاحتمالات التي تركني بها، وحيدة وعاجزة.

لم أكن قادرة على فعل أي شيء سوى الذهاب إلى دكان يوسف بعد أن انقضت الليلة الأولى من دون أن تغمض عيني.

كانت الشمس قد ارتفعت وطالت أشعتها واجهةَ البيت عندما فتحت الباب. نظرت إلى الغرف التي كان يقيم فيها صاحب البيت. كل شيء على حاله منذ أن رحل أصحابه، يبست دالية العنب التي تتوسط الحوش وتساقطت أوراقها، حالها حال بقية الأشجار. كانت ماتزال هنالك كومة من أعواد القطن اليابس التي كانوا يستخدمونها في إشعال النار للتدفئة وإعداد الخبز، وقد تناثر بعضها وسط الحوش الذي عبرته الدواب مخلِّفة روثها.

كان صاحب البيت قد مات في السجن بعد إقامتنا بفترة قصيرة، حبسوه لأنه حضر عزاء ابن أخته الذي قتله التنظيم بتهمة العمالة للنظام، أصابته نوبة قلبية ومات دون أن يحضر أحدُ ولديه جنازته. بعد ذلك بوقت قصير، نزحت زوجته وابنتاه إلى اللاذقية، خرجوا عن طريق مهرِّب شاطر، المهرب ذاته الذي قال لي أبو كريم إنه سيتولى مهمة إخراجنا من هنا فور تأمين المبلغ المطلوب.

في تلك الفترة وضع التنظيم يده على البيت، ولا أعرف ماذا فعل أبو كريم ليمنعهم من إخراجنا نحن أيضًا. كان بعض أقاربهم يأتون ليتفقدوا البيت بعد رحيل المرأة وابنتيها، لكن عناصر التنظيم منعوا ذلك، ثم أحضروا أحد

عناصرهم وعائلته وأسكنوهم في البيت. عرفت من أبي كريم أنهم من تونس، امرأة وزوجها كنت أراهم من خلف الستارة كلما عبروا من أمام بيتنا. كان الرجل ضخمًا بلحية طويلة شقراء، يرتدي اللباس الأفغاني ويحمل على كتفه بندقية كلاشينكوف، أما المرأة فكانت مثل أية امرأة أخرى، لا ملامح لها سوى السواد الذي يدثرها فقط، تمشي إلى جواره وتحمل طفلها الصغير بحضنها. لم تطل إقامتهما في القرية، أقل من شهر قبل أن يرحلوا ويأخذوا معهم كل محتويات البيت. جاءت عناصر التنظيم مرَّة ثانية، أوصدوا الأبواب، كتبوا بالبخاخ الأحمر تابع للدولة الإسلامية وذهبوا.

وضعتُ حجرًا كي لا تغلق الريح الباب ورائي ومشيت إلى دكان يوسف. كان كل شيء غائبًا في ذلك الصباح الخريفي، الأبواب موصدة، الدروب الترابية التي تتفرع على جانبي الزقاق خالية من الناس، حتى الأطفال الذين كانوا يلعبون بالقرب من بيتنا وتصلني أصواتهم غابوا تمامًا، وحدها رؤوس الأشجار تطلُّ من وراء الجدران وتتمايل مع هبَّات الريح التي انكسر سمُّها أوائل شهر أيلول ٩.

مشيت بخطواتٍ سريعة أتلفَّت حولي في الزقاق. تصبَّب العرق من جسدي، واستحالت أنفاسي بقعة نديّة تتوسّط نقابي.

احتجت خمس دقائق لأصل إلى الدكان. كان معتمًا أشبه بكهف لا تصله الشمس التي ارتفعت في السماء ضاربة بأشعتها واجهته.

«يا أخي»! ناديت عليه لكنَّ أحدًا لم يجب. ولجتُ إلى الداخل مسرعة عندما لاحت لي سيارة تتقدم على الطريق العام.

كانت البضائع مكوَّمة فوق بعضها، صناديق وأكياس خيش تحت رفوف جانبية تكدَّست عليها أيضًا الكثير من الأكياس والخردوات ومعدَّات زراعية. وفي صدر الدكان رأيت خزانة صغيرة ضمَّت علب سكاكر وأكياس شيبس علاها الغبار، وإلى جوارها كان هنالك باب خشبي صغير قدَّرت أنه يصل الدكان بحوش بيته.

وقفت لحظاتٍ وسط الدكان حائرة أفكّر في ما سأفعله. وقعتْ عيني على هاتف أرضي كان موضوعًا فوق طاولة خشبية تقشَّر طلاؤها. بدا الهاتف مهملًا من طبقة الغبار التي تعلوه. اقتربتُ لأرفع السماعة لكنني تراجعت عندما سمعت صوت سيارة أخرى تعبر الطريق مرة ثانية.

تذكَّرت ما أخبرني به أبو كريم عندما توسلت إليه أكثر من مرة لكي يساعدني في التواصل مع أحد أصدقاء كريم. أخبرني أنّ الهواتف الأرضية مقطوعة أغلب الوقت ولا تؤمن اتصالًا خارج حدود المحافظة بعد أن قصفت طائرات

التحالف مراكز البريد الرئيسة في المدينة. كل كلمة تقال على الهاتف مراقبة، مسموعة. أخبرني أيضًا أن الذهاب إلى مقاهي الإنترنت يعدُّ مغامرة لا يمكن التنبؤ بعواقبها. كانت توسلاتي له تنتهي دومًا بقصة مفجعة حدثت لأحدهم عندما فتشوا هاتفه أو تلصصوا على مكالماته. يعدني بالتواصل مع الأرقام التي سجلتها له، يغيب حينًا ويعود ليخبرني بأن الرقم الذي سجلته له خارج عن الخدمة أو أن من تواصل معه تجاهل تمامًا معرفته بي وبكريم، أو أنهم ببساطة لا يستطيعون مساعدتي. يتذمَّر وينعت رفاق ابنه بالكلاب الذين هربوا وتركوا الدمار وراءهم. يصمت أمام خيبتي ويغيب منشغلًا بيومه قبل أن يعود بعد ذلك ليبشِّرني بأنه سمع أخبارًا عن كريم، وأنَّ شخصًا ما وعده بمعلومات أكثر حول مكان اعتقاله. «معناتو عايش»! يتهلل وجهه حين يقولها، يشكر الله وينسحب من أمام عينيَّ مسرعًا. تمر أيام ويعود مرَّة أخرى ليخبرني بأنه سيذهب إلى مناطق بعيدة ليسأل عنه، أسماء رجال لا أعرفهم، ألقاب وكنى، الرَّقة، دير الزور، الموصل، تل أبيض، الحواجز التي عبرها وسيعبرها ليصل إلى تلك المناطق والمخاطر التي تنتظره هناك. معلومات ناقصة دومًا وجمل كثيرة غير مفهومة يمررها واثقًا من عدم معرفتي، يجدِّد في نفسي الأمل، ويسوِّرها بالخوف.

كان تحت طاولة الهاتف مجموعة من الدفاتر والكتب المكوَّمة فوق بعضها. انحنيت مرتبكة أبحث عن ورقة لأكتب له رسالة، انهارت الكومة من ارتباكي، أعدت تنضيدها بسرعة ولفت انتباهي كتاب كان قد أفلت من الغلاف الجلدي الذي يخفيه، لمحت العنوان الذي زاد من خوفي، يوسف يقرأ مثل هذه الكتب؟ تساءلت وأنا أدسُّه أسفل الكومة، التقطت ورقة صغيرة، كتبتُ عليها أخبره بغياب أبي كريم، والدي كما دربَّت نفسي طوال الطريق، تركتها على طاولة البيع وخرجت. لم يمضِ وقت طويل حتى جاء يوسف، استفسر مني عمَّا حدث ووعدني بأن يبحث عنه ثم غادر.

أمضيت النهار بانتظار عودته، أعمل وأهدِّئ من روع زوجته التي كانت لا تفعل شيئًا سوى هزِّ رأسها مستفسرة، أذرع الصالة جيئة وذهابًا، أطل من وراء الستارة، أقف وراء الباب، أعود لأضيف احتمالًا آخر وراء غيابه، ومقابل كل احتمال كانت هنالك حياة مستحيلة؛ لا أمل بالهرب من دونه، ولا بالبقاء أيضًا.

في الليل جاء يوسف. فتحت له الباب، أصدر صريره عاليًا في سكون القرية. ولم يكن هنالك ما يقبض قلبي أكثر من صريره كلما فتحته. ألقى التحية عليَّ عندما انقطع الصرير. أخبرني أن أبا كريم بخير، سيحتاج إلى بضعة أيام وسيعود. استفهمت عن سبب غيابه. تردد قبل أن يخبرني بأنه محتجز عند التنظيم. جمدتُ في مكاني وراء الباب أفكر فيما سيحدث لو أنهم قاموا بقتله أو اعتقاله مدة طويلة، لكن يوسف أكّد لي بأنها مسألة وقت، «شغلة بسيطة،

تأخر عن صلاة الظهر، ما يطوِّل انشالله». حاول أن يخفف من وقع الأمر عليَّ بأن هذه القضايا بسيطة ولن يتأخر في العودة. صمت ينتظر ردًّا مني، راح يعيد الجمل ذاتَها ليؤكد لي عودته قريبًا، سألني إن كنت أحتاج إلى أي شيء. سمعت سؤاله لكنني لم أعرف بماذا أجيبه.

كان صرير الجنادب قد ارتفع عندما صمتنا معًا. أخبرني بعد ذلك بأنه سيحاول من خلال أحد معارفه تعجيل خروج أبي كريم، والدي كما راح يردد. سألني مرة ثانية إذا كنت بخير. صعدت من شفتي «نعم» هزيلة. قال إنه سيأتي في الصباح ليطمئنَ علينا، قال أيضًا إن بيته هو البيت الملاصق لدكانه، يمكنني أن أناديه في أي وقت ثم ودّعني ومضى. أوصدت الباب وانتحبت.

كانت خمسة الأيام تلك من أصعب الأيام التي عرفتها منذ غياب كريم. اكتشفت فيها معنى آخر للوحدة التي علقت فيها، الوحدة التي نصب لي أبعادَها رجلان غريبان في هذه البقعة المظلمة من هذا العالم. لم يكن أمامي سوى الانتظار مرة ثانية. قضيتُ تلك الأيام صاحية، أنام في أوقات متقطعة وقصيرة. كان البيت أشبه بكنيسة غارقة في الثلج في قرية نائية. صمتٌ مطبقٌ لا يقطعه سوى صوت الماكينة تدرز القماش على شكل زخات رصاص كثيفة تستطيع أن تشوِّه ذلك الركود الأبدي. أعمل طوال الوقت، ولاشي يدفعني إلى ترك المقص أو الماكينة سوى أداء الخدمات المتعلقة بأم كريم. كانت هي الأخرى لا تنام، وعلى حالتها لا تتكلم كأنّها تمثال لقديس في تلك الكنيسة، يسمعنا ولا يتكلم، ثم يجيء الوقت الذي لا نتكلم فيه نحن أيضًا لإيماننا بأنه لن يتكلم، يصبح الأمر عبئًا أو صلاة لا فرق. أخدمها وأعود إلى العمل. أمسك المقص بيدٍ ثابتة وبالمسار الذي حدده أبو كريم، طريقة مدِّ القماش تحت إبرة الماكينة، الضغط على لسان المحرِّك بقوة ثابتة، أخفف الضغط كي لا تنكسر الإبرة مرة ثانية، أضغط من جديد، ترمش عيناي، أشد على أعصاب جفنيَّ؛ «التوتر والخياطة لا يجتمعان»، يقولها وهو يتابع يدي ترسم بالطبشورة خط الذراع. أسمع صوت أنفاسه منتظمة حين يقرّب رأسه من القماش ويفحص الغرز وانسياب خط الخياطة، آخذ شهيقًا سريعًا وأزفره ببطء، أعيد تثبيت القماش، تركض الإبرة في المساحات السوداء وفقًا للمسارات التي حددها هو، أقيس المسافة بين الكتفين، السنتميترات التي تحدد مقاس العباءة، أفتّق العرى، أزيل الخيوط الزائدة برأس المقص بضربات سريعة، خياطة الأزرار، أنفض العباءة في الهواء، آخذ شهيقًا طويلًا هذه المرة وأزفره بسرعة.

«يا ناس... يا ناس» صاحت آسيا بصوت عال.

«حدا يسمعنا»؟ قالت وأفلتت الكيس من يدها. راحت تدور حول نفسها تتلفت في كل اتجاه، رفعتْ يديها إلى الأعلى، تلامستْ أصابعها أمام فمها

كأنها تمسك ببوق وصرخت منادية بأعلى صوتها.

وقفت مذهولة أمام امرأةٍ غابت ملامحُها في عواء طويل أشبه بالنشيج، امرأةٍ تحولت إلى ذئبة تعوي في حقول الحنطة. كان جسدُها يسيل إلى الأسفل كأنّه صلصال ينزلق من رأسها إلى الأرض، ثم يرتفع ببطء نحو الأعلى منتصبًا بالقوة التي تسحب أكبر قدرٍ من الشهيق قبل أن تعويَ ثانية في سماءٍ بلا قمر، بلا إضاءةٍ تكفي لرؤية كلّ هذا الخوف.

ألقيتُ حقيبتي على الأرض، وقفتُ أمامها، امتزجتْ أصوات أنفاسنا، تناغم ارتفاع صدرينا وهبوطهما، رفعت يدي إلى الأعلى، تلامستْ أصابعي أمام فمي على هيئة بوقٍ وصرخت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش السادس

- «من أنتما»؟

قالها عندما ضرب الضوءَ على جسدين متعانقين.

احتضنتُ آسيا، طوَّقتُ ظهرها بذراعي، لكنها لم تفعل مثلي، ظلت جامدة في مكانها لحظاتٍ كأنّها جذع شجرة ميتة. رفعتُ رأسي نحو وجهها. كانت عيناها قد تحجَّرتا ونظراتها ثابتة تحدق إلى نقطة من سواد هذا العدم. أسندتُ رأسي إلى صدرها وبكيت، وعندما سمعتْ بكائي، مدَّتْ ذراعيها واحتضنتني لحظة ثم أبعدتني عن صدرِها عندما طلب الرجل منا أن نذهب معه.

راح يسلِّط الضوء على خطواتنا ويمشي قريبًا منا. كان قلبي يزداد خفقانًا كلما اقتربنا من مكان تجمع الناس. أضاء البيل وأطفأه مرات عديدة ثم انحرف نحو اتجاه آخر غير الاتجاه الذي كنا نمضي فيه.

أكملنا المسير من دون أن ننطقَ بأية كلمة. كنت أفكر فيما سيحدث عندما نصل إلى هناك، وبما سأقوله ليوسف عندما أراه. فكرت أن أعتذر هذه المرة أيضًا، ولا أعرف إن كان سيتفهَّم أسبابي أم سيدير ظهره ويمضي كما حدث قبل ذلك، ولا أدري إن كان يمكن وصف ما حدث بيننا بالعلاقة أصلًا. لكنني أتذكر أول مرة رأى وجهي فيها في صباح اليوم الذي أفرج فيه عن أبي كريم. ألقت السماء الملبدة بالغيوم ظلالها المعتمة علينا عندما فتحتُ الباب له هو وأخته الصغيرة. وقف عند الباب وأخبرني أنهم أفرجوا عن أبي كريم. ارتسمتْ ابتسامة عريضة على وجهه ووقف ينتظرني أن أعلِّق. قال لي إنه سيكون في القرية بعد الظهر على أبعد تقدير، واقفًا أمام دكانه حيث يتوقف السرفيس عادةً ثم سيوصله بيده إلى البيت. حاولت أن أبتدع ردَّة فعل طبيعية لابنة تسمع خبر خروج والدها من السجن، وضعتُ يدي على فمي، بينما عيناي تسألانه عمَّا سمعته، وانزاح الشال الذي كنت أتلثم فيه مُظهرًا بقية وجهي. ارتبك وأخفض رأسه، عاد خطوة إلى الوراء قبل أن ينظر نحوي ثانية. رفعت يدي لأعيد تثبيته لكنني تراجعت واكتفيت بتعديله فوق رأسي، لاحظ ارتباكي فابتسم. في الحقيقة لم أكن أرى ضرورة لإخفاء وجهي على الرغم من تحذيرات أبي كريم بهذا الشأن، لكنني فعلت كما تفعل معظم النساء اللواتي عرفتهن خلال إقامتي في مدينة الرَّقة والقرية. كان ارتداء العباءة والنقاب عند الخروج من البيت، أمَّا في الداخل فلا حاجة لأكثر من ارتداء الحجاب ولفِّ أطرافه على هيئة لثام إنْ لزم الأمر.

شكرته على ما بذله من جهد لإخراج أبي كريم، وعما فعله من أجلنا أيضًا، واعتذر هو بالمقابل عن أي تقصير بدرَ منه قبل أن يلوذ كلانا بالصمت.

كانت أخته تقف أمامه وتنظر نحوي، سألتُها عن اسمها، لكن الطفلة ظلت صامتة تبحلق إليَّ، «فريدة» قال يوسف وراح يمسِّد رأسها براحة يده. رفعت الطفلة رأسها نحو أخيها وسمعتها تسأله عن اسمي، «سعاد» أجابها. ضرب الاسم في رأسي وكانت رغبةٌ بالإفصاح عن اسمي الحقيقي تحتشد في داخلي. أردت أن أقول له إن هذا ليس اسمي، وإنني أعيش في قصة مختلقة. أذكر أيضًا أنني فكرت للحظة فيما إذا كان من عمري أو أنه أكبر، عامين على الأكثر، هذا ما توحي به ملامحه على الرغم من شعره الطويل الذي لامس أطراف كتفيه ولحيته التي طالت دون أن تغطيَ عنقه. كانت هذه هي المرة الأولى التي أتأمل فيها ملامحه عن قرب بأنفه الدقيق وشفتيه الممتلئتين، أما عيناه فكانتا أشبه بحجرين تختزنان ضوءًا يلمع على سطحيهما تحت جبهته الضيقة، تتمدد خلالها خطوط أغمق من لون بشرته الخمري، وكأنها تعتَّقت أكثر تحت سطوة شمس هذه البلاد القاسية.

كان من الممكن أن يكون هذا كل شيء، لولا جوعي لحقيقتي. أذكر أنني تركت بابًا مواربًا في داخلي له عندما استوقفته قبل أن يخرج وراء أخته التي انسحبتْ من تحت يده وركضت مستجيبةً لأصوات صغارٍ كانوا يلعبون في الزقاق القريب.

«دير بالك عَ حالك».

التفت نحوي دون أن يفلت مقبض الباب.

«قراءة الكتب جريمة كما تعرف» أضفتُ وكنت أقصد الكتاب الذي رأيته في دكانه. ابتسم في وجهي قائلًا:

«الجريمةُ أن نتوقفَ عن القراءة يا صديقتي».

ضرب نداؤه لي بصديقتي في رأسي، الكلمة التي لم أسمعها منذ أن وطئت قدماي هذه البقعة. أكمل وقد أحسّ بارتباكي:

«فهمتُ من والدكِ أنك كنت تحضِّرين للماجستير في الأدب العربي».

فكَّرت أن أبا كريم لم يكذب في هذه النقطة، هذا جيّد، على الأقل حافظ على جزء من سيرتي الذاتية دون أن يلوّثه بكذبة أخرى. أجبته:

«كان من المفترض أن أنتسب إلى برنامج الماجستير قبل أن يحدث ما حدث».

«كلنا توقّفنا عن الدراسة أنا أيضًا كنت أنوي استكمال دراستي العليا في كلية الحقوق، ولكنني لم أستطع تركَ والدي هنا وحده. مات وترك مسؤولية إخوتي الصغار وزوجته برقبتي».

«أنا آسفة، الله يرحمه».

«لا داعي للأسف، الموت ليس سيئًا دومًا، أفضل من هذه الحياة التي نعيشها».

«ستعيش إذا خبأتَ كتبك جيدًا».

ضحك لتعليقي. شجَّعتني ضحكته فأكملت:

«وستعيش إذا واظبتَ على قراءتها».

«معضلةٌ جميلة»!

قال وأومأ برأسه معجبًا بتعليقي، ثم أردف:

«عادةً لا أحضر الكتب معي إلى الدكان، ولكني كنتُ أقرؤه طوال الليل ولم أستطع منع نفسي عن إكماله. بقية كتبي دفنتها في الأرض، أخرج بعضها وأخفي بعضها الآخر. لم أتوقع أن يعبث أحد بدفاتر الدكان، دكان كلِّ الأشياء».

قال جملته الأخيرة وضحك مستهزئًا.

«أنا آسفة، لكنني كنت أريد..».

قاطعني:

«لا بأس، أنهيته على أية حال، الصراحة، الكتاب يستحق الجَلد».

ضحكت لتعبيره.

«لا تستهويني هذه النوعية من الكتب، لكن لغز عشتار كتاب جميل، قرأته قبل سنوات».

«تقرئين إذًا»؟ سألني بفضول.

«لا، إذا استثنينا الكتب التي يحضرها أبي من المسجد والمنشورات التي يوزعها رجال الدولة كما تعرف».

تنهّدتُ قبل أن أكمل:

«كان عندي مكتبة في البيت، لكن والدي أحرقها عقب اعتقال..».

تركت جملتي معلَّقة دون أن أجرؤ على وصف كريم بأخي كما يظن يوسف. تذكَّرت اللحظة التي جاء بها أبو كريم إلى البيت في الرَّقة وأخرج كتب كريم وكوَّمها وسط الشرفة، ثم سكب عليها المازوت وأحرقها. لم يستمع لتوسلات زوجته ودموعها أن يتركها مخفية في مكانها منذ أن سيطر التنظيم على الرَّقة، قال لها إنهم يشنون حملات تفتيش واعتقال، وإنهم إذا عثروا على هذه

الكتب فسيعتقلونه هو أيضًا، «نخلص منها أحسن»، قال وارتفعتْ ألسنة النار تلتهم الكتب أمام عيني، ولا أعرف لماذا مددتُ يدي إلى أحد الكتب التي لم تكن النار قد طالتها بَعدُ مستغلةً حديثه مع أم كريم داخل إحدى الغرف، التقطته ودسسته تحت جاكيت بيجامتي. كان المهم عندي أن أفعل شيئًا أمام هذه المحرقة، أن أنقذ كتابًا واحدًا على الأقل. كانت بقع المازوت تلطِّخ أوراقه تاركة رائحتها النفاذة في طيَّاته التي تسرَّبت إلى ثيابي أيضًا، ولم يكن كتابًا مهمًّا، أحد كتبه الجامعية التي كان ما يزال يحتفظ بها، غلَّفته بكيس نايلون أسود وأخفيته بين أشيائي، قبل أن أعود لأكنس رماد بقية الكتب وأتولى مهمة إزالة آثار الجريمة، الجريمة أو تحاشيها، لا فرق!

«وماهي الكتب التي تحبينها»؟

سألني يوسف بعد أن طال انتظاره لأكمل كلامي، رفعتُ نظري إليه:

«أفضِّل الأدب أكثر، روايات، دواوين شعر».

«هل تكتبين»؟

«لا، بعض الخواطر واليوميات، لكنني أفضِّل القراءة أكثر، وأنت»؟

«لا، ليس في هذه الفترة على الأقل، ربما بعد أن ينجلي هذا السواد، يمكننا أن نحاكم أفكارنا»، صمت لحظة ثم أردف: «ونحاكم التاريخ أيضًا».

هززت رأسي ولم أعلِّق على كلامه الذي أخذني إلى ما كنت أفعله كلما شعرت بحاجتي إلى الكتابة ومحاكمة تاريخي الشخصي إذا كان هذا التعبير مقبولًا. أكتب كل ما يخطر ببالي، أسرد تفاصيل يومي، ذكرياتي، حنيني، مخاوفي وكل المشاعر التي كنت أحسها، ثم أحرق الأوراق وألقي برمادها في سلة المهملات، لكنني بعد ذلك وخوفًا مما سيحدث لو وقعت ورقة في يد أحد ما، صرت أكتفي بالحديث مع نفسي، أفتح الخزانة في المطبخ وأسرد ما لست قادرة على كتابته، أو لماكينة الخياطة كلما منعني التفكير عن العمل، أو حتى لأم كريم لثقتي بأنها لا تتكلم. كان يكفيني أن أتحدث، أن أفرغ ما في داخلي كله، أن أشرحه وأعيد تأويله أمام جمادات لا يمكنها أن تشيَ بي، أو تحاكمني على الأفكار والمشاعر التي تعتلج في صدري.

«هل تريدين أن أحضرَ لك كتبًا تقرئينها»؟ سألني بعد أن طال صمتي وقد رجع خطوة ووقف عند الباب.

«شكرًا، ولكنني لا أريد أن..».

«أبدًا. يمكننا أن نتشارك هذه المخاطرة»، قاطعني.

«مخاطرة إضافية»؟! سألتُه.

«لكنها ستفيد كثيرًا، على الأقل أضمن أنك لن تبلَغي عنِّي».

ضحكت لتعليقه، ثم قلت له:

«ولكن لا تخبر أبي أرجوك، هو رجل كبير ولا يفهم مثل هذه الأمور، فضلًا عن خوفه كما تعرف».

«القراءة سرٌّ جميل. أليس كذلك»؟

قال وقد أحسَّ بارتباكي. كتفتُ يدي على صدري وأخفضت رأسي متحاشيةً نظراته المصوَّبة نحوي.

«سأفتش عن كتاب يناسب اهتماماتك: درويش أو منيف»؟

«الذي لا يكلفك الحفر أكثر»!

«الحفر أفضل ما يمكن أن نقومَ به الآن». علَّق بابتسامة وغادر.

بعد ذلك توطدت العلاقة بيننا، صار يمرر لي الكتب مع الأغراض التي يحضرها، أقرؤها خفية عن أبي كريم، يسألني أحيانًا عنها، نتحدث سريعًا عند الباب قبل أن يمد يده بكتاب آخر ويمضي.

قرأت الكثير من الكتب، غبت في عوالم بعيدة لروايات تتقاطع شخصياتها معي قبل أن تنسحب وراء مصائرها، مدن عربية وأجنبية، شوارع، بشر، حوارات، أزمنة لا يتوقف فيها الوقت كما حدث معي، قصائد تبحر بي بعيدًا عن فراش أم كريم وماكينة الخياطة والباب الذي يصدر صريره مرتين على الأقل يوميًّا. وعندما يجافيني النوم أشعل لمبة الكاز حتى أقتصد في المصروف، أطلُّ برأسي من تحت اللحاف وأقرأ وقتًا طويلًا قبل أن أدسَّه تحت الفراش وأنام.

كان يوسف يقترب مني يومًا إثر آخر. بنيت عالمًا موازيًا بلقاءاتنا الخاطفة. صرت أنتظر مجيئه لأتحدث معه عند الباب. كانت الكلمات القليلة كافية لتجعلني أشعر بأن يومي أفضل. أصبح نافذةً ثانية أطلّ بها على جهة أخرى من العالم قبل أن أوصدها بيدي.

ثلاثة أشهر كنا نتواصل فيها من خلال الكتب والتعليقات التي أتركها له على هوامش الكتب، حدَّثني عن نفسه، عن أحلامه التي تركها وراءه في دمشق وعاد إلى الرَّقة بعد أن غادر بقية إخوته ولم يبقَ سوى والده وزوجته وإخوته الصغار من أبيه، ثم مات والده ولم يبقَ سواه ليرعاهم. فتح الدكان وصار يعمل في تجارة كلِّ الأشياء كما يصفها ليؤمِّن لقمة عيشهم. قال لي أيضًا إنه لم يكن يتوقع أن يعود إلى الرَّقة بعد أن شرع يبني مستقبله في العاصمة. ترك الفتاة التي كان سيتزوجها وعاد لتلبية الواجب، قال إنها لم تكن لتنتظره

في مثل هذا الوقت الذي ينفد فيه الرجال؛ تزوجت برجل آخر. كان يحدثني سريعًا عن حياته التي لم تكن تشبه بأي شكل هذه الحياة التي يعيشها، أستمع إليه وأبتسم، وعندما يسألني عن حياتي، أفترض امرأةً أخرى غيري، تتقاطع معي في بعض السطور في سيرتها الذاتية، لكنَّها في النهاية ليست أنا. كان كلامي استكمالًا للكذبة التي ورَّطني فيها أبو كريم، ومشاعري أيضًا. لكن ذاكرتي كانت تنغِّص عليَّ، تستدعي صورة كريم واقفًا في مكانه ينظر نحوي مبتسمًا أحيانًا وغاضبًا أحيانًا أخرى. كنت أزيح صورته لأحظى بقليل من حياة عادية تحت سقف التوقعات، لكنَّها كانت كافية لي، مجرد إنسانٍ خارج هذه الدائرة التي تضيق حولي. يستولي عليَّ شعور بالذنب كلما أغلقت الباب وراءه وعدتُ إلى ماكينة الخياطة، ثم أنفض كل شيء من رأسي وأعود إلى العمل.

«انتظرا هنا».

قال الرجل قبل أن يكمل طريقَه في الظلام.

كنا قد وصلنا إلى أرض منخفضة بعد أن توغَّلنا عميقًا في الزور بالقرب من إحدى سواقي المياه المحمولة التي كانت جافة وقد انقطع جريان الماء فيها. ألقت آسيا كيسها على الأرض وراحت تمسح وجهها براحتي يديها وكأنها تغسله من الغبار الذي علق فيه طوال مسيرنا. نفضتْ عباءتها من جهة صدرها ووقفت تنظر إلى حيث مضى الرجل. قالت بعد ذلك دون أن تتوقف عن التحديق:

«قفي بجواري ولا تتكلمي، سأتولى أنا هذه المهمة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش السابع

هذه أول ليلةٍ لي في العراء..

كانت الساعة تشير إلى العاشرة إلا ثلث ليلًا عندما وصلنا إلى المخيَّم. أكثر من ساعتين ونحن تائهتان في الطريق إلى الزور.

جلست بجوار آسيا صامتة أجيل نظري في خيالات لم أستطع تمييزها بوضوح من دون أن تفلت يدي طرف عباءتها.

كانت الأرض غير مزروعةٍ تحيط بها حقول الحنطة من كل جانب. وكان هنالك خيمتان انتصبتا وسط الأرض بالقرب من ثلاث أشجارٍ عظيمة ارتفعت أغصانها عاليًا وتشابكت.

بدت لي الأشجار كأنّها وحش كبيرٌ يهيمن بخياله على أهل القرية الذين مدُّوا فرشهم والتحفوا بأغطيتهم في مجموعات صغيرة، في المساحة الفاصلة بين الأشجار والخيمتين. وعندما انتبهوا لوجودنا، وقف بعضهم في مكانه بينما بقي الآخر جالسًا، تصلني أصواتهم مبهمة قبل أن يتقدم نحونا أحدهم في الظلام وكأنه انسلخ من إحدى تلك الأشجار. كان رجلًا كبيرًا، طويل القامة يمشي مهيبًا، فارضًا حالة من الصمت على أصواتهم التي كانت تنقطع كلما عبر إحدى تلك المجموعات يتبعه رجلٌ آخر يحمل فانوسًا يصدر ضوءًا شحيحًا. وحده صوت عصاه كان مسموعًا وهي تنغرز في الأرض الرَّطبة كلما اقترب منا.

نهضتْ آسيا ونهضتُ معها وتقدمنا نحو الرجل. بادرتْ آسيا بإلقاء التحية عليه. ردَّ عليها التحية بصوت هادئ مشبعٍ بالوقار.

«من أنتما»؟ سألها.

تراجعتُ خطوة إلى الوراء.

«امرأتان غريبتان، أنا زوجة إبراهيم الحسن، أبو عبد الكريم مؤذن المسجد»، أجابت آسيا وأدارت رأسها مشيرة نحوي:

«وهذه زوجة ابنه».

خطفتُ نظرة إليها، ثم أخفضتُ رأسي ثانية أتابع حوارهما.

«وأين هو الآن»؟ سألها.

«تركنا وهرب»، قالت جملتها الأخيرة وتنهّدتْ بعدها.

حوقل الرجل أكثر من مرة قبل أن يرفع عصاه ويعيد تثبيتها في موضعٍ آخر.

«لا نعرف أحدًا يا حاج لنلجأ إليه غيركم. نحن امرأتان لاحول لنا ولا قوة ولا ذنب لنا إذا كان..».

سكتتْ آسيا لحظة قبل أن تكمل: «نريد الأمان».

«الأمان بيد الله وحده»، أجابها.

«ونعم بالله يا حاج! نحن لا ذنب لنا، نريد أن نقيم معكم حتى تنتهي هذه المعركة. احْسبنا بحسبة بناتك ولا تكشّف حَسَبْنا، داخلين على الله وعليك».

أطرق برأسه إلى الأرض لحظة، تنهَّد عميقًا وراح يستغفر ربه. قال بعد ذلك:

«الأرض أرض أللە، والأمان بيد أللە، وما يصير ألّا الكاتبه أللە».

شكرته آسيا ورفعت يديها تدعو الله أن يحفظه ويستر عليه كما ستر علينا.

«غدًا سنرتِّب المخيم إن شاء الله، يمكنكما أن تناما هنا هذه الليلة». قال، ثم نادى أحدهم وأمره بإحضار بساط وأغطية لنا. لم يتأخَّر الشاب بإحضارها، مدَّ البساط على الأرض ووضع الأغطية فوقها، غاب قليلًا ثم عاد حاملًا إبريق ماء وناوله لآسيا. سألَنا الرجلُ الكبير إن كنا نريد تناول الطعام، لكن آسيا شكرته مرة ًثانية وأخبرته بأننا نريد أن نرتاح فقط. استدار وعاد بعد ذلك يمشي بخطوات بطيئة مخترقًا الهمهمات وراءه وهو يمضي عائدًا نحو الأشجار التي خرج منها.

تنهّدت آسيا تنهيدة عميقة، قبل أن تلتفت نحوي.

«تمَّت المهمة».

«لماذا أخبرتهم أنني زوجة ابنه»؟

خلعتْ حذاءها ووضعتْ كيسها عند طرف البساط وجلست متربعةً بجواره.

«هل تعتقدين أنهم مشغولون بحقيقتك ومن تكونين»؟ ردَّت عليَّ بسؤال وانشغلتْ تسوِّي كيسها على شكل وسادة، ثم رفعتْ رأسها تنظر نحوي وقالت بنزقٍ:

«زوجة ابنه أو ابنته، هذا ليس مهمًّا».

ليس هذا مهمًّا بالفعل الآن، فكَّرت، المهم أننا الآن مع أهل القرية وقد زالت مخاوفي التي كانت ترافقني طوال مسيرنا.

أسندتْ آسيا رأسَها إلى كيسها ومدَّت الحرام الصوفي على جسدها، ثم أدارت جذعها نحو جهة الحقول. أزحتُ حقيبتي إلى مستوى رأسِها وجلست متربعة بجوارها.

كانت الأصوات قد خفتت، لا شيء سوى نباح كلاب بعيدة تختلط بهمهماتٍ متقطعةٍ تصلني ممزوجةً بأنفاس آسيا التي احتاجت وقتًا قبل أن تنتظم من جديد.

هذا هو الزور إذًا. فكرت وأنا أنظر إلى خيالات البشر الذين توزَّعوا حولنا. أدرتُ رأسي إلى آسيا وسألتها هامسة:

«هل وصل يوسف إلى المخيم أم أنه..».

«يلعن أبو يوسف اللي ذبحتينا فيه» قاطعتني بنبرة حادة دون أن ترفع الغطاء عن وجهها، ثم عادت ودثرتْ نفسها جيدًا. أكملت:

«نامي وخليني أنام، وإذا مو نعسانة روحي دوري عليه».

أخرجتُ معطفي وارتديته فوق العباءة، ثم سحبتُ الوسادةَ الوحيدة التي أحضرها الشاب ووضعتها تحت رأسي واستلقيت على ظهري أفكر في كلامها عن كذبة أبي كريم. هي لا تعرف أنني أخبرت يوسف بالحقيقة قبل أن تأتي بأيامٍ قليلة.

حدث ذلك بعد موت أم كريم. فارقت الحياة بصمت ودمعة علقتْ بين جفنيها. موتها ترك فراغًا كبيرًا في داخلي، أحسستُ بالوحشة تفتك بي عندما أخرجوا نعشها من البيت وأغلقتُ الباب وراءهم. هي الوحيدة التي كانت تعاملني بلطفٍ طوال الأيام التي قضيناها معًا، غمرتني بمحبتها وأغدقتْ عليَّ بحنانها الذي كانت تدَّخره لابنها الغائب. صارت حريصةً على أن أكون مرتاحة وألا ينقصني شيء حتى تحين الفرصة المناسبة للهرب دون أن تفارقَنا الرغبة بانتظار الرجل ذاته، ابنِها وزوجي، الغائب الذي لا بد سيعود ليكتسبَ انتظارُنا معناه. كانت تقف في وجه أبي كريم كلما حاول فرض شيء ما عليَّ، الصلاة أو ارتداء الثياب المحتشمة، على حد قوله، داخل البيت وأمام نسوة الحي اللواتي كن لا ينقطعن عن زيارتنا بحجة أنه خائفٌ من أن يشي أحدٌ بي. كانت تخبره بأنني ضيفة في غياب زوجي ولا أحد يفرض سلطته عليَّ، وأنني سأعيش بالطريقة التي أراد لي زوجي أن أعيشها. يمكنني أن أفعل ما أشاء في حدود المساحة التي بدأت تضيق علينا جميعًا قبل أن تنقطع عن العالم بعد أن انقطعت أخبارُ ابنها، ولم نعد نخرج من البيت حتى سقطتْ في الغيبوبة، وسقطتُ معها.

في اليوم ذاته الذي ماتت فيه، جاء أبو كريم بعد صلاة العشاء، دخل غرفتي وأخبرني بأننا سنهرب في أسرع وقت. ما عاد هناك شيء يمكننا أن نخاف عليه. طلب مني أيضًا أن أكثِّف من عملي وأنجز أكبر قدرٍ ممكن من العباءات، سنبيعها، وسنهرب إلى مكانٍ آخر، مسألة وقتٍ لا أكثر وسأكون

حُرة. قال لي أيضًا إنه لن يجبرني على البقاء معه في تركيا إذا أردت المغادرة وحدي، وسينتظر هو الموافقة على طلب لمِّ الشمل الذي وعدته به ابنته بعد أن لجأت برفقة زوجها وأطفالها إلى ألمانيا، ولزيادة التأكيد راح يخبرني بكل ما يجب علينا القيام به، ما سنأخذه معنا وما سنتركه وراءنا. صمتَ لحظاتٍ قبل أن تسيل دموعه من عينيه، ثم راح يتحدث هو الآخر عن وحدته عندما سيغادر البلاد كلها تاركًا وراءه ابنه المعتقل وقبر زوجته في أرض هذه القرية التي لا ينتسب إليها. مسح دموعه وانسحب إلى غرفته وأغلق الباب على نفسه. كان كلامه اعترافًا مبطَّنًا بغياب كريمٍ إلى الأبد، ما عاد يجدي الانتظار أكثر. دخلت إلى غرفتي أنا أيضًا، جلستُ وراء الماكينة وأكملت عملي حتى ساعة متأخرة من الليل، عملت بلا توقّف ولم أزح نظري عن الماكينة لساعات إلا لأمسح دموعي.

كان العمل هو أفضل ما يمكن أن يشغلني كلما نظرت إلى فراشها خاليًا، أبكي تتناوب عليَّ أسباب الحزن وما أكثرها!

مرة إثر أخرى أعيد اجترار ما كان، وأقع في فخّ لو أن شيئًا من هذا لم يحدث، ثم أقفز بحماسٍ لأتصور ما سيحدث بعد خروجي من القرية، تدهمني صورٌ من مناطق مختلفةٍ في رأسي، خوف وأمل جديد، التفاتة أخيرة إلى ما سأتركه ورائي: وجوه إخوتي، تفاصيل بيتنا، ابتسامة كريم، جسد أمه الذي انكشف أمام نساء التنظيم اللواتي جئن صباحًا وتولّين عملية غسلها وتكفينها، أرادت إحداهن وكانت امرأة مصرية أن أشاركهن، لكنني اعتذرت بحجة دورتي الشهرية، «مَينفعش تبقي بالأوضة وإنتي نجسة»، أخرجتني بنبرة قاسية.

ألقيتُ بجسدي على الفراش وأغمضتُ عيني أطلب النوم الذي لم يتأخر كثيرًا، لكنه جاء بيوسف، رأيته يقف عند مدخل الغرفة، استلقى إلى جواري وراح يتحسس ملامح وجهي. أردت أن أتكلمَ لكنه وضع أصابعه على شفتيَّ واحتضنني بقوة. كنا عاريين تمامًا، لا شيء سوى أنفاسي المضطربة وجسده الذي تطابق مع جسد كريم، أرتعش وأشهق كلما التصق بي أكثر مستجيبةً لنداءات خفية تهمس في أذني، تتعالى تنهُّداتي حارةً وقصيرةً تختلطُ مع أنفاسه كلما ارتفع عن شفتيَّ قليلًا، أبكي وتختلط دموعي بخيوط العرق الذي راح ينزُّ من مسام جسدي كلِّه.

صحوت فزعةً على صوت النافذة التي ارتجَّت بقوة عندما دوَّى الرعد. كانت الغرفة مظلمة، احتجت وقتًا لألتقط أنفاسي قبل أن يضيء البرق لحظةً أدركتُ فيها أنني كنت أحلم. تناولتُ قطعة من قماش الخياطة ورحت أمسح وجهي وعنقي عندما نبهني صرير الباب لخروج أبي كريم لصلاة الفجر. ذهبتُ إلى المطبخ وشربتُ كأس ماء، ثم جلستُ على الأرِض في مكاني أحاول

استعادة هدوئي. كان وجه كريم لا يفارقني، يختلط قليلًا بتفاصيل الحلم الذي عشته. سخَّنت الماء وأعددت السكر ثم دخلت إلى الحمام. خلعت ثيابي وغبت في بخار الماء يغلي فوق نار بابور الكاز. راح الماء يلسع جسدي بحرارته، أملأ الطاسة وأرشقها بقوة حتى احمرَّ جلدي، ثم رحت أمدُّ السكر على ساقيَّ، أفرده بكلتا يديَّ فوقهما قبل أن أسحبه بقوة مرة ثانية. أنتقل بين الواقع والحلم، بين الصمت ونشيجٍ طويل، بين رجلين اثنين، أزيل الشعر الذي أهملته حتى طال أكثر مما يجب، مرة بعد مرة حتى انطفأ الألم، كنت امرأةً تعاقب جسدها وتكافئه في الوقت ذاته.

أنهيتُ حمامي ونمت مرة ثانية مستسلمة للخدر الذي أصابني. نمت الصباح كله ولم أستيقظ إلَّا عندما سمعت طرقات على الباب تداخلت مع صوت محرك سيارة السوزوكي الذي أحفظه جيدًا. فتحت له الباب وعدت خطوات إلى مدخل غرفتي مبتعدة أكثر من المعتاد، بينما رأسي يستعيد رغمًا عني تفاصيل الحلم الذي جمعني به. ألقى التحية عليَّ ودخل، وضع الأغراض وراء الباب، قال إنه مضطر إلى الذهاب سريعًا للقاء أحدهم، أمسك مقبض الباب وهمَّ بالخروج عندما استوقفته قائلة:

«اسمي نسرين، وأنا زوجة كريم».

جمُد في مكانه لحظة قبل أن يلتفت ببطء نحوي مستفهمًا. كان صوت المحرك قد طغى عاليًا. رفعتُ صوتي وأكملت:

«أبو كريم ليس أبي، وزوجته ليست أمي».

أرخى يده عن مقبض الباب دون أن يتوقف عن النظر نحوي مذهولًا.

«لماذا»؟ سألني.

«إنها كذبة أبي كريم، أراد أن أكون ابنته أمام الناس. قال لي إن هذا أفضل لي ولهما، أخبرتك لأنني خفتُ أن..».

«خفتِ»؟!قاطعني مستفهمًا.

«أعني أردتك أن تعلم حقيقة الأمر، أنا امرأة متزوجة..». أخبرته بقصة زواجي بكريم وإقامتي مع أهله بعد اختطافه. كان الجزء الأصعب في تلك المصارحة هو أنني اضطررت إلى رفع صوتي كي يسمعني بسبب صوت المحرك. أفشيت السر أمامه بصوت عالٍ، واعتذرت منه بصوتٍ عالٍ. احتقن وجهه وراح يوزِّع نظراته على السقف دون أن يعلِّق، ثم خرج وأغلق الباب وراءه. كان صمته هو المفارقة!

لأيامٍ عديدةٍ لم أرَ يوسف فيها، يضع الأغراض عند العتبة، ينقر على الباب ويمضي حتى قبل أن أفتحه. معه حق، لو كنتُ مكانه لفعلت ذلك. أوجدت له العذر، ثم تجاهلته أنا أيضًا، ثم غضبتُ لتجاهله إياي. كتبت له رسالة طويلة ثم مزقتها، لا معنى للكتابة سوى الإدانة عندما تعيش في عالمٍ قائمٍ على الترهيب من التأويل. قد لا يفهم يوسف ما سأقوله وقد يفهمه، في الحالتين ما عاد مهمًّا.

«ألم تنامي»؟

سألتني آسيا بعد أن أزاحتِ الغطاء عن وجهها واستلقتْ على ظهرها. فتحت عينها بتثاقل. نظرت إليَّ وأغمضتْ عينيها مرة ثانية من دون أن تنتظر ردي. أرخيتُ جسدي أنا أيضًا، واستلقيتُ بجوارها أراقب السماء التي أبت أن تغيِّر لونها الداكن. كل ما أتمناه ألا يطول نزوحنا، وأن تكون هذه ليلتنا الأولى والأخيرة. أريد أن أهرب خارج هذه البقعة إلى أي مكانٍ في العالم، قلت في سري، أو ربما أريد أن أعود إلى حمص..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الثامن

اختلط الحلم بالواقع..

صفعني في اللحظة ذاتها التي دوّى فيها انفجارٌ عظيمٌ في أطراف القرية، فتحت عينيَّ فزعةً في اللحظة التي صرخت فيها جراء صفعته، ضربني بكل قسوة في اللحظة التي كنت أتلفّتُ فيها حولي دون أن أرى شيئًا بوضوح.

لم يكن هنالك أحدٌ لينتشلني من يديه. أغلق الباب من الداخل وسألني عن كريم، لم ينتظر لأجيبه قبل أن يصفعَني، «والله ما حكيت معه من أول الأزمة»، حاولت أن أنكر ما بيننا. أقسمت له بروح أمي وأبي إن علاقتي انقطعتْ به قبل أشهر، تراجعتُ إلى الوراء حتى التصق ظهري بخزانة الملابس، رفعتُ يدي في وجهه أصدّ تقدمه البطيء نحوي، وأخفي عينيَّ عن رؤيته، «والله ما في شي بيناتنا، كِنتْ بعرفه..». لم يمهلني لأكمل جملتي، صفعني بكلتا يديه في الوقت ذاته. وضعتُ يدي على وجهي لأتحاشى صفعاته المتلاحقةَ على رأسي. أمسكني بشعري ودفعني بقوةٍ نحو وسط الغرفة. ارتميت عند طرف السرير. فكّ حزام بنطاله، سحبه بسرعة وأمسكه من طرفيه وجلدني به، «عاهرة»، راح يرددها كلما رفع حزامه وهوى به على جسدي. كان الألم أكبرَ من قدرتي على تحمّله، صرخت، انقطع نفسي، شهقت أكثر من مرة، حاولت أن أتنفس. لم يمهلني وقتًا يكفي لأكثر من شهقة قصيرة قبل أن يبدأ بركلي بحذائه، وتكوَّمت على الأرض دون حراك.

«اصحي»، قالت لي آسيا وهي تهزني. لم أكن قادرة على استيعاب وجهها، «لا تخافي احنا بعاد عن القصف»، قالت وشدَّتني بقوة وراحت تمسح وجهي. لكنني صحوتُ ثانية بين يدي سامي بعد أن سكب الماء على وجهي. صرخ مناديًا زوجته لتحضر له المقص. حاولت أن أهربَ لكنه عاد وأمسكني بشعري، داس على ساقي وثبَّتني على الأرض، «بدك تهربي لعنده يا كلبة»؟ سألني قبل أن يضغط بقدمه على ساقي، «أبوس إيدك اسمعني»، توسلت إليه، أردتُ أن أمسك يده لأقبلها، دفعني بيده الثانية وارتميتُ على ظهري. كانت عيناي تتحركان باضطراب دون أن أميَّزَ شيئًا سوى أنفاسه وهو ينحني على الأرض ويشد شعري بقوة، «بدك تفضحيني»؟ سألني ومدَّ يده الثانية نحو ذقني وعَصَرها بقوة. صرختُ من الألم. تناول المقص من زوجته وقرَّبه من وجهي. توسَّلتْ زوجته تطلب منه ألا يقتلني ويلوِّث يديه بدمي، مدَّتْ يدها لتبعده، التفت إليها وأزاح يدها بعنف بيده التي تحمل المقص، جرحها، سقطتْ على الأرض تصرخ، ثم نهض وسحبها خارج الغرفة وأغلق الباب عليَّ، عاد بعد ذلك وسحبني بشعري غير آبه بصراخي الذي تداخل مع توسلات زوجته وراء الباب. راح جسدي يتحرَّك مع حركة يديه، أجلسني على السرير،

شدَّ شعري مرة ثانية إلى الأعلى وبدأ يجزّ خصلاته ويلقيها على الأرض. كنت قد وصلت إلى مرحلة من الألم لم أعد قادرة معها على الكلام، ما عدت أحسّ بشيء من حولي. راح يصرخ عليَّ لأنني تجرأتُ على الإساءة إليه في الوقت الذي ترتعد لرؤيته قلوب الضباط وعناصر الأمن، تركته يسب ويلعن، شتم الله والأنبياء والإرهابيين، شتمني بكلِّ لفظٍ اعتاد على قوله للمعتقلين في سجونه. تركته يتكلم عن قذارة هذا الشعب الذي لا يفهم إلا لغة البسطار، عن الحرية الزائفة التي يتحدَّث عنها أولئك المجرمون الذين لن يوفروا فرصة لقتله، عن المؤامرة التي تتسلل إلى عقر داره، عن النساء العاهرات اللواتي أنجبن كلّ هذه القذارة. كان مؤمنًا أن كريم في النهاية مدسوس من جهات أعلى لقتله، وأنهم لن يوفروا فرصة لانتهاك كرامته وشرفه. لم يسألني، ولم يعطني فرصة لأحدِّثه عن العلاقة التي كانت قد انتهت قبل أن يعرف هو بما حدث. لم يمهلني لأقول له إنني تركت كريم وما عاد يربطني به شيء، وإنني كنت أستطيع الهرب قبل ذلك اليوم دون أن يشعرَ أحدٌ بي، لكنني رفضت من أجله هو، أنهيت علاقتي بكريم رغم توسلاته لي بالهروب وملاقاته في حلب. لم أشأ أن ألطِّخَ اسمه بالعار كما راح يردد غاضبًا. تناول كتبي وأوراقي من مكتبتي وراح يمزقها ويلقيها في وجهي. أردت أن أوضِّح له أنني لا أقصد الإساءة إليه، وأن ما سمعه على الهاتف من حوارٍ بيني وبين كريم كان بقصد إنهاء العلاقة المحكومة بالفشل. لم تصدر عني سوى كلمة «آسفة»، وارتميتُ على طرف السرير فوق قصاصات الورق الممزقة وقد تلطَّختْ بقطراتٍ من دمي. فتح باب الغرفة بعد ذلك ونادى زوجته، أخرج ثيابي وعطوري من خزانة الملابس، مزَّق بعضَها قبل أن يلقي كل محتوياتها وسط الصالة محذرًا زوجته من الاقتراب مني. تناول هاتفي المحمول من الكمودينة وطلب من زوجته أن تلغي حساباتي على مواقع التواصل، «الفيسبوك أهم شي»، قال موجهًا كلامه إليها. سألتني عن كلمة السر. لم أكن قادرة على الكلام. أحسستُ بالدم يملأ فمي. أخرج مسدسه وصوَّبه نحوي، صرخت زوجته ورَجْته أن يبعد مسدسه. رفع رأسي مرة ثانية وراح يصرخ عليَّ مهددًا لأعطيها إياه. بصعوبة رددتُ الرقم على مسامعها، أدخلَته وألغت حسابي أمام عينيه. ثم أمرها أن تحذف كل شيء في الهاتف دون أن يتوقف عن ترديد الكلام ذاته حول تلك المواقع الشيطانية والماسونية التي تسعى إلى تدمير البلاد والقضاء عليها، وأنها ممولة بأموال الخليج ويديرها الموساد الإسرائيلي والسي آي إيه الأمريكية. كان يحذرني دومًا من التواصل مع أي شخص أو الخوض في جدالات على تلك المواقع، كلها مراقبة من أجهزة الأمن والمخابرات. أخبرته أن حسابي لضرورات العمل والدراسة، بعض الزملاء في الجامعة، سمر، زوجها، أخي سومر أيضًا، وحسابات عامة لشعراء وكُتاب وصفحات تهتم بالأدب. سحب الهاتف من يد زوجته وضربه على الحائط فتهشّم، أمسك برقبتي ورفع رأسي

إلى مستوى نظره، وعندما فتحت عينيَّ بصق في وجهي ودفع رأسي بعنف إلى الأرض، ثم خرج من الغرفة وأغلق الباب عليَّ.

كنت مرمية على الأرض وسط أكوام الأوراق الممزقة وخصل الشعر المتناثرة. سمعته يهدد زوجته إذا فكرتْ في التواصل معي أو إخراجي من الغرفة لأي سبب كان. أمرها بأن تمتنع عن استقبال الضيوف في هذه الفترة إلى أن يتدبر طريقة للتخلص مني. كان الألمُ يستحوذ على جسدي كلِّه، هائلًا وفوضويًّا وبشعًا، ما عدتُ قادرة على رؤية شيء بوضوح، كل شيء صار ضبابيًّا باستثناء خيط من دمي راح يسيل على البلاط أمامي عندما صفق باب البيت بقوة وخرج.

«اهدي»، قالت آسيا وسكبت الماء من الإبريق على يديها ومسحتْ وجهي. أسندتُ رأسي إلى كتفها أتابع أعمدة الدُّخان التي تصاعدت من موقع الانفجار. رأيت يدها تمتد نحوي وتعيد خصلة إلى وراء أذني تحت الشال الذي ارتخى على رأسي.

كانت السماء قد تخلصت من سوادها، خطوط بنفسجية تخترق هشاشة الغيوم التي اصطبغت بزرقة داكنة، أصوات الناس تعلو، كلٌّ في مكانه يراقب الجهة التي دوَّى فيها الانفجار.

الرؤية أوضح الآن، امرأةٌ وراءنا تدعو الله متضرعة: «دخيلك يا رب، داخلين عليك»، ترددّها، أردد وراءها في داخلي، طفل إلى جواري يقف فاغرًا فمه، يدُ آسيا تمسك يدي وتفركها، أعداد هائلة من العصافير تعود إلى الشجرات الثلاث..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش التاسع

«سأذهب لأقضي حاجتي، ثم سيأتي دورِكِ».

مشتْ ومشيتُ وراءها إلى تلَّة رمل بعيدة عن تجمُّع أهل القرية، غابت قليلًا ثم فعلتُ مثلها، لم يكن الأمر سهلًا، وظل كذلك طوال إقامتنا في المخيم.

كانت الشمس قد ارتفعت في السماء كاشفة بضوئها أرجاء المكان. قدَّرت الطريق الطويل الذي قطعناه ليلة البارحة، ولا عجب أننا تهنا بعد أن كنا قد نزلنا من طرف القرية البعيد عن المخيم.

وقفتُ إلى جوار آسيا نستند إلى طرف ساقية الماء المحمولة ونذير ظهرينا للحركة التي دبَّت في المخيم. كانت أصوات أهل القرية تصلنا من بعيد رتيبة، تتداخل مع نعيق غربان بعيد وزقزقة العصافير التي كانت تنهدُّ دفعةً واحدةً وسط ألواح الحنطة، قبل أن تطير من جديد نحو سماء بدأت تكشف عن زرقتها خلال الغيوم المتفرِّقة التي كانت تعبرها.

كنت قد هدأت تمامًا واستعدت وعيي بعد الكابوس الذي أعادني إلى تلك الأيام الصعبة التي عشتها سجينةً في غرفتي. أكثر من شهرين وأنا لا أرى سوى زوجته تضع الطعام لي على الطاولة وتخرج قبل أن تساعدني في الهرب هي نفسها. أعادتْ إليَّ بعض ثيابي، سمحتْ لي بالتحدث مع سمر أختي كي تقنع سامي بالعدول عن سجني والسماح لي بالسفر إليها في دمشق. لكن سمر لم تتوقف عن إهانتي، وأن ما فعلته يسيء إليها أيضًا ولأولادها. هددتني هي الأخرى، قالت إنني لو تجرأت على التواصل مرة ثانية مع كريم فإنها لن تنتظر سامي بل ستقتلني بيديها، لكنها لم تدعُني للإقامة عندها فترة من الزمن. أمَّا سومر فلا يعرف شيئًا مما حدث، ولا يريد أن يعرف منذ أن أقام في الإمارات وتزوج بفتاة سويدية تعمل معه في الشركة الهندسية ذاتها. ربما أخبروه بما حدث بعد ذلك عندما حزمتُ أمري وقررتُ الهرب مستغلةً وجود المفتاح في الباب قبل أن تخرج إلى عملها. جمعتُ ثيابي في أكياس وأخذتُ بعض المال وأوراقي الثبوتية التي كان يحتفظ بها سامي في أحد أدراج خزانته، ثم كسرت القفل وخرجت.

كنت أعرف أن زوجته تريدني أن أهرب، وربما اعتقدتْ أنني سألتجئ إلى سمر في نهاية المطاف، وأنها بهذا ستولي مسؤولية مراقبتي لأحد آخر وستتدبر هي أمر هروبي بطريقة تزيح عنها أصابع الاتهام، ولم يخطر ببالها ولا ببالي أنا أيضًا أنني سأضعف عندما سمعتُ صوت كريم على الهاتف يستجديني لملاقاته في حلب. كان قد أعدَّ كل شيء، أخبرني أن الأمر لا يحتاج إلى تفكير، ساعات قليلة وسأكون معه إلى الأبد، حيث لا يمكن لأحد أن يجرؤ

على إهانتي وضربي. قال لي إنني لن أندم، وإن حياتي التي سأتركها ورائي لا تستحق الأسف، «كلّ شيء يمكن تعويضه إلّا المستقبل»، راح يرددها ويحثني لملاقاته.

«سيجارة ونمشي».

قالت آسيا وأشعلتْ سيجارتها متحاشية هبَّات الريح الباردة. زممتُ معطفي إلى صدري، ووقفتُ أجيل نظري مثلها في السهول الخضراء المنبسطة أمامنا قبل أن يستوقفني وجهها. إنها جميلة، قلت في سرِّي، الجمال الذي ينبع من غرابته، مستفزٌّ وبدائي. أذكر أن وجهها كان أكثر ما لفت انتباهي. كنت واثقة أنني رأيتها قبل ذلك اليوم، فكّرت أنني ربما التقيت بها في مكانٍ ما، المستشفى أيام مرض أم كريم أو أنها كانت إحدى جاراتها، أو ربما رأيتها في حمص، في الجامعة، لكنني استبعدتُ ذلك بعد أن أخبرتني هي نفسها أنها لم تكمل دراستها بعد الصف السادس.

كان ذلك عصرَ اليوم الذي طلب فيه مني أبو كريم ترتيب غرفته. كنت أجلس وراء الماكينة عندما دخل حاملًا أكياسًا كثيرة بيديه قبل أن تدخل وراءه وتقف في أول الممرِ المفضي إلى الصالة. لم أتمكن للوهلة الأولى من تمييز ملامحها عندما حجبتْ بقايا الضوء وراءها واستطال ظلها على طول الممر حتى غمر جسدي الضئيل.

رفعت النقاب عن وجهها، تقاطعت نظراتنا لحظةً قبل أن تدير رأسها تتابع أبا كريم وهو يحمل الأكياس ويكوِّمها عند باب غرفته، التفتَ عائدًا ووقف ينظر معي إليها وهي تخلع النقاب والشال وتلقيهما على طرف الحصيرة. فردتْ شعرها بيديها، فكَّتْ أزرار عباءتها وشلحَتْها دون أن تتكلم أو تنظر نحوي.

جمدتُ في مكاني أتابعها مذهولةً قبل أن أدير رأسي نحو أبي كريم مستفهمةً عما يجري أمامي.

«هاي نسرين، مَرْت ابني، ومتل ما قلتلك هي قدام الناس بنتي سعاد»، قال موجهًا كلامه إليها، والتفت نحوي يشير إليَّ بعينه لأنهض وأسلِّم على المرأة التي دخلت للتو وأفشى سرِّي أمامها.

«قومي سلمي على مَرْت عمّك، آسيا».

لم أستوعب ما سمعته منه، أزحتُ العباءة التي كنت أخيطها عن حضني، نفضتُ بحركة لا إرادية بقايا الخيوط السوداء التي علقت ببيجامتي ووقفت أنقِّل نظري بينهما.

كانت قد ارتسمت ابتسامةٌ على وجهه، ابتسامةٌ بلهاء وهو ينتظر مني أن أقول شيئًا.

«أهلا وسهلا»، قلتها أو ربما لم أكملها عندما هزَّتْ رأسها بابتسامة مجاملةٍ باهتةٍ وانسحبت من أمامي نحو غرفة أبي كريم. التفتُّ إليه لأسأله عمَّا سمعته ورأيته. ناولني كيسًا وطلب مني أن أعدَّ الطعام. رفعتْ صوتها تناديه وانسحب مسرعًا من أمامي ودخل وراءها.

وقفتُ لحظات أنظر إليهما وهما يتحدَّثان داخل الغرفة. سمعتها تسأله عن الجهة التي ستضع فيها ثيابها من الخزانة قبل أن يمدَّ يده نحو الباب ويغلقه في وجهي.

من هذه المرأة؟ أيُّ عم تزوَّجته؟ لماذا؟ كيف؟ ومتى؟ راحت الأسئلة تتداعى فوق رأسي عندما مشيتُ إلى المطبخ. ألقيت الكيس وارتميت على الأرض بجواره عاجزةً عن فهم ما يحدث. أبو كريم يتزوج حتى قبل أن ينقضي شهر على وفاة زوجته الأولى ويأتي بامرأة أخرى لتؤنس وحشته، بينما أجلس هنا وحيدة أنتظر رجلًا لا أعرف إذا كان ميتًا أو حيًّا؟ كل ما فعلتُه وقبلتُ به كان من أجل انتظار الفرصة المناسبة، تعلَّمت الخياطة لأؤمن المال الكافي للهروب من هذا الجحيم، هذا ما كان يقنعني به ليدفعني إلى العمل المتواصل طوال النهار، العباءة والدرع والنقاب بخمسة آلاف ليرة، كل لباس شرعي لامرأة في هذه البقعة كنت أخيطه بيديَّ بخمسة آلاف ليرة. كنت أعدّ العباءات كما يعدّ سجينٌ أيامه في زنزانة مظلمة. كان اليوم بالنسبة إليَّ عباءتين ودرعين وأربعة نُقُب.

هل هذا يعني أننا لن نهرب؟ كان هذا السؤال الأعظم الذي راح يدق بقوة جدران رأسي ويرتد صداه مُكرَّرًا آلاف المرات إلى درجةٍ لم أعد أسمع فيها شيئًا سوى صراخي.

أمسك أبو كريم بكتفيَّ وراح يهزهما بقوة طالبًا مني التوقف عن الصراخ. رفعت نظري إليه، كان وجهه بلا ملامح، كل شيء في تلك اللحظة كان بلا ملامح، عيناي لا تريان أي شيء، ظلامٌ يصنع دوائر مغلقة تنبعث أمامي، تستطيل قبل أن ترتد لتمتزج مع دوائر أخرى تليها، دائرةٌ تغلق دائرةً وتنعدم الرؤية. نهضتُ مستجيبة ليده التي راحت تشدني بساعدي. قادني إلى غرفتي وأغلق الباب علينا. طلب مني أن أهدأ وأستغفر ربي. قال إن لعنة الملائكة ستحل عليَّ بسبب صراخي، «أنتي مرا عيب تصرخي ويطلع صوتك للشارع»، وراح يستغفر ربه. كنت أنظر إليه وعبثًا أحاول أن أراه، غابت ملامح وجهه وغاب صوتي أيضًا. راح يحدِّثني أنّ زواجه بآسيا لمصلحتنا. قال أيضًا إنه كبر في السن وبحاجة إلى امرأة ترعاه وتهتم به، «آسيا بنت حلال وأنا بعرف أهلها منيح، المرا بتدوَّر الستر». انكسر صوتُه عندما بدأ يحدثني عن وحدته، «بكره بس نطلع من هون مارح أمسكك ووقف بطريقك يا بنتي». قال لي أيضًا إن وجودها معنا لن يمنع أو يؤخِّر من هروبنا، مسألة وقت لا أكثر، الأمرُ

معلّق بسلامة الطريق وأمورٍ راح يسردها كما في كل مرة. طلب مني بعد ذلك أن أرتاح وأصلي ركعتين لوجه الله ليثبتني ويدخل السكينة في قلبي. خرج وعاد حاملًا ماكينة الخياطة إلى غرفتي، وضعها وسط أكوام القماش الأسود، استغفر ربَّه، ثم خرج وأغلق الباب وراءه.

طوَّقتُ ركبتيَّ بذراعيَّ وأحنيت رأسي إلى الأرض صامتةً. كانت العتمة قد استباحت غرفتي مع غياب الشمس وارتفاع صوت المؤذِّن داعيًا إلى صلاة المغرب، ثم ارتفع مرة ثانية لصلاة العشاء وأنا جالسة في مكاني أستمع إلى كلامهما يتحدثان عن البيت والقرية والتنظيم. تحدثوا عن كل شيء، سمعته يطلب منها ألا تستقبل أحدًا في البيت من نساء القرية، «مو ناقصنا مشاكل». وعدها بزيارة بيت خالها في الرَّقة من حينٍ إلى آخر، وأنه سيأخذها معه إلى سوق القرية الأسبوعي. ساد الصمت وقتًا قصيرًا قبل أن أسمع صوته يتنحنح أمام غرفتي، دخل بعدها وطلب مني أن أتناول طعام العشاء معهما، رفعتُ رأسي نحوه من دون أن أجيبه. لم ينتظر ردِّي طويلًا، حَوقَل وخرج.

كان رأسي أشبه بآلة طباعة، كل فكرة تقترح سيناريو حوار بيني وبين نفسي، عمَّا سيحدث لي، عما سأفعله به لأشفي غليلي. جمل طويلة تتكدس حولي، فكرت أن أفشي أسراره لجماعة التنظيم، أي سرٍّ وإن اضطررتُ لاختراعه لإدانته. رحتُ أؤلِّف قصصًا تكون كفيلة بصلبه في إحدى ساحات الرَّقة، الساحات التي تفنن في وصف ما يحدث فيها. تارة تدفعني فكرة لإيذائه وإن آذيت نفسي، وتارةً أجدني أنسحب وراء تأليف حكاية تدينه ولا تدينني. كنت أراني جاثية إلى جواره أمام فوهة بندقية تلامس مؤخرة رأسي تحت راية سوداء وسط حشود تردد «الله أكبر»، ثم أنتصر لنفسي فأراني واقفة وسط تلك الحشود أمام جثته الملقاة تحت شمس الظهيرة، أنظر إليه وأبصق على وجهه المعفَّر بالتراب.

قررت أن أواجهه، أن أطالبه بأتعابي كاملة. استجمعتُ قواي ومضيتُ مسرعةً نحو غرفته، لكنَّ تأوهات آسيا أوقفتني في مكاني. جمدتُ أمام الباب وظلت كفِّي مقبوضة في الهواء. مرت لحظات قبل أن ترتخي يدي وتنسحب إلى الأسفل ببطء. ازدردت ريقي. سأحدِّثه عندما يخرج، قرَّبت رأسي من الباب أكثر، سمعته يهمس لها متسائلًا عني، «مو مهم» قالت له قبل أن ترفع صوت تأوهاتها. راح يطالبها أن تخفض صوتها، لكنها لم تستجب له، «بغرفتها»، كررتها أكثر من مرة. تجاهلت إلحاحه قبل أن يتجاهلني هو الآخر ويغيب صوته تمامًا. انسحبتُ عائدةً إلى غرفتي، أغلقتُ الباب على نفسي وانتحبت، غطَّيت وجهي بالعباءة التي كنت أخيطها قبل وصولهما، بللت قماشها بدموعي، دعكت وجهي بها قبل أن أتكوَّم على نفسي وأغفو كومةً تضاف إلى أكوام القماش الأسود حولي.

أذكر أيضًا أنني عندما استيقظت متأخرة في صباح اليوم التالي لزواجهما وكان أبو كريم قد خرج كعادته. أردتُ أن أخرج عندما لمحتها تجلس في الصالة مطرقة برأسها تدخن، هذا ما كان ينقصني، «تدخّن»؟ تساءلتُ ساخرة. كيف لامرأة مثلها أن تدخن في مثل هذه الظروف؟ ولم يكن تدخينها أمرًا مستغربًا بالنسبة إليَّ، إذ رأيت الكثير من النساء هنا يُدخنَّ، ولكن ثمن علبة دخانها سيدفعه أبو كريم من تعبي أنا. كانت ترتدي ثوبًا من المخمل الأحمر وقد عقصت شعرها على شكل ذيل الحصان وطَلَت وجهها بمساحيق الزينة. رددتُ الباب على نفسي لحظة قبل أن أستجمع قوتي وأخرج إلى المطبخ من دون أن ألقي عليها التحية. لفتَ انتباهي وجود كيس القهوة، القهوة التي لم أشربها إلَّا مرات قليلة منذ إقامتنا في القرية على الرغم من أنني طلبتها منه أكثر من مرة. كان يتعلل بالحجج ذاتها، قلة المال وكثرة المصاريف. أعددت لنفسي ركوةً وعدت إلى غرفتي وأغلقت الباب على نفسي. تدثرت بحرام صوفي ورحت أنفخ أنفاسي في يديَّ وأفركهما لأشعر بالدفء في ذلك الصباح من أوائل كانون الثاني١، بداية سنة ٢٠١٧ التي جاءت بآسيا وبخيبة أمل لم تبددها كلُّ تطمينات أبي كريم باقتراب موعد الهرب.

صببتُ القهوة في فنجاني ثم طوَّقته بأصابعي ورحت أرتشف منه. رفعتُ رأسي ببطءٍ أنظر إليها عندما دفعتْ باب غرفتي ودخلت. كنت واثقة أنها تنتظر مني أن أعترض على دخولها بلا استئذان. تقاطعت نظراتنا لحظات قبل أن أدير رأسي بعيدًا عنها. «لا تطلعي من غرفتك»، قالت لي بصوت حازم والتفتت تريد الخروج من الغرفة. رفعت صوتي مستفهمة منها. أدارتْ رأسها لي، زمَّت شفتيها ورفعت حاجبيها، «بدي أشطف الأرض»، ردَّتْ وأردفت ردَّها بضحكة ساخرة وخرجت. إذا كان كلُّ همها أن تفرض وجودها في البيت فإنني أحسدها، ولها ما تتمنى، «طز فيها وبالبيت»، قلت في سرِّي ونهضتُ بعد أن أنهيتُ قهوتي. وقفتُ عند الباب أتابعها تمسح الأرض وتغني.

كانت قد رفعتْ ثوبها وشَكَلتْه بسروالها الداخلي، وربطتْ شعرها ولفته أعلى رأسها. شرعتْ تمسح الأرض وهي تتمايل على وقع الأغنية التي تدندنها. كان صوتها جميلًا، فيه بحَّة خشنة تهبه وقارًا. رفعتْ جسدها وراحت تتمايل وتغني أغنية عراقية لا أتذكر كلماتها الآن، لكني أتذكر لازمة الأغنية الأخرى التي غنتها عندما رأتني:

«يا ديوانا يا ديوانا، عتَبْ عَ الراحْ وما جانا

لَعَبْرَ الماي أنا وعمِّي، واخلِّي البيت لِچ يَ امّي».

كانت تقصدني طبعًا، «أنا وين شايفتك»؟ سألتها بنبرة حادة.

سحبت الماء بالممسحة من أمام باب غرفتي، كررتها أكثر من مرة دون أن تتوقف عن الغناء، وعندما اقتربتْ مني رفعت جذعها وقرَّبتْ رأسها نحوي، «بالتلفزيون»، أجابتني ضاحكةً قبل أن تحمل ممسحتها وتمضي إلى المطبخ يتمايل ردفاها بغنجٍ مصطنع.

لم تنشأ علاقة بيننا، ولم أستطع طوال ثلاثة الأشهر التي قضيناها معًا في البيت أن أتقبَّلها. كانت تقضي وقتها جالسةً تدندن أغنياتها التي لم أكن أفهم معظمها وحفظتها لكثرة ما سمعتها. أتلصص عليها وهي تسرِّح شعرها أمام مرآة صغيرة تثبِّتها على طرف الوسادة، وتدعك وجهها بالكريمات التي كان يحضرها لها أبو كريم خفية عنِّي، كان مكياجها من النوع الرخيص الذي يباع على بسطات الباعة في الشوارع والأسواق الشعبية، وأحيانًا كانت لا تفعل أي شيء، تدخِّن فقط وتستلقي على ظهرها وقتًا طويلًا أمام المدفأة ونظراتها مثبَّتةٌ على السقف حتى يعود أبو كريم، يدخل مسرعًا ويناديها إلى الغرفة ثم يغلق الباب عليهما، تصلني أصوات ضحكاتها من وراء الباب قبل أن تنقطع ويرتفع صوت ماكينة الخياطة تدرز القماش الأسود بين يديَّ.

مرَّت أيام كثيرة من دون أي تواصل بيننا، «مرحبا» سريعة ألقيها ولا أنتظر ردها. تفعل هي الأمر نفسه أحيانًا، وأحيانًا تقف إلى جواري في المطبخ صامتتين. كنَّا امرأتين غريبتين تتشاركان البيت نفسه، ولكلٍّ واحدة مساحتها التي تتحرَّك فيها متحاشيةً التصادم مع الأخرى.

في النهاية، كان عليَّ أن أقبل بوجودها وأن أخضع للأمر الواقع. أصبحنا نتحدث أحيانًا حول حاجات المنزل وإعداد الطعام. وفي الغالب، كانت هي من تتحدَّث وكنت أكتفي بالاستماع إليها. أهزُّ رأسي موافقة على كل ما تقترحه، ولم يكن يعنيني أن تغيِّر في ترتيب الصالة، وأواني الطعام في المطبخ، أو استبدال ستائر غرفتي بستائر غرفتها، «سوِّي اللي بدك إياه» أجيبها وأنسحب من أمام وجهها دون أن أعطيها الفرصة لفتح أي حوارٍ طويلٍ

بيننا.

لكنّ تواصلنا ازداد في الأيام الأخيرة التي سبقتْ نزوحنا، صرنا نجلس ونتحدث أكثر. شغلتنا فكرة الهروب معًا، أننا وفي نهاية المطاف نخضع للظروف ذاتِها، ونرتهن للرجل ذاتِه، هروبه، إن كان بالفعل قد هرب، أمر نتشاركه ونحمل عبئه معًا، هذا ما قاله وقوفنا مستندتين إلى طرف الساقية.

«ليش عم تتطلعي فيَّ هيك»؟ سألتني آسيا وكنت لم أزل أتأمل وجهها.

«بتشبهي إيرين باباس، نفس الملامح بس إنتي أسمر شوي، الممثلة الأجنبية عرفتيها»؟

«لا» أجابتني وأخذت نفسًا من سيجارتها، ثم فركتْ عقب سيجارتها بطرف الساقية الجافة وألقته فيها.

«أنا أشبه أمي، الأمر الوحيد الذي نتشارك فيه هو الملامح ذاتها، وعلى ما يبدو أننا نتشابه في أمر آخر».

«ما هو»؟ سألتها.

أعادت تثبيت الشال على رأسها، قالت بعد أن انحنتْ لتحمل إبريق الماء إلى جانبها:

«الحظ الخرا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش العاشر

جلستُ أراقب يد آسيا وهي تحفر الأرض أمامها بعودٍ خشبي صغير، ترسم دوائر وتقطعها بخطوط متعرجة قبل أن تمسحها برأس العود، ثم تعيد رسمها مرَّة ثانية.

كانت الشمس قد ارتفعتْ في عرض السماء التي تخللتها غيومٌ بيضاء متفرقة راحت تعبر ببطء وتثاقل فوقنا، وترسم ظلالها بقعًا داكنة فوق السهول الخضراء في سكون تجرحه الريح التي لا ينقطع هبوبها.

راحت يدي تفتل خيطًا انسلَّ من طرف البساط الصوفي الذي نمنا عليه متحاشية النظرات التي أصبحت أكثر وضوحًا ومباشرة وهي تترصَّدنا، كل حركة تصدر عنَّا تجعلهم يلتفتون نحونا، تنقطع أصواتُهم وهم يتابعوننا بفضول قبل أن تعلو همهماتهم مرة ثانية منشغلين في شؤونهم.

جاءت امرأة تحمل صينية، ألقت التحية من دون أن تتفوه بأية كلمة أخرى، صبَّت لنا الشاي لنا فتصاعد البخار معبَّقًا برائحة السكر، وضعتِ الصينية التي ضمت قطعتي جبن وحبة بندورة كانت قد قطَّعتها إلى أربع قطعٍ كبيرة. شكرتها آسيا لكنَّ المرأة لم تقل شيئًا، هزَّت رأسها وعادت إلى حيث كانت تجلس قريبًا منا برفقة أبنائها.

كانت الوجوه التي رأيتها في المخيم غريبة، لم ألحظ أيًّا منها قبل ذلك اليوم، لا يوسف، ولا جاراتي، ولا أولئك الرجال الذين كنت أراهم يعبرون الزقاق الذي أُطلُّ عليه من نافذتي. فكرت أننا ربما التجأنا إلى مخيَّمٍ آخر غير المخيم الذي أخبرني يوسف عنه بعد أن سمعت امرأةً تتحدث مع نساء أخريات أن هنالك الكثير من المخيمات على طول الزور.

تناولت آسيا رغيف الخبز، مزَّقته إلى نصفين وأعطتني حصَّتي. هرستْ قطعة جبن بيديها على الخبز ثم وضعتْ قطعتي بندورة فوقها ولفَّتها على شكل صندويش وراحت تنهشها متجاهلة النظرات الفضولية التي كانت تتناوب على رؤيتنا، أدرتُ ظهري لهم ورحت أقطِّع الخبز وآكله.

أحسست بغُصَّة في حلقي تدفع الطعام لتخرجه مرة ثانية من فمي. تركت حصَّتي لآسيا. ألحَّت عليَّ، وبصعوبة تناولت قطعة صغيرة من الخبز الناشف واكتفيت بشرب الشاي أفكر في ما ينتظرنا جميعًا بدءًا بهذه المرأة التي تجلس إلى جواري ويلتصق فخذها بفخذي وانتهاءً بآخر رجل جلس وحيدًا وأدار ظهره لنا ليدخِّن سيجارته في الخفاء. الكل يعرف أنّه يدخن، حاله حال الكثير. رأيت أكثر من واحد ينتحي جانبًا، ومع ذلك فلا أحد يفكر بإشهار سيجارته أمام الآخر.

كان التدخين خطيئة في نظر التنظيم. سمعتُ أنهم جلدوا وسجنوا أكثر من شخص بسبب ذلك، وأنهم كانوا يحرقون كراتين الدخان التي يحاول بعض التجار إدخالها إلى المدينة. ارتفعتْ أسعار السجائر حتى وصلت إلى أرقامٍ خيالية، إلى درجة أن السيجارة صارت تهمة قد تقود إلى الإعدام كما راح يردد أبو كريم على مسامع آسيا لتتوقف عن التدخين، لكنها تجاهلته أكثر من مرة قبل أن تنفجر في وجهه غاضبة، قالت له بنبرة متحدية إنها لن تتوقف عن التدخين وإنه يستطيع إبلاغ عناصر الحسبة إذا أراد، لكنه لم يفعل شيئًا، ظل يحضر لها علب السجائر خفيةً دون أن يتوقف عن التذمُّر، ودون أن يتجاوزه أيضًا.

استطاعت آسيا خلال شهر واحد أن تحدد الشكل الذي ستكون عليه حياتها مع أبي كريم. فرضت وجودها بهدوء، ولم أحتج وقتًا طويلًا لإدراك ذلك بعد أن رأيت بعيني الطريقة التي تعامله بها منذ الأيام الأولى لإقامتها.

كان ذلك بعد انقضاء أقل من شهر على زواجهما، في صباح يومٍ ماطرٍ وقد ألقتْ الغيوم بظلالها المعتمة على أرجاء البيت. كنتُ في غرفتي أرتب العباءات التي أنجزتها وأغلفها بأكياس النايلون. دخل أبو كريم عائدًا من الصلاة، ألقى التحية على آسيا حيث كانت تجلس في الصالة متدثرة بغطاء صوفي ثقيل.

«نريد مازوت، ذبحنا البرد»، قالت آسيا موجهةً كلامها إليه، خلع معطفه وقبعته ووضعهما على الطاولة التي اعتدت تنضيد العباءات فوقها أوَّلَ الممر. وقفتُ عند باب الغرفة لأناوله العباءات التي أنجزتها بعد أن طلب مني إعداد عشرين عباءة لأحد المحلات في المدينة. رفعتْ صوتها وطلبت منه أن يخرج حالًا ويحضر وقودًا للمدفأة، هددته بأنها ستترك البيت إذا عاد من دونه، وأنها ما عادت تحتمل الوعود التي قطعها لها بعد أن تزوجها. أقل من شهر ولم تعد تحتمل، ابتسمتُ ساخرةً وأنا أفكر في السنوات التي قضيتها بانتظار تحقق وعد واحد لا أكثر: الهرب.

ارتدى معطفه وقبعته وخرج مرة ثانية. ضربني الهواء البارد الذي اندفع سريعًا إلى الداخل عندما وضعتُ الأكياس على الأرض، وعدت إلى المطبخ لأحضر قطعة قماش أمسح بها الماء الذي سال من معطفه على سطح الطاولة. كنت أفكر في طريقة تعاملها المهينة له، يستاهل، هو أراد ذلك، وهذا ما يستحقه، قلتُ في سرِّي.

«تضايقتِي عليه»؟ جاءني سؤالها وأنا أنضِّد العباءات وأرتبها وفقًا لمقاساتها.

«لا، بس مو شايفه المطر برّا»؟

«بلى، يجيب مازوت ويرجع ما تخرب الدنيا».

أجابتني واتكأتْ على وسادة كانت إلى جانبها. تناولتْ سيجارة وأشعلتها. قالت بعد ذلك:

«القهوة جاهزة، تعالي اشربي معي».

«شكرًا عندي شغل».

«تعالي، قطيعة شغل».

كانت هذه أول مرة تدعوني إلى الجلوس معها. أشعلتْ سيجارة وانتظرت حتى جلستُ إلى جوارها قريبًا من المدفأة المطفأة. صبَّت القهوة واندفع البخار عاليًا في فضاء الصالة المعتمة. قالت وهي تزيحُ الغطاء عن كتفها:

«أنت تعتقدين أنني سيئة أليس كذلك»؟

«على الرغم من الوقت الفائض عندي لكنني لا أهدره في تقييمك».

ضحكت قبل أن تقول:

«والله تعرفي تجاوبي مو هينة».

التفتت بعد ذلك نحوي وقالت:

«متى تزوجت من ابنه»؟

«قبل أربع سنوات تقريبًا، صيف ٢٠١٣».

«وهل مازلت تحبّينه»؟

«نعم»، أجبتها بنبرة واثقة، وتقصَّدت أن أطيل النظر إليها.

«غريب»، قالت وأخفضتْ نظرها وكأنها تفكر.

«ما الغريب»؟

«أن تحبي رجلًا طوال هذه الفترة ولا تعرفين إن كان سيعود أم لا..».

«وما الغريب في الأمر»؟ عدتُ وسألتها.

«أربع سنوات انتظار، هذا أكثر مما يستحقه أي رجل، فكيف إذا كان هذا الرجل..».

تركتْ جملتها معلَّقة. أخذتْ نفسًا من سيجارتها وصمتت، تناولتُ فنجان قهوتي وأردتُ النهوض.

«أبو كريم زوجي الرابع»، قالت.

أدرتُ رأسي أنظر إليها مذهولة وكان من الصعب تصديق أن امرأة بعمرها لا تتجاوز الأربعين، كما قدرت، تتزوج أربع مرات. وضعت الفنجان وعدَّلت جلوسي وقد استطاعت إثارة فضولي.

«تزوجت أول مرة عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري. كنت طفلة لا أفهم شيئًا عن الزواج. كان زوجي الأول في الأربعين، شريك أخي في تجارة الدخان المهرَّب وارتياد المقاصف، والسجون طبعًا. تزوجني نكايةً في زوجته الأولى، لأنّها رفست النعمة ورفعتْ صوتها في وجهه».

صمتتْ لحظة وكأنها تستذكر ما حدث.

«تزوجني بالاتفاق مع أخي، في اليوم ذاته الذي تركتْ فيه زوجته البيت وعادت إلى أهلها».

قالت جملتها الأخيرة وسكتت لحظاتٍ.

«ابن الكلب هو من عرضني على شريكه، هل تعرفين رجلًا أقذر منه»؟ سألتني.

أردت أن أجيبَها، لكنني صمتُّ وتركتها تسترسل في كلامها:

«بعد ستة أشهرٍ من زواجي الأول، انفضَّت الشراكة بين أخي وزوجي. كانت الدولة تلاحق مهربين الدخان واستطاعوا الإمساك بزوجي. ظنَّ أن أخي وراء ذلك فانفضت الشراكة بينهما وانفضَّ الزواج، تجارة يعني».

«وأهلك؟ لماذا قبلوا تزويجك»؟

«ماذا تقصدين بأهلي؟ والدي كان سكيرًا يقضي يومه في سوق الهال عتّالًا، وما يجنيه يشتري به بطحة عرق ويسكر بها تحت الجسر القديم على نهر الفرات. وأمي قصتها قصة، لا أدري إذا هي مظلومة أو ظالمة، لكنها امرأة في النهاية».

رشفتْ من فنجان قهوتها، وأكملت:

«كانت شريكة أخي، يأتي ويلقي برزم المال إليها لتسكت، باعتني كما باعت أخواتي الأخريات، كل واحدة زوَّجتها لتتخلص من مسؤوليتها. أنا الوحيدة التي تطلقت وتزوجت أكثر من مرة».

«لماذا»؟

«كل شيء نصيب في هذه الدنيا. أكيد أنك تعرفين نساء يعشن حياة هانئة مع أنهن لسنَ أجمل منك ولا أفهم، وبالمقابل تزوجن وأنجبن وصارت الواحدة منهن تكنَّى بأم فلان وأم علان، هل هنالك سبب آخر غير النصيب»؟

سألتني وكأنها تسأل نفسها. قالت بعد ذلك:

«أحببتُ زوجي الثاني كثيرًا. هو أحبَّني أيضًا. تعرَّفت عليه بعد فترة من طلاقي، كان سائق الشاحنة التي تنقلني مع بقية فتيات الحي الذي نسكن فيه عند أطراف الرَّقة للعمل. كنت أعمل في مواسم جني القطن وتعشيب الحقول وزراعة الخضراوات، نخرج بعد أذان الفجر ونعود بعد الظهر، تقَّدم إليَّ وتزوجنا بعد قصة حب مثل قصص التلفزيون».

«ولماذا تطلقت»؟

«لم يطلقني. وجدوه مقتولًا بالقرب من أحد المقاصف في السحل، غرب الرَّقة، قالوا إنه تشاجر مع أحد زبائن تلك المقاصف على إحدى الراقصات. كان يخونني ابن الـ..».

تنهّدتْ قبل أن تستدرك:

«الله يرحمه على كل حال، ما عاد يعنيني بشيء».

«الأكيد أن خيانته أوجعتكِ أليس كذلك»؟ سألتها.

«بعد سنوات طويلة تصبح القصص التي توجعنا باهتة، لن أموت وراءه ولا وراء غيره».

أخذني تعليقها أفكر في إجابتها على بساطتها لكنها لم تمهلني وقتًا، التفتت نحوي وقالت:

«كل واحد أسوأ من الثاني، كلهم يريدون الوصول إلى هذا».

وضعت يديها بين فخذيها وشدَّت بقوة، ثم ضحكتْ ساخرة من حركتها وارتباكي. قرَّبتْ رأسَها مني وأكملتْ حديثها:

«يقول لك إنه يبحث عن ابنة حلال، إنَّ الجمال لا يهمه، الأخلاق هي الأساس، ويستميت للوصول إليكِ وعندما يصل يبحث عن أي سبب ليهرب ويتركك. ثلاثة رجالٍ قبل أبي كريم تزوجتهم، ثلاثة رجال يعني ثلاث تجارب. أعتقد أن هذا يكفي كي نتعلم».

«والثالث»؟ وكانت قد أثارت فضولي لمعرفتها أكثر.

«الثالث؟! كان زواج السترة، الله يرحمه مات قبل أربعِ سنوات تقريبًا».

سحبتْ نفسًا أخيرًا من سيجارتها قبل أن تطفئها في فنجان القهوة، وتلقي بها فوق الأعقاب التي ملأت صحن السجائر أمامها. ثم أدارتْ رأسها نحوي وسألتني:

«لو كنت أنت المعتقلة هل كان سينتظرك زوجك كل هذه السنوات»؟

أخفضتُ رأسي ورحت أدوِّر إصبعي على حافَّة الفنجان أفكر في إجابة عن سؤالها.

مدَّت أصابعها إلى ذقني ورفعت رأسي. قالت بعد أن تقاطعت نظراتنا:

«أنت تعرفين أنه لن ينتظرك، لكنك مستعدة لإهدار عمرك كله في انتظاره».

سحبتْ أصابعها ببطء.

«هذا ما تربينا عليه، أمي وأمك وكل النساء تدرَّبن على انتظار رجال يغيبون ويحضرون وقتما يشاؤون».

علَّقتْ ثم رشفت من فنجانها قبل أن تضعه أمامها، أسندتْ خدها إلى يدها وراحت تنظر نحو الباب. كنت أراقب حركاتها وأفكر في الوقت ذاته فيما قالته عن الرجال، لكنني لم أفهم سر زواجها برجل مثل أبي كريم بعد ثلاث تجارب تدَّعي أنها تعلَّمت منها. كنت أنظر أنا أيضًا نحو الباب وقد أخذني شرودها. أدارت رأسها بعد ذلك نحوي وقالت:

«كل امرأة بحاجة إلى رجل في مثل هذه الظروف الصعبة، لا تستطيعين الخروج من دون رجل محرمٍ وإن كان طفلًا لا يفهم شيئًا، المهم أنه يملك إصبعًا آخر بين ساقيه».

أشارت بسبابتها قبل أن تكمل ساخرةً وغاضبةً في الوقت ذاته:

«إصبع صغير كهذا، وعلينا أن نجلس في بيوتنا ليأتي بعد ذلك متأففًا من مسؤولية رعايتك والإنفاق عليكِ، تصبحين عبئًا ثقيلًا عليه، يدخل ويخرج ساخطًا على كل شيء، وعليكِ أن تتحملي نوبات غضبه هذه، تقابلينها بالشكر والامتنان من أجل إطعامك وسترك».

«هذه الظروف صعبة على الرجل والمرأة على حدٍّ سواء، كلنا ندفع ثمنها». علَّقتُ بقصد معارضتها فحسب، لكنها قالت بحزمٍ:

«ليس صحيحًا، الرجل يستطيع أن يخرج ويعمل ويسهر طوال الليل مع رفاقه، أمَّا المرأة فتدفع ثمنًا مضاعفًا، يكفي أننا لا نستطيع رؤية شمس الله من دون هذه الأغطية التي تخيطينها بيديك، لو كنا متساوين في الظروف لكانت حياتنا نحن النساء أفضل، أنا متأكدة من هذا».

«ممكن»، علّقتُ قبل أن أسألها:

«لماذا تزوجت برجل مثل أبي كريم»؟

رفعت نظرها نحوي بسرعة، ثم راحت تحدِّق إليَّ إلى درجة أربكتني.

«أحببته من أول نظرة».

أجابتني وارتسمت ابتسامةٌ عريضةٌ على شفتيها، قبل أن ندير رأسينا مرة ثانية إلى الباب الذي أصدر صريره المعتاد مع دخول أبي كريم. وضعتُ فنجان القهوة في الصينية وعدت إلى غرفتي أستمع إليها ترحِّب به وتشكره متمنيةً له طول العمر والشباب الدائم.

«خلينا نمشي شوي».

قالت آسيا بعد أن كسرت العود بيدها ونهضت. مشيت معها نحو الساقية المحمولة التي كنا قد وقفنا عندها.

كان أهل القرية قد جمعوا أمتعتهم وفرشهم ونصَّدوها قريبًا من أشجار التوت، وتنادوا للتجمُّع أمامها. رأيتهم يجلسون في صفوف غير منتظمة أمام الأشجار الثلاث، الرجال أولًا، ثم النساء وراءهم وقد جلسن في مجموعات صغيرة مع أطفالهن قريبًا من الخيمتين، بينما ركض بعض الأطفال وسط الحقول يلاحقون الأغنام التي تسللت إليها.

سألتني آسيا عن الوقت. أخبرتها أنها الساعة الثامنة صباحًا. نظرت نحو القرية ونظرتُ معها. كانت هناك غيمة قد ألقت بظلالها فوق البيوت القريبة التي تطلُّ على سفح المنحدر. كل شيء كان ساكنًا هناك، حتى رؤوس الأشجار كانت ثابتة لا تتحرك، أشبه بصورة لا حياة فيها. وحدها راية التنظيم ارتفعت عاليًا على سارية من وراء تلك البيوت ترفرف فاردةً سوادها القاتم فوقها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الحادي عشر

خيمتان، تسع دراجات نارية، بيكاب، تركتور، تريلَّا، صهريج ماء، تسعة وثلاثون خروفًا، أربعة كلاب، ثلاث قطط، أربعة حمير، أكياس مكوَّمة في أماكن متفرقة، أغطية وفرش منضَّدة بالقرب من الأشجار، أواني مطبخ، أكياس متفاوتة الأحجام مكدسة فوق بعضها في أكثر من مكان، واحدٌ وعشرون رجلًا، ست وثلاثون امرأة، اثنان وعشرون طفلًا لا يتجاوز عمر أكبرهم عشر سنوات، وأنا وآسيا.

أحصيتهم أكثر من مرة ونحن جالستان في مكاننا نراقب تجمُّعَ أهل القرية من بعيد، تصلنا أصواتهم على هيئة همهمات ترتفع قليلًا، ثم تنخفض عندما يضرب الحاج حسين بعصاه الأرض، فيصمتون منصتين له وهو يتحدَّث مشيرًا بيده نحو مواضع مختلفة من الأرض.

كانت حركات أيديهم توحي بأنهم يناقشون أمر إعداد المخيَّم. وقف رجلٌ ورسم بعصا كان يحملها خطوطًا على الأرض، نهض رجلٌ آخر وتناول العصا من يده ومشى نحو جهة أخرى وفعل الأمر ذاته بينما نظرات الجميع تتوزَّع بين الرجلين.

تأففتْ آسيا وغطَّتْ وجهها بأطراف شالها لتتحاشى ذرات التراب التي حملتها الريح وصفعتنا بها، فعلتُ مثلها وتلثَّمتُ بشالي الأسود.

كانت الشمس قد ارتفعت عاليًا مسلِّطةً أشعتها على رأسينا وكأنها تنفذ من مكبِّرة فوقنا، ثم تغيب خلف غيمة عابرة لتمنح الريح دورًا معاكسًا ببرودتها التي تلسع، نتقيها بتغطية وجهينا، ونهرب من الشمس بتحريك رأسينا مثل نملتين تتحركان باضطراب تحت أشعتها الحارقة.

«هل سننام الليلة أيضًا في العراء»؟ سألتها.

«لا، سننام في قصر المحافظ» أجابتني ساخرةً وأمسكتْ بعشبة قريبة منها واجتثتها من الأرض، تفحصتها جيدًا ثم ألقتها في الهواء وأردفت:

«ليس مهمًّا أين سننام هذه الليلة، المهم أين سننام بعد أن ينتهي كل هذا».

هززتُ رأسي موافقة على كلامها أتابع العشبة التي دحرجتها الريح أمامنا. رحت أفكر في المكان الذي سألجأ إليه بعد أن نخرج من هنا. كانتْ آسيا واثقة بأن أبا كريم قد تركنا وهرب. هذا يصعِّب مهمة انتقالنا، لكنها في النهاية ستذهب إلى لبنان لتقيم عند إحدى أختيها، أو إلى إحدى القرى في ريف حلب حيث تسكن إحدى بنات عمها كما سمعتها تتحدث مع أبي كريم قبل أيام قليلة. اقترحتْ عليه أن نذهب معها إلى ريف حلب في إحدى القرى الخاضعة

لسيطرة فصائل المعارضة، بعد أن أفهمها أنه لا يستطيع دخول مناطق سيطرة النظام للوصول إلى لبنان معللًا ذلك بأن أحدهم أخبره أنَّ اسمه موجودٌ في قوائم المطلوبين للنظام، فضلًا عن خطورة دخولي أنا أيضًا إلى تلك المناطق.

كنت أعرف مسبقًا أنني لن أبقى معهما، ولكنني لم أكن أفكر في أن أبا كريم لن يكون معنا على الأقل في هذه المرحلة. سيساعدني على الوصول إلى تركيا إذا أراد البقاء في ريف حلب مع آسيا ومن هناك سأجد طريقي. كان هذا الحلَّ الأنسبَ لي كما اتفقنا بعد أن يعطيني بعض المال لأتدبر أمري في البداية، لكنه ومع غيابه أو هربه صار مستحيلًا. ربما سأذهب مع آسيا إلى ابنة عمها ريثما أجد طريقة للوصول إلى تركيا وإن لم يلتحق بنا أبو كريم. هذا ما قالته لي قبل أيام قليلة عندما دخلت إلى غرفتي حاملة صينية القهوة.

كان الطقس ما يزال باردًا أواخر شهر شباط ٢، لذلك ارتديتُ معطفي وجلستُ وراء ماكينة الخياطة في الطرف المقابل للنافذة التي نفذ منها ضوء الشمس مخترقًا ستارتها الشفافة لأحظى ولو بقليل من الدفء. كنت منهمكة في العمل، أسابق الوقت لأنجز الدفعة الأخيرة من العباءات ليسلِّمها أبو كريم للتاجر ثم سنهرب بعدها. قال لي إنه سيبيعها بنصف ثمنها، المهم أن نتخلص منها.

«أنت من حمص»؟ سألتني وهي تناولني فنجان القهوة.

«نعم» تمتمتُ وأنا أزيل الخيط الذي علق بفمي بعد أن قطعته بأسناني.

«كانت عندنا جارة من حمص، من منطقة اسمها تلبيسة، هل تعرفينها»؟

«طبعًا».

«دعتني أكثر من مرة للذهاب معها إلى هناك وزيارة أهلها، لكنني لم أفعل».

رشفتْ من فنجان قهوتها قبل أن تكمل:

«لا الشام ولا حمص ولا حماة، حلب فقط زرتها مرات كثيرة برفقة أمي في زياراتها للأطباء هناك».

لم أعلِّق على كلامها. صمتت وقتًا طويلًا تنظر نحوي قبل أن تسألني:

«هل تريدين العودة إلى حمص»؟

خطفتُ نظرة إليها وعدتُ أمدُّ القماش تحت الإبرة وأساوي بين طرفيه.

«لا، وإن أردتُ ذلك لا أستطيع»، أجبتها.

«لماذا»؟ سألتني ونفثت الدخان من فمها في المسافة بيننا. ظل الدخان عالقًا في الفراغ أشبه بخيوط راحت تعلو ببطء إلى سقف الغرفة. رفعتُ رأسي عن العباءة ونظرتُ إليها.

«العودة إلى حمص تعني الذهاب إلى الموت بقدمَي»، أجبتها.

صمتتْ لحظات انتظرتني حتى انقطع صوت الماكينة، ثم قالت:

«أنت جريئة، مع أن مظهرك لا يوحي بذلك، كيف استطعتِ الهرب»؟

«لم يكن هنالك خيارٌ أفضل».

أجبتها وكأنني أجيبُ نفسي، ثم رفعتُ رأسي أنظر إلى السقف الذي تدلَّت منه أسلاك الكهرباء أشبه بمشانق صغيرة. أكملتُ:

«أن أهرب إلى أختي لتعيدني بيدها إلى البيت، أو أن أبقى حبيسة في غرفة تحت أنظار أخي وزوجته إلى أن يجد طريقة للتخلص مني: تزويجي بأحد أصدقائه أو قتلي».

«هل كنت متأكدة أنه سيفعل أحد هذه الأمرين»؟

«أحببت رجلًا من طائفة أخرى، وأحد نشطاء الثورة، اسمه وصورته على شاشات التلفاز والقنوات الإخبارية، وأخي من الضباط الذين تولّوا مهمة اعتقال ومطاردة زوجي وأمثاله، ماذا ستتوقعين غير هذين الأمرين»؟

«هل كنتِ تحبين عبد الكريم إلى هذه الدرجة، أعني الدرجة التي تجعلك تتخلين عن أهلكِ وحياتكِ من أجله»؟

«أحببته نعم، ولم يكن يخطر ببالي أنني سأنتهي هنا في هذه القرية ومع..».

صمتّ لحظةً أفكر في إجابتي التي تركتها معلَّقة.

«نادمة»؟

جمدتْ يدي على القماش جرَّاء سؤالها. ما معنى الندم؟ سألت نفسي ثم سألت آسيا دون أن أنظر إليها:

«أيكون الندم على ارتكابنا الحماقات أم على خوفنا من عدم ارتكابها»؟

لم تعلِّق وارتفع صوت الماكينة لحظاتٍ كنت أفكر فيها في معنى الندم بعد كل تلك السنوات. أحسستُ أنني تفوَّهت بكلامٍ لن تفهمه، فلسفة فارغة، لذلك أوقفت الماكينة ورفعتُ رأسي إلى مربع الضوء فوق رأسها ثم قلت:

«لا أنكر أنني أشتاق إلى حياتي السابقة، السهر على شرفة المنزل، التنزه في الشوارع، زيارة صديقاتي، الجيران، قبر أمي، قبر أبي، المدرسة التي كنت أدرِّس فيها بالوكالة، الكلية، ولكن، هذا لا يعني أنّني نادمة أو..».

قاطعتني:

«كان من الممكن أن تعطيَك الحياةُ فرصة ثانية لو أنك صبرتِ».

«ربما، كان يجب أن أعود إلى البيت وأوصد الباب ورائي وأنسى كل شيء، أو أذهب إلى سمر أختي أيامًا قبل أن تعيدني بيدها، لكنني عندما وقفتُ أمام كوة بيع التذاكر انعقد لساني عندما سألني الموظف عن الوجهة التي أقصدها. ظللت واقفة لحظات صامتة قبل أن ينبهني الرجل الواقف ورائي لتأخري. قال لي إن الحافلة المتجهة إلى حلب ستخرج حالًا ولا يريد أن يتأخر. أعاد الموظف سؤاله لي إن كنت أريد الذهاب إلى حلب وقد لاحظ ارتباكي هززت رأسي موافقة وركبتُ الحافلة».

«بهذه السهولة؟» سألتني بعد أن طال صمتي وقد أخذتني إجابتي إلى صورٍ راحت تنطبع وتزول على قماش الستارة المضاء بنور الشمس.

«بل بهذه الصعوبة. كل ما حدث معي بعد ذلك لا يقارن بخوفي في تلك اللحظة عندما جلستُ في مكاني وتحركت الحافلة. شعور لا يمكن وصفه. لا أنكر أنني أردت النزول أكثر من مرة، لكنّ كريم ظلّ يتصل بهاتف الرجل الذي استعرته لأكلّمه. كنت كلما ضعفتُ اتصل بي، وما عاد ممكنًا الرجوع».

«تدخنين»؟

سألتني قاطعة استذكاري. مدت يدها بسيجارة. أجبتها بالنفي وانتبهتُ إلى أنني أسهبتُ في الحديث عن أمور تخصني أمامها. قالت بعد أن أعادتها إلى علبة سجائرها:

«الحياة التي عشتها أنا أيضًا قاسية جدًّا، ولكنني وعلى الرغم من كل ما حدث معي لم أجرؤ على القيام بهذه الخطوة».

«لكل واحد منا ظروفه».

هزَّت رأسها موافقة على كلامي. قالتْ بعد ذلك وكأنها تحدِّثُ نفسها:

«كان الأمر أسهل بالنسبة إليَّ لو أردتُ ذلك، أبي مات قبل فترة طويلة، ثم لحقته أمي بعد ذلك بسنوات هي وأخي الصغير في السنة ذاتها، وأخواتي تزوَّجن قبل ذلك وانشغلت كل واحدة بعائلتها وحياتها، وأخي الكبير الذي حدَّثتك عنه التحق بإحدى الفصائل المسلَّحة، سمعت أنه يعيش في إدلب».

أطفأتْ سيجارتَها، ثم مدَّتْ يدها إلى إحدى العباءات المكوَّمة حولي وراحتْ تتفحصها قبل أن تكمل:

«كان من الممكن أن أهرب أنا أيضًا، ولكن إلى أين؟ امرأة مثلي بلا شهادة ولا صنعة، ومع عمري، حتى الكازينوهات لن تستقبلني».

«كم عمرك»؟ سألتها.

«إحدى وأربعون سنة».

«وأنتِ»؟

«سبع وعشرون».

«مازلت صغيرة».

تناولتُ الدرع الذي كنتُ أخيطه ورحت أقضمُ الخيوط الزائدة بأسناني.

«شكلكْ حابة تنهشي حدا».

رفعتُ نظري نحوها. ضحكتْ قبل أن تفسِّر: «أسنانك حادّين».

ابتسمتُ مجاملة في وجهها، ثم تناولتُ المقص ورحت أقصّ الخيوط الزائدة بضرباتٍ سريعة.

«أنت لست من الرَّقة. لهجتك لا توحي بذلك»، سألتُها.

«بلى ونعم، أبي من ريف حلب جاء إلى الرَّقة قبل سنوات طويلة وعاش فيها، وأمي من إحدى المزارع القريبة من الرَّقة، تقول إنها من إحدى العشائر غرب الرَّقة، وأحيانًا تنكر ذلك وتقول إنها شيخانية، كردية يعني...

أخذتْ نفسًا أخيرًا من سيجارتها وأكملتْ: «ما حدا يعرف قرعة أبوها منوين».

أطفأتْ سيجارتها، ثم فركتْ عينها من الدخان الذي دخل فيها وجعلها تدمع، قالت بعد ذلك:

«أتحدث مع أهل الرَّقة بلهجتهم ومع أبي كريم بلهجته، شاوي وحلبي، مخلَّط يعني، لكنني في النهاية ابنةُ هذه المدينة، عشت حياتي كلها فيها، وفي حارتنا تجدين كل الناس، الحلبي والحمصي والرقاوي والكردي، أشكال ألوان».

«أليس لديك أقارب في الرَّقة»؟

«بيت عمي فقط، مات هو أيضًا، وخرجتْ زوجته مع أولاده إلى قريتهم في ريف حلب بعد أن سقطتْ الرَّقة من يد النظام. بقية أقاربنا يقيمون هناك أيضًا ولا صلات تربطنا بهم، أغراب يعني».

أكملتْ بعد أن صبَّت لنفسها فنجان قهوة آخر:

«أخواتي كل واحدة في بلد. عندي خالي الوحيد، أقمتُ عنده بعد أن قصف بيتنا، عدة أشهر فقط قبل أن أتزوج بعمِّك».

سكتتْ لحظات قبل أن تسألني:

«ماذا ستفعلين بعد أن نخرجَ من هنا»؟

«لا أدري، سأحاول التسلل إلى تركيا أولًا، ثم..».

صمتُّ لحظة أفكر في ما سأفعله بعد أن أصل إلى هناك. قالت:

«اتفقتُ مع أبي كريم على أننا سنذهب إلى ابنة عمي، هي الأقرب إليَّ، يمكن لزوجها أن يساعدك في دخول تركيا، ولكن هل ادَّخرت بعض المال»؟

«المال كله عند أبي كريم. أعطاني مبلغًا صغيرًا قبل ذلك، كان خائفًا أن يتكرر ما حدث معه قبل أشهر عندما احتجزه التنظيم».

«هل تملكين قطعة ذهب؟ خاتمًا مثلًا؟ «إسوارة»؟ أي شيء»؟ سألتني.

«لا، ذهبي باعه أبو كريم كلّه لننفقه على مصروفنا وعلاج أم كريم، عندي خاتم زواجي فقط وهو لا يتجاوز الخمسة غرامات».

«ليس كافيًا، لكنه أفضل من اللاشيء، سيعينك وقتًا قصيرًا حتى تجدي عملًا تعيشين منه».

«لا أفكر في بيعه».

«تحتفظين به للذكرى»؟

لم أجب عن سؤالها. أرخيتُ رأسي على الحائط وأغمضت عيني.

«ستبيعينه عاجلًا أم آجلًا. أنا بعت ذهبي وأنفقته على أختي وأولادها، وما بقي منه أنفقته على خالي وأولاده. وفي النهاية لا أحد يستحق. ربما لو هربت قبل ذلك، كانت ستكون حياتي أفضل بالمال الذي كنت أملكه».

«تهربي أو ما تهربي، بالحالتين مو خلصانة»، علَّقتُ.

رفعت رأسها مثبتة نظرها نحوي. قالت بعد ذلك:

«بعدك زغيره والحياة قدامك، بتطلعي من هون وتنسي كل شي. لولا النسيان ما كان حدا عاش بعد حدا، أصلًا الإنسان شو بيسوى من غير النسيان»؟

«ممكن»، أجبتها.

«أكيد»، قالت وتناولت إحدى العباءات ورفعتها عاليًا بيننا، ثم نهضت وارتدتها حاجبة بوقوفها الضوء عنِّي. مددتُ ساقيَّ أريحهما قليلًا من الجلوس متربعة أمام الماكينة ورحت أرتشف من قهوتي وأنظر إليها وهي ترخي العباءة على كتفيها متجاهلةً وجودي، وربما وجود أي شيء آخر عندما أغمضتْ عينيها ورفعتْ رأسها إلى الأعلى وراحتْ تدور ببطء، «لماذا لونُ العباءات أسود»؟ سألت وبدا لي أنَّها لا تنتظر إجابتي، «من اختار هذا اللون للعباءة؟ رجل أم امرأة»؟ عادت وسألت ثانية، «الأسودُ سيِّد الألوان»، «الأسود سيِّد النساء»، «الأسود لون الحزن»، «الأسود لون حياتنا»، «الأسود ستر»، «الأسود موت»، «الأسود عزاء»، «الأسود قهر»، «الأسود ليل موحش»، «الأسود..» سكتت تفكر وكان صوتها ينكسر مع كلِّ جملة تصف فيها اللون الأسود، ثم زادت وتيرة دورانها. كان منظرها وهي تدور ساحرًا وغريبًا، تدور ويلتفُّ حولها الأسود، دوائرُ تفتح دوائر أخرى، أمواج من سواد تتشكل وتتكسَّر على جسدها، ويتناوب الضوء وظلّ العباءة على وجهي مذهولةً وأنا أراها غارقةً في ذاتها، غائبةً عن كل ما حولها. ربما في تلك اللحظة استطعتُ أن أرى آسيا على نحوٍ أوضح، امرأة مثل كل النساء اللواتي كسرتهنَّ البلادُ الغارقةُ هي الأخرى في سواد أشد رهبةً من سواد العباءة على كتفيها، رحت أتأملها في دورانها وللحظة خُيِّل إليَّ أنَّ العباءاتِ التي أنجزتها ترتفع إلى الأعلى هي الأخرى وتدور حولها ثم تتماهى معها. لم يدم هذا الوهم طويلًا إذ سرعان ما توقَّفت عن الدوران ثابتةً في مكانها وفتحت عينيها تنظر إلى الأعلى. رفعت رأسي أنظر معها إلى السقف، أي حلمٍ ينتهي عند هذا السقف؟ تساءلتُ ساخرةً في سرِّي، وارتخت العباءةُ على جسدها، تنهدتْ ثم أزاحت بأصابعها العباءة فانسدلت على الأرض تحتها.

«الملل بيسوِّي أكتر»، قالت معلقةً على ما فعلته أمامي وقد انتبهت إلى أنني كنت أراقبها بفضول. أرادت أن تعود إلى مكانها عندما سمعنا طرقاتٍ على الباب.

«هاد يوسف جاب غراض البيت، تفتحي الباب ولا أفتحه أنا»؟ سألتني.

«بدي خلَّص شغلي»، أجبتها وفرشتُ القماش الأسود على الأرض، أخطط بالطبشورة عليه خطوطًا مستقيمة وأخرى منحنية.

«براحتك» قالتها بغنجٍ، ثم حملت الصينية ونهضت لتفتح الباب.

«إنهم ينادوننا»، قالت آسيا ووقفت تنفض عباءتها.

كان اجتماع أهل القرية قد انفضَّ في اللحظة التي ركضَ فيها طفل صغير نحونا. انتحتْ بعض النساء جانبًا تحت ظلال الأشجار، بينما راح بعض الرجال يتحدَّثون في مجموعات صغيرة عندما وقفنا أمام الحاج حسين مرة ثانية.

أعادتْ آسيا كلامها الذي قالته ليلةَ البارحة. نادى بعد ذلك الحاج حسين على إحدى النساء وطلبَ منها أن ترافقنا إلى الخيمة التي سنقيم فيها إلى أن يقضي الله أمره ويفرِّج عنَّا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الثاني عشر

«أنا خولة، وهذه عمتي الحاجة زهرة، زوجة الحاج حسين».

عرفتنا المرأةُ التي استقبلتنا بنفسها وبالمرأة العجوز التي كانت مستلقية في إحدى زوايا الخيمة.

كانت المرأة التي قد أوصلتنا قد أخبرتهما بأن الحاج حسين أمر بأن نقيم معهما ثم خرجتْ مسرعة.

«أهلًا وسهلًا»، قالت خولة مرحِّبةً بنا.

أحسستُ براحة كبيرة لمجرد سماع ترحيبها دون أن أتخلَّص من ارتباكي وأنا أقف إلى جوار آسيا وقتًا قبل أن تفرغ من فضولها وتدعونا إلى الجلوس.

وضعتْ آسيا كيسَها وراء ظهرها في الجهة المقابلة لفراش العجوز وفعلتُ مثلها بحقيبتي. انتظرتْ خولة حتى جلسنا قبل أن تعود إلى مكانها وتضع الطفل في حضنها. ابتسمتْ في وجهينا وارتسمت مع ابتسامتها غمازة على خدها الأيسر.

كانت خولة نحيلة جدًّا إلى درجة جعلت عظام وجنتيها بارزتين على نحوٍ قبيح، وجهها طويل وأنفها كذلك، أما عيناها فكانتا صغيرتين أشبه بنقطتين بنيتين تحت جبينها الضيِّق، لكنّ ثدييها، ورغم نحولها، كانا بارزين وممتلئين. ستكون مقبولة أكثر لو أنها أسمن قليلًا، فكَّرت وأنا أخطف نظراتي إليها وإلى المرأة العجوز التي ظلَّت تحدِّق إلينا، ثم أزاحت نظرها ببطء عنَّا وراحت تتأمل سقف الخيمة وأرختْ يدها فوق صدرها تدفع ببطء حبَّات مسبحتها.

«أنا آسيا زوجة أبو عبد الكريم، مؤذِّن المسجد، وهذه نسرين زوجة ابنه».

«رأيتكما هذا الصباح، أخبرتني النساء أنكما جئتما وحدكما في الليل، أين زوجكِ»؟ سألتْ خولة.

«لا ندري» أجابتْ آسيا وأرخت الشال على كتفيها. أكملتْ بعد ذلك:

«لولا أولاد الحلال ما عرفنا أنَّ الأكراد سيقتحمون القرية».

قفز وجهُ يوسف أمام عيني لحظةً قبل أن تقول خولة:

«نحن خرجنا قبل الجميع، نزحنا قبل ثلاثة أيامٍ إلى هنا».

«ولماذا لم تنزحوا إلى منطقة أخرى أكثر أمانًا»؟ سألتُها.

«ربّك هو الستَّار»، أجابتني وأزاحتْ نظرها نحو الحاجة زهرة قبل أن تكمل بنبرةٍ محببةٍ:

«جئنا إلى أرض أم البْنَيَّات».

كانت العجوز تنظر إلى سقف الخيمة، تفتح عينيها قليلًا، ثم تعود وتغمضهما على نحوٍ رتيب دون أن تتوقف عن تحريك شفتيها وقد تكاثرت التجاعيد حول محيط فمها وعينيها الضيقتين، وبرزتْ من صدغيها خصل من شعر أشيب غزيز. كانت بشرتها سمراء داكنة لكنها كانت جميلة في صباها، خمَّنت وأنا أسرق نظرات خاطفة نحوها، ولفت انتباهي وشمٌ بين حاجبيها على شكل نجمة خضراء، ونقطة تتوسَّط أرنبة أنفها مثل النساء البدويات اللواتي كنت ألمحهنَّ في الأسواق القريبة من جامع خالد بن الوليد في حمص.

«ابنك»؟ سألتْ آسيا.

«إي، إسماعيل»، أجابتْ خولة بنبرة محببة قبل أن تكمل: «هذا الألماني».

كان شعر الطفل أشقر وعيونه خضراء فاتحة، ولا يشبه أمه في شيء سوى بغمازة كانت ترتسم على خده الأيسر كلما ابتسم أو فتح فمه متثائبًا.

«وُلد بعد سفر والده إلى ألمانيا بثمانية أشهر، لقَّبه عمه بالألماني لأنه يشبه الأجانب»، قالت خولة مفسرة.

«ماشا الله! شكله فعلًا ألماني، الله يخليلك إيَّاه»، علَّقتُ وأنا أراها تسدل شالها الأسود على صدرها. أخرجتْ ثديها وألقمته لابنها ثم قالت:

«زوجي سافر إلى ألمانيا قبل سنتين إلا شهرين تقريبًا. غادر هو وكثير من شباب القرية إلى هناك، والحمد لله تيسَّرت أموره وأخذ الإقامة وقدَّم طلب لمِّ شمل لنا لنلتحق به، ولكننا ننتظر أن تهدأ الأوضاع لنقابل في السفارة الألمانية في بيروت، وبعدها سنسافر إليه، مو صح يا الألماني»؟ وجَّهتْ سؤالها إلى الطفل الذي أفلتَ صدرَ أمه ورفع رأسه نحوها.

«إن شاء الله»، تمتمنا.

«عندك أولاد غيره»؟ سألتها آسيا.

«عندي ثلاثة، أحمد ونجاح وإسماعيل، أحمد هو الكبير عمره خمس سنوات ونصف، ونجاح أربع سنوات، والألماني».

حاولت أن تدسَّ ثديها مرة ثانية في فمه، لكنه أبعد رأسه وظل يوزِّع نظراته بيننا.

«شكلك مو جوعان تعال عندي»، قالت آسيا ومدتْ يدها نحوه.

أعادت خولة تثبيت صدرها تحت ثوبها وناولتها الطفل. رفعته آسيا إلى الأعلى قبل أن توقفه على الأرض ممسكةً بيده وسحبته نحوها، ثم أرختْ يديها قليلًا تدفعه ليَثبُتَ ويشد ظهره.

«ديري بالك». قلتْ لها عندما رأيته خائفًا يمدُّ يديه ليتشبَّث بحضنها.

«لا تخافي ربَّيت أولاد أختي كلهم».

أجابتني وراحت تهزُّه على ركبتها. أخرجت قطعة شوكلاتة صغيرة من كيسها وفتحتها له.

«عندك أولاد»؟ سألتها خولة.

كانت قطعة الشكولاتة قد ذابت داخل الكيس، وضعتها آسيا في يدها وتركت الطفل يلعقُها قبل أن تجيب:

«الله ما رزقني».

«الحمد لله على كل حال، وأنتِ»؟ وجهت سؤالها إليَّ. أخبرتها بأنني لم أنجب أيضًا.

«الله كريم»، علَّقتْ خولة ثم نهضتْ إلى باب الخيمة، نادتْ على ابنها الصغير ليحضر البابور من خيمة الحاج حسين.

شربنا الشاي مع خولة قبل أن أخرجَ معها من الخيمة وظلت آسيا بحجة أنها متعبة وتريد أن تنام قليلًا، أدارتْ ظهرها لنا وتدثَّرت بحرام صوفيّ ناولتها إياه خولة من إحدى زوايا الخيمة التي كانت قد نضَّدت فيها بعض الأغطية.

جلست معها عند باب الخيمة نتحدَّث ونتابع الحركة النشيطة التي هيمنت على المكان لإعداد المخيم. لم تكن لديَّ الرغبة في الإجابة عن الأسئلة ذاتها التي راحت تسألني إياها خولة بحذر عني وعن زوجي وآسيا وأبي كريم. كانت تحاول جاهدةً ألا يزلَّ لسانها بكلمة أمامي على الرغم من محاولتي طمأنتها وإخبارها بأننا امرأتان غريبتان لا علاقة لنا بما فعله أبو كريم، وما يتناقله الجميع عن انتمائه إلى التنظيم وتورُّطه معهم، «تركنا وهرب»، أعدتُّها على مسمعها وبالنبرة الساخرة التي نطقتها بها آسيا قبلي أكثر من مرة، ثم شرعتُ بدوري أسألها. في البداية حاولتُ أن أفهم منها إذا كان هذا المخيم هو الوحيد لأهل القرية، أجابتني مؤكِّدة ذلك، فمن بقي منهم جاء هنا، أمَّا البقية فقد فروا إلى أماكن أكثر أمانًا. قالت إنها لم تكن راغبة بالنزوح إلى الزور، لكنها في النهاية لا تملك مكانًا آخر تنزح إليه بعد أن جاءت الحاجة زهرة والحاج حسين وأولاده إلى هنا. كنت أدفعها لتخبرني عن يوسف وأهله إن كانوا قد نزحوا إلى منطقة أخرى. ألمحتُ لها بأنني لا أعرف أحدًا سواه

بحكم أنه الشخص الوحيد الذي كان يزور أبا كريم ويحضر لنا ما نحتاج إليه. قالت إنّ زوجة أبيه وأولادها نزحوا إلى البريّة مع أقارب لهم، وإنّه ربّما لحق بهم، لم تعلّقْ أكثر، ولم أشأ أن أظهر لهفتي لمعرفة أخباره. جلستُ بعد ذلك أنصت لحديثها قبل أن تسحبني إلى متعة كنت قد افتقدتها لوقت طويل، متعة الحديث لمجرد الحديث. رحت أسألها لأدفعها إلى الكلام أكثر. أخبرتني عن حياتها وعن الحاجة زهرة عمتها التي عاشت عندها منذ أن كانت طفلة في الخامسة من عمرها قبل أن تتزوج بابن الحاج حسين من زوجته الثانية. حدثتني عن القرية وسكانها، وعن الزور وأرض أم البْنَيّات، أرض الحاجة زهرة، ثم اعتذرت مني عندما نادتها امرأةٌ لمساعدتها في خياطة أكياس السِّماد على شكل غطاء لتدثّر به خيمتها.

ظللت جالسة وحدي أتأمل أشجار التوت التي انتصبتْ أمامي وقد ارتفعت أغصانها وتشابكت فيما بينها وكأنها شجرة واحدة بثلاثة جذوعٍ ضخمة. كانت الشجرة الوسطى هي الأضخم وقد ارتفعت أغصانها عاليًا تكسوها أوراق خضراء داكنة، بدت وكأنها قد أورقت منذ وقت قريب.

أخبرتني خولة بأن الحاجة زهرة هي من زرعت أشجار التوت هذه، الوسطى أولًا عند زواجها بالحاج حسين، والشجرتين الأخريين بعد زمن طويل، حدث ذلك بعد أن غرقت ابنتاها في النهر عندما كانتا تغسلان الصوف برفقة نساء القرية كما درجت عليه العادة في ذلك الوقت، قبل عيد الأضحى بأيام قليلة، ولم يجدوا جثتيهما إلا بعد مضي وقت طويل، عثر صيادون على إحداهما في النهر عند منطقة التبني في دير الزور، أما الأخرى فأبعد من ذلك بكثير إلى درجة أن جثتها كانت قد تشوَّهت، وأنَّ الحاجة زهرة ظلت طوال تلك الأيام تنام في هذه الأرض، وفي الصباح تجلس على جرف النهر تنتظر عودة ابنتيها، ولم تعد إلى القرية إلا بعد أن دفنوهما في المقبرة التي صارت مزارًا دائمًا لها، توزِّع أيامها بينها وبين ظلال هذه الأشجار، وقد ترك لها الحاج حسين هذه الأرض لها تعويضًا عن غرق ابنتيها بعد أن أغلقتْ بابها واعتزلت الناس جميعًا حتى زوجها. قالت خولة إنها لم ترَهما ولا مرة واحدة يجلسان وحدهما أو يتحدثان بشكل مباشر، لا أحد يعرف السبب وراء تلك القطيعة، ولكنه ترك لها هذه الأرض لتستفيد من محاصيلها طوال حياتها، على أن تعود ملكيتُها بعد موتها إلى أولاده من امرأته الثانية التي كان قد تزوجها قبل الحاجة زهرة وماتت قبل سنوات قليلة.

أسندتُ رأسي إلى راحة يدي أنظر إلى المخيَّم الذي بدأتْ تظهر ملامحه. تسعُ خيامٍ متفاوتة الأحجام كانت آخر النهار قد توزَّعت على شكل نصف دائرة تحدُّها الأشجار الثلاثة في خطٍّ مستقيم مادَّة ظلالها على الساحة الصغيرة التي تشكَّلت بين الخيام.

كانت الخيمة التي أقمنا فيها صغيرة الحجم، ينتصب في مركزها عمود يرفعها إلى الأعلى بخلاف الخيامِ الأخرى التي لم تكن بجودتها، بعضها كان مرفوعًا بأعمدة حديدية أشبه بسرادق العزاء، تدثِّرها أكياس السِّماد وشوالات القمح وقد أُسدِلتْ على بعضها حصائر وبُسُطٌ لتمنع الريح والمطر من التسرّب إلى داخلها، وقام الرجال بردم أطراف الخيام بالتراب وتثبيتها بحجارة كبيرة ثم حفروا خنادق صغيرة على محيط كل خيمة للغرض ذاته، بينما تولَّت النسوة مهمة تمهيد الأرض وكنسها وفرْشِها وترتيب ما تمكنوا من إخراجه معهم من أغطية ووسائد وفُرُش وأدوات المطبخ، يساعدهم الأطفال في جمع الحطب وتكديسه فوق كومة من أعوادِ القطن اليابسة التي تسلل بعض الرجال وأحضروها من أحد البيوت المطلَّة على الزور، حيث كانت النسوة يستخدمنها في إشعال النار لإعداد خبز الصاج وطهي الطعام.

أحسست وأنا أنظر إلى المخيم بعد الانتهاء من إعداده، وكأنني أعود بالزمن إلى الوراء قرونًا طويلة عندما بدأت الغيوم تتقارب لتسدَّ الانفراجات فيما بينهما وتحجب الشمس وراءها، وراح الدخان يتصاعد من جنبات المخيَّم على شكل أعمدة بيضاء تبددها الريح كلما تجدَّد هبوبها. كانت بعض النسوة قد غسلن الثياب وعلقنها على حبال الخيام، بينما تكدَّست الأحذية أمام أبوابها، ورشَّت الفتياتُ ساحة المخيَّم بالماء لتثبيت التراب الذي ظل يندفع إلى الداخل حيث جلس بعض الرجال، وبقي بعضُهم الآخر يساعد في نقل الحجارة وتثبيت أعلامٍ بيضاء فوق كل خيمة، في إشارة إلى أن سكان المخيم هم من المدنيين العزَّل.

«خولة»، جاءني صوت الحاجة زهرة تنادي من داخل الخيمة.

نهضت وأزحت باب الخيمة القماشي.

«أين خولة»؟ سألتني العجوز.

أخبرتها بأنها تجلس مع نساء أخريات بعيدًا. سألتها إن كانت تريد شيئًا أستطيع فعله لها. لكنها ظلت صامتة لحظات تنظر نحوي إلى درجةٍ أربكتني. قالت بعد ذلك إنها تريد أحد أدويتها. أردت أن أسألها إن كانت تعرف مكانه لأعطيها إيَّاه، لكنها أغمضتْ عينيها مرة ثانية وأطبقت شفتيها من دون أن تتوقف عن دفع حبَّات مسبحتها بأصابعها الغليظة.

علتْ أصوات رجال كانوا قد عبروا قريبًا من الخيمة. انتظرتُهم حتى ابتعدوا، عدَّلت شالي وخرجتُ لأنادي خولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

النبش الثالث عشر

عندما حلَّ المساء، أشعلتْ خولة لمبة الكاز، توهَّج الضوء قليلًا ثم أعادتْ خفض الفتيلة لتصدر ضوءًا شحيحًا.

«هذا يكفي»، قالت وهي تعيد تثبيت البلَّورة على القاعدة بهدوء، وضعتها على علبة تنك فارغة بجوار العمود، ثم أكملتْ:

«طلبوا منَّا ألَّا نشعل الضوء إلَّا عند الحاجة، وأن نطفئه فَوْر تجدد الاشتباكات».

«الله يستر» علَّقتُ وانزويتُ في مكاني، في الزاوية الضيِّقة من الخيمة عند أقدام آسيا التي كانت ماتزال نائمة.

كانت الحاجة زهرة قد اعتدلتْ في فراشها وأمسكتْ مسبحتها تقرأ وِرْدَها بصوت أقرب إلى الهمس؛ «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، ردَّدتها عشرَ مرات قبل أن يسحبني صوت خولة تنادي على أحمد ونجاح. لم يتأخر الطفلان، خلعا حذاءيهما الملطَّخين بالوحل ودخلا. وبختهما أمهما لأنهما كانا يلعبان بالماء المتجمِّع عند حنفية الصهريج، ثم حملتْ إبريق الماء خارج الخيمة ونادتهما، هددتهما بأنها ستطلب من والدهما ألَّا يأخذهما إلى ألمانيا إذا عادا إلى اللعب هناك مرة ثانية، ثم راحتْ تذكر الأشياء التي سيُحرمانَ منها إذا لم يتوقفا عن عصيان أوامرها، الألعاب والحلويات والثياب الجديدة والمدرسة، وزيارة مدينة الملاهي التي شاهدا والدهما يقف أمام بوابتها في هاتف عمهم.

«أريد أن أركبَ القطار»، قال أحمد.

«وأنا أيضًا أريد أن يشتري لي دراجة»، ردت نجاح.

«من يسمع كلامي سيحصل على ما يريد، هذا اتفاقنا»، قالت خولة وهي تمسح يديهما بمنشفة رماديَّة صغيرة علَّقتها على خيط مربوط بين زاويتي الخيمة.

وقف الطفلان قريبًا من أمهما ينظران بفضول نحوي قبل أن تسحبهما أمهما إليها وتبدِّل لهما ثيابهما المتسخة بثياب أخرى نظيفة أخرجتها من أحد الأكياس.

«جوعان»، قال أحمد ومدَّ يده إلى الدمية التي كانت تحتضنها أخته ورفعها بعيدًا عن يدها التي حاولت الإمساك بها. علت أصواتهما، بكت نجاح مستغيثةً بأمها، أمرته خولة أن يعيد الدمية إلى أخته، ثم علا صوتها هي أيضًا عندما

تجاهلها وراحت تلعن حظها والساعة التي أنجبتهما فيها. ألقى أحمد اللعبة وجلس بجوار أخيه النائم وراح يمسِّد رأسه، رفعت السكين في وجهه وهددته بأنها ستقطِّعه كما تفعل بالبطاطا إذا استيقظ إسماعيل. أدار نفسه إلى الجهة الثانية وراح يحرِّك يديه على خطوط الحصيرة عندما ارتفع صوتُ الحاجة زهرة تردد وِردها. تنهَّدت خولة، حوقلت وأشعلت نار الغاز بعد أن وضعت القدر وغطَّته بصحن من البافون.

ساد الصمت وقتًا قصيرًا قبل يتناهى إلى مسمعنا صوت أذانٍ بعيد يصلنا من مسجد القرية الوحيد. لم أكن قد سمعت الأذان منذ أن خرجنا ليلةَ البارحة من البيت. لمن يؤذن إذا كان أهل القرية قد نزحوا عنها جميعهم؟ أزحتُ من مكاني باب الخيمة لأنصت بشكل واضح.

«عمُّك»؟ سألتني خولة.

«لا، أعتقد أنها مُسجِّلة موصولة بمكبِّر صوت»، أجبتها.

كان الصوت الذي سمعته لا يشبه صوت أبي كريم الذي تولَّى هذه المهمة. حدث ذلك بعد أن أخلى التنظيمُ سبيلَه بأيام. عاد إلى البيت بعد صلاة العشاء. سألتُه عن الرجل الذي رفع الأذان. ردَّ بثقة بأنه هو. كان صوته جميلًا إلى درجة أنني فتحت النافذة وجلست أستمع إليه برفقة أم كريم. أخبرني بأن المؤذن كان قد تأخر في الحضور ما جعله يرفع الأذان بدلًا منه. راح يقصُّ عليَّ حكاية تعلُّمه التجويد والأذان على المقامات الموسيقية عندما كان صغيرًا على يد الشيخ عثمان المؤنس إمام أحد المساجد الشهيرة في مدينة حلب، وأنه كان يتردد دومًا إلى هناك ويواظب على حضور جلسات الذكر في إحدى الزوايا الصوفية. أشرق وجهه وهو يجلس إلى جوار فراش أم كريم ويتحدث عن الفروق بين المقامات في التلاوة القرآنية، وراح يستعرض خبرته مزهوًّا وهو يتلو بعض الآيات بصوت آسرٍ، لكن هذا الزهو لم يدم طويلًا عندما دُقَّ الباب في الليلة نفسها، غاب وقتًا قصيرًا وعاد بوجه مختنق، قال وهو يقف عند باب الغرفة إنه سيؤذِّن في القرية، لكنهم طلبوا منه أن يرفع الأذان بلا تلحين على حدِّ قولهم. هزَّ رأسه مستغفرًا ودخل إلى غرفته وأغلق الباب على نفسه. بعد ذلك اليوم، صار يقضي وقتًا طويلًا هناك، ويساعد في تعليم الرجال أصول دينهم على منهج التنظيم، ثم صار بعضُهم يتردد إلى البيت، يشربون الشاي في غرفته ويتحدَّثون بأصوات عالية عن جهل أهل هذه القرى بأبسط أمور دينهم، والانتصارات التي تحققها الدولة على مختلف الجبهات في حربها ضد الكفرة والمنافقين، على الرغم من الإشاعات التي ينشرها أعداؤهم بين الناس وتدَّعي خلاف ذلك.

التقطتْ خولة حبَّات البطاطا بملعقة خشبية. تصاعد البخار قبل أن تحمل القدر وتسكب ماءه المغلي خارج الخيمة. عادت وقشَّرت قطع البطاطا وهرستها، ثم رشَّت الملح والكمُّون عليها من أكياس صغيرة وأعادت ربطها، وسكبت قليلًا من زيت الزيتون فوق هريسها، وضعت الصحن على الحصيرة مع قطعتي خبز ونادت على طفليها ليأكلا، ثم ناولتني صحنًا ورغيف خبز.

«حصة آسيا محفوظة»، قالت لي وابتسمت في وجهي، شكرتها وتناولتُ قطعة الخبز وقطّعتها إلى لقمٍ صغيرة متحاشيةً النظر إلى خولة التي راحت تأكل وتطعم الحاجة زهرة بيديها، وتتابع في الوقت ذاته طفليها وتدفعهما إلى تناول الطعام كله بعد أن حوَّلت تهديداتها السابقة إلى وعود قريبة. أكلتُ أنا أيضًا مدفوعةً بكلماتها الحماسية وهي ترسم لهما عالمًا آخر مملوءًا بالفرح والهدايا والأوقات السعيدة في ألمانيا التي بدت لي أشبه بجنة موعودة.

أنهيت طعامي بسرعة من دون أن أشبع ولكني اكتفيت بما قدَّمته إليَّ، واقتربت من نجاح بعد أن نهرتها أمها لأنها توقفتْ عن الأكل ورحت أطعمها بيدي. استجابت لتشجيعي لها وأكلتْ، ثم حملتُ الصحون لأغسلها خارج الخيمة. اعترضتْ خولة بحزم بحجّة أنني ضيفة عليهم ولا يجب أن أفعل هذا، ولم ينفع إلحاحي في ثنيها عن اعتراضها.

عادت بعد ذلك وأخرجت من أحد الأكياس علبة دهان صغيرة. تذمَّر الطفلان من يد أمهما وهي تفرك يديهما ووجهيهما بقوة.

«لا أحب دهن القطن»، قال أحمد.

«عندما تتوقف عن اللعب بالتراب سأتوقف عن دهن يديك»، ردتْ خولة وهي تعيد الكيس إلى مكانه. راح الطفل يمسح يديه بعمود الخيمة ليزيل آثار الدهان عنها. نهرته أمه ووقفت تساعد الحاجة زهرة على النهوض. تناولت العجوز عصًا غليظة كانت تضعها بجوار رواق الخيمة القريب منها واستندت إلى كتف خولة الذي غاب تحت يدها. «خليني أساعدك»، نهضتُ من مكاني ومددتُ يدي إليها، رفعت العجوزُ رأسها نحوي، تقاطعت نظراتنا، ابتسمتُ في وجهها لكنها لم تبتسم. ظلت يدي معلَّقة في الفراغ أمامها قبل أن تطوِّق معصمي بيدها وترفع جسدها إلى الأعلى.

«يا الله»! رددتها أكثر من مرة قبل أن تقف وترفع ظهرها ببطء، ناولتُها عصاها وابتعدتُ عن طريقها، ثم ناولتُ خولة إبريق الوضوء عند باب الخيمة وكرسيًّا معدنيًّا مفرغًا من قاعدته كانت تستخدمه العجوز لقضاء حاجتها.

كانت يد الحاجة زهرة كبيرة إلى درجة أن يدي غاصت في يدها عندما شدَّت عليها. أحسست بألمٍ خفيف يشبه الوخز في معصمي. أمسكتها ورحت

أمسِّدها بلطف قبل أن ترفع آسيا الغطاء عن عينيها عندما ضرب رواقَ الخيمة ضوءُ سيارة كانت تقترب من المخيَّم. ناديت عليها لتستيقظ وتأكل طعامها، لكنها أدارت ظهرها لي وأعادت تغطية رأسها باللحاف متجاهلةً بكاء إسماعيل الذي انطلق مع ارتفاع هدير السيارة وراء الخيمة وأصوات بعض أهل المخيَّم ممن خرجوا لاستقبالهم.

أراد الطفلان أن يخرجا لكنني منعتهما بلطف، استجابا بخجل وعادا ليتحسسا بأصابعهما القماش الذي أصبح مضيئًا أشبه بمسرح لخيال الظل.

تراءت لي خيالاتُ أشخاص ينزلون من حوض السيارة، ارتفعت أصواتهم يتحدثون فيما بينهم عن أسباب تأخيرهم واختلطت أصواتهم ببكاء الصغير في حضني. جلستُ في مكاني ورحت أهزُّ جسده وأمسِّد رأسه بباطن يدي قبل أن ينقطع هدير السيارة وتهيمن العتمةُ على الخيمة من جديد.

راح جسدي يهتزُّ برفق وأنا أتأمل إسماعيل وهو يعود إلى نومه بسلام، وانسحب الطفلان إلى مكانهما السابق وسط الخيمة، وتلاشت أصوات الناس خارجها قبل أن يتناهى إلى مسمعي صوت رجل ينادي.

رفعت رأسي عن وجه الصغير، وارتفع صوتي عاليًا في اللحظة ذاتها التي سمعتُ اسمَه فيها: «يوسف»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الرابع عشر

«حليمة، أم إبراهيم»، عرَّفتنا خولة على المرأة التي رأيناها تدخل الخيمة بعد ذلك الوقت عندما خرجنا لتدخن آسيا، ثم عرَّفتها بنا قبل أن تنشغل في إعداد الشاي.

هزَّتْ المرأة رأسها وتمتمت مُرحبةً بنا، ثم راحت تؤرجح نظراتها بفضولٍ بيني وبين آسيا قبل أن تسألها الحاجة زهرة عن أختها. أجابتها إنها بخير، وإنها نامت بعد أن قضت ليلة البارحة مستيقظةً معها.

فهمتُ من حديثها أنها تعيش هنا برفقة أختها المشلولة بعد أن استطاعت تهريب أولادها الثلاثة من الرَّقة قبل فترة قصيرة. كانوا قد باعوا جزءًا من الأرض لتأمين المال لسفرهم، وظلت هي وزوجها وأختها بعد أن عرقل عناصر التنظيم خروجهم للعلاج إلى مناطق النظام كما كان يفعل الكثير من المرضى. أخبرتني لاحقًا أن التنظيمَ كان يطلب تقارير طبية تؤكد حاجة المريض إلى العلاج الذي لم يكن متوفرًا في مناطق سيطرتهم. لكنهم رفضوا خروج أختها بحجة أنّ حالتَها مستقرة ولا تستدعي الذهاب إلى دمشق وغيرها، وعندما ألحَّت عليهم أخبروها أنها تستطيع الذهاب إلى مستشفيات الموصل التي تقع تحت سيطرتهم. أخبرتني أيضًا بأنهم أنزلوها هي وزوجها وأختها من الحافلة التي كانت تقلُّهم إلى دمشق، ولم تنفعِ المحاولات الأخرى في مساعدتهم على الخروج، لذلك طلبت من زوجها أنَ يلتحق بأبنائها في لبنان، وظلت هي مع أختها في القرية إلى حين إيجاد طريقة هرب مناسبة.

اندفعَ بخارُ الشاي كثيفًا ونحن نراقب صامتاتٍ يد خولة تصبُّه في الكؤوس، ثم نهضتْ ووزعتها علينا قبل أن يقطع صمتَنا سؤال آسيا لحليمة عن سبب تأخرهما في النزوح إلى الزور. قالت إنها كانت تنتظر أقاربها، لكن أحدًا لم يمر عليها، «مرَّتْ علينا ليلة ما مرَّتْ على بني آدم»، قالت ثم رشفتْ من كأس الشاي أمامها.

«الكل هرب، كُلْ من گال اللهم نفسي»، علَّقت خولة مبررةً خروج الجميع ليلة البارحة يتراكضون حاملين أطفالهم وأمتعتهم نحو الزور. أكَّدت آسيا ما قالته خولة، وأننا لم نصادف طوال الطريق مخلوقًا في القرية. راحتْ حليمةُ تصف لنا حالتها بعد أن وجدت نفسها وحيدة برفقة أختها. قالت إنها انتظرت طويلًا قدوم قريبها ليساعدها بعد أن كان الكثير من جيرانهم وأقاربهم قد نزح مبكرًا، وإنها اضطرت إلى الوقوف وقتًا طويلًا عند الباب تترقَّب في الظلام وحدها مرور من يساعدها، ثم بعد أن انتصفَ الليل سمعتْ هدير سيارة تعبر زقاقهم. كانت السيارة تابعةً للتنظيم، توسلتْ إلى سائقها كي ينقلها هي

وأختها خارج القرية، لكنه رفض معللًا ذلك بأن السيارة لا تصلح لحملها وأختها؛ «كانت مفخخة»! قالت جملتها الأخيرة وارتفعت أصواتنا مستغيثة بالله.

«يمكن هي اللي انفجرت اليوم الصبح»، علَّقتُ. أخبرتنا حليمة بأنها ليست سيارة واحدة فحسب، بل أكثر من سيارة وبيت وطريق فخخوه وزرعوا محيطه بالألغام، وأن ما سمعناه كان تفجير حاووز الماء في القرية، قالت إنها، ومع هذا، توسَّلت إليه أن ينقلها وأختها إلى أقرب نقطة تستطيع أن تجد فيها أحدًا يساعدها، لكنه دعاها إلى دخول البيت، ثم تركها وأكمل طريقه متجاهلًا توسُّلها له.

صبَّتْ خولة كأس شاي آخر لها وسألَتْها عمَّا حدث بعد ذلك. أجابتها بأنَّها عادت إلى البيت ونقلت فراش أختها إلى وسط الغرفة ونضَّدت الوسائد والفرش على طول الباب والنافذة خوفًا من الرصاص، «ما گدرت أهرب واتركها وراي»، علَّقت وراحت تمسح دموعها بطرف ملفعها. صمتنا لحظاتٍ ارتفع فيها صوت الحاجة زهرة تحوقل قبل أن تكمل حليمة قصتها بعد أن فزع عليهما أحد أقربائهما ويوسف. رفعت آسيا نظرها نحوي، تقاطعت نظراتنا قبل أن ندير رأسينا إليها لتكمل حديثها. قالت إن يوسف وقريبها حملا أختها المشلولة ومشتْ معهما حاملةً القليل مما استطاعت إخراجه معها، «مشينا بأثر العنز خايفين من الألغام»، قالت وشرعت تصف الخوف الذي ملأ قلبها قبل أن يصلوا إلى بيت يوسف حيث ترك سيارته ليركبوها ويعودوا إلى المخيم.

«ولماذا تأخرتم إلى الآن»؟ سألتها خولة.

أجابتها حليمة:

«رفض عناصر الدولة خروجنا قبل مغيب الشمس. قالوا إن الطرق مفخخة، والطائرات ترصد كل حركة على الأرض. قضينا النهار في بيت يوسف العبد الله حتى غابت الشمس وهربنا من دون أضواء في طرق فرعية وصفها لنا أحدُ عناصر الدولة».

قالت آسيا: «كذب، الطائرة لا تفرِّق بين الليل والنهار، في الرَّقة كان أكثر القصف ليلًا، نصحو من النوم على أصوات الانفجارات، والله تگدر تشوف البني آدم وهو گاعد ببيته».

ثم أردفت: «المهم أنكم وصلتم بخير».

علَّقت حليمة: «الله يستر علينا بس».

«آمين»، رددناها قبل أن يرتفع صوت طائرة مخترقًا جدار الصوت. علتْ صرخاتُنا وامتزجت بصراخ الأطفال الذين استيقظوا فزعين، «اللمبة اللمبة»

صرخت خولة وركضت نحو أولادها. أطفأت آسيا اللمبة وخرجت حليمة حافية بعد أن تعثَّرت بإبريق الشاي وانسكب على الحصيرة عندما دوَّت انفجارات عديدة أحالتْ ليلَ الزور المظلم إلى جهنم. رأيت الحاجة زهرة ترفع جذعَها وتدير رأسها إلى رواق الخيمة وراءها وقد انعكست عليه خيالات بشرٍ يتراكضون في اتجاهات مختلفة.

كانت خولة قد جمدتْ في مكانها ولفَّت نفسها وصغارها باللحاف فاغرةً فمها تنظر إلى باب الخيمة بعد أن خرجتْ آسيا تركض وراء حليمة، ظلت على حالها لحظات قبل أن تشد يديها على صغارها وتضمُّهم أكثر إلى صدرها عندما دوَّت سلسلة انفجارات أخرى مسحت كلَّ الأصوات الجانبية التي كنت أسمعها.

كل شيء كان يرتعد من حولي، الناس والخيام والصرخات التي تداخلت مع نداءات وأسماء وأدعية تدفَّقت هادرةً إلى قلبي، واستحالت خوفًا خالصًا وأنا أنظر مذهولةً إلى خولة وأطفالها والحاجة زهرة وقد انعكس ضوءُ الانفجارات على القماش ومدَّ ظلالهم لتغمرني.

ربما مرَّ وقت وأنا على هذه الحالة، لا أعرف، ولا أعرف كيف استطعتُ أن أقف بعدها وقد بلل الشاي المنسكب على الحصيرة جواربي. أزحتُ باب الخيمة وخرجتُ بعد أن استطعتُ تمييز الكلمات التي عادت ترددها شفاه الناس من حولي، ثم تباطأت خطواتهم ووقفوا ينظرون إلى بيوتهم وهي تحترق أمام أعينهم. صرت أسمع أصواتهم جيدًا وهي ترتفع بالدعاء والاستغاثة إلى ربٍّ يعرف حالهم أكثر منهم، يذكِّرونه بهم، ودعوات للعودة إلى الخيام يطمئنون بعضهم بعضًا بأن ما يحدث الآن كان قد حدث في قرىً أخرى، وأن الطائرات لن تقصف قريبًا من خيامنا.

جثوت على الأرض أبحث عن حذائي، تلمَّستُ كل حذاء بيدي وأنا أصيح منادية آسيا.

كانت النيران قد اشتعلت في أكثر من موضعٍ في القرية. رأيتها وأنا أمشي نحو آسيا التي وقفتْ وحدها، بينما وقف الكثيرُ من الناس على طول الخيام المواجهة للقرية. أمسكتْ بثوبها وشددته. نظرت نحوي لحظةً قبل أن تدير رأسها إلى الضوء الذي توهَّج في أحد أطراف القرية تلاه دوِي انفجارٍ جعلني أرتدُّ إلى الوراء.

«خلينا نهرب»، كررتُ على مسمعها دون أن تجيبني.

«وين يوسف»؟! سألتها، ورحت أتلفَّت حولي هلعةً، أبحث عنه في وجوه الناس من حولي، لكنني لم أجده.

«يوسف يقدر يساعدنا»، قلت لها، وارتفع صوت الطائرة مخترقًا جدار الصوت قبل أن تلقي بحممها على القرية، وانفجر مع دويِّ القذائف صراخ الناس من حولنا.

«أبوس إيدك خلينا نهرب»، توسَّلتُ إليها.

«وين»؟ سألتني غاضبةً ورفعت رأسها إلى السماء لحظة.

كان وجهها قد احتقن عندما أدارت رأسها نحوي مرة ثانية.

«ما ظل غير نهرب لعند أالله»، خاطبتني بالنبرة الحادَّة ذاتها وعادت تنظر أمامها.

كانت يائسة أكثر مني. مددتُ يدي أبحث عن يدها، أمسكتُ بها وألصقتُ جسدي بجسدها، «خايفة»، قلت من دون أن أبعد نظري عنها، لكنها تجاهلتني. «خايفة»، كررتها مرة ثانية وهززت يدَها لتلتفت إليّ، نظرت نحوي بعد ذلك. كان يأسها قد استحال غضبًا، وعندما رأت الدموع تطفر من عيني، سحبتْ يدها من يدي وطوَّقت كتفي بها، «لا تخافي»، قالت وقرَّبت رأسي إلى صدرها برفق، استجبت لها، ملت بجذعي نحوها وبكيت.

تركتني أبكي وقتًا ثم قادتني إلى الخيمة. وضعتْ رأسي على فخذها. ثنيتُ ركبتي وتقوقعت على نفسي في المساحة الضيِّقة بينها وبين باب الخيمة من دون أن أخلع حذائي.

لا مكان نهرب إليه، أعرف هذا، لكنني كنت سأركض بلا توقّف لولا يدُ آسيا التي راحت تمسِّدُ شعري وتمسح دموعي بأصابعها التي كانت تفوح منها رائحة التبغ. سرت قشعريرة في جسدي وارتفع لهاثي، «بردانة»، رددتها. غطتني بحرام صوفي ومدَّتْ يدها إلى يدي تفركها.

سمعتُ الحاجة زهرة تأمر خولة ألا ترضع الصغير وأن تكتفي بالماء بدلًا من حليبها. قادني صوتها إلى التساؤل حول السبب وراء ذلك، وقادني صوتُ آسيا إلى سؤالٍ آخر عندما سمعتها تطمئنُ خولة وتتحدث عن رحمة الله بعباده. ولكن، ما الذي ينتظره الله ليتدخَّل؟ هذا كفرٌ، لو سمعني أحد عناصر التنظيم لقتلني ورمى جثتي للكلاب، ولكن، لماذا لا يقدر الدعاء على كل هذا الخوف؟ لماذا في الخوف توجد مساحة هائلة من الصمت، مبهمة وخانقة؟

كل كلمة كنت أسمعها داخل وخارج الخيمة كانت تقودني إلى سؤال. سؤال إثرَ آخر واندفعتُ نحو تلك المساحة، هويت كأنني حجر يسقطُ سريعًا داخل بئرٍ مظلمة، واستحالت تلك الأسئلة إلى إبرٍ تنغرز في جسدي لتُشيع فيه خدرًا، ثم صارت تؤلمني إلى درجة فتحتُ بها عيني فزعةً ورفعتُ رأسي إلى آسيا، حاولتُ أن أتشبَّثَ بها، قبضتُ على ثوبها من جهة صدرها، لكنها فكَّتْ

قبضتي بقوة وشدَّتْ يدي إلى الأسفل، وبخلاف ذلك أخفضتْ رأسي بلطف وأعادته فوق الوسادة وراحت تربِّت على كتفي، «يا أللـه»، رددتهَا دون أن تتجاوز نداءها له، وامتزج صوتها ببكاء إسماعيل ووِرد الحاجة زهرة ترددده هي الأخرى بصوت ينقطع مع كل انفجار.

دخلت نساء أخريات إلى الخيمة وجلسنَ هنَّ وأطفالهن في كل مساحة ممكنة. كنت أفتح عيني بتثاقل وأغلقهما، أرى خيالات بشرٍ يدخلون ويخرجون، يتحدَّثون ثم تنخفض أصواتهم قبل أن تعلو مرة ثانية، صخب يتلاشى ببطء ليفسح المجال لتنهدات تزفرها شفاهٌ كثيرةٌ من حولي، «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، أحس بالضوء والظلام يتناوبان على جفنيَّ، شيء يشبه تعاقب الليل والنهار على مجسَّمٍ للكرة الأرضية، سريع وخاطف، لا شيء سوى صمت تقطعه همهمات سرعانَ ما تنقطع ثم يسود الظلام كثيفًا وثقيلًا، خوف خالص ومنقًّى من أية مشاعر أخرى، خوف لم أعشه قبل تلك اللحظة، ولا يشبه الخوفَ الذي أصابني عندما خرجنا أنا وآسيا إلى الزور، ولا الخوف الذي عرفته في غياب أبي كريم، ولا الخوف الذي عشته عندما هربتُ من سامي، كان خوفًا أكبر من الوصف ولا ينفع معه سوى الركض، ولكن إلى أين؟

لم أكن أملك وسيلة سوى حذائي. كنت أركض ولا أرى شيئًا سواه، حتى أنا لا أراني، قلبي ينبض بشدة وحذائي يندفع أمامي، أراه يعبر من ظلام الخيمة إلى ظلامٍ الزور، إلى ظلام البيت، ظلامٍ أميِّزه بدرجة الخوف التي تعلو وتنخفض كلما عبرت أمكنة الظلام تلك، رطوبة في باطن قدميَّ، تنغرس أقدامي في الوحل، أرتجف من البرد، أمشي، أهرول، أركض، ولا أرى سوى حذائي.

لم يحدث شيء أكثر أهمية من المعركة، ولكن، هل من قيمةٍ لوصف معركة تدور على بعد مسافة مني؟ من يطلق القذائف ومن يتلقَّاها؟ من يخسر ومن ينتصر؟ كل هذا لم يكن مهمًّا لي وللناس الذين تكوَّموا حولنا. كنت أركض هاربةً من أيادٍ تلاحقني، يد أبي كريم تحاول أن تمسكني، يد سامي تلاحقني بالمقص لتجزَّ شعري، يد أم كريم التي كنت أربطها بيدي لتوقظني من نومي، يد يوسف وهي تدق الباب الحديدي، يد كريم ملطَّخة بدمه، يد آسيا تمسك بكتفي، يد الحاجة زهرة تتطوّق معصمي، أياد أخرى غريبة لا أعرفها، كل ما كان يسقط من ذاكرتي استحال في تلك الليلة يدًا تركض خلفي، أتعب، تمتدُّ يدٌ أتحسسها، يدٌ أقل وحشةً من سواها، تسحبني معها، تدفعني لأركض أكثر، يدٌ تريد أن تساعدني لكنها لا تعطيني لحظة لألتقط أنفاسي، أتعثَّر، أسقط، ترفعني، أنهض، تمسكني بكتفي وتهزُّني بعنف، أفتح عينيَّ وأشهق بقوة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

النبش الخامس عشر

«مطر مطر قومي».

احتجتُ وقتًا لأعي ما يحدث حولي قبل أن ينهال صوت الرصاص كثيفًا ليعيدَني إلى موقعي الحقيقي.

كانت الريحُ تهزُّ قماش الخيمة بعنف، والهواء يندفع باردًا من شقوق صغيرة في رواقها الجانبي. لم أستطع تمييز ما أراه حولي في العتمة، مجرد خيالات تتحرك حولي باضطراب.

«يا ربي دخيلك»، قالت خولة وهي تنهض فزعة تتلفَّت هي الأخرى حولها، هزَّتْ بيديها الطفلين لتوقظهما، لكنهما لم يستيقظا، تركتهما وخطتْ مسرعةً خارج الخيمة.

اندفعتِ الريحُ الباردةُ بقوة إلى الداخلِ، وارتفع الباب القماشي إلى الأعلى وعاد ليضرب أكياس النايلون والأواني التي اضطربتْ ووقعت على الأرض محدثةً جلبة إضافية، واستطعت أن أميِّز ضوء الصباح الباهت الذي اندفع رماديًّا هو الآخر وانسكب في مدخل الخيمة.

«شو في»؟ سألتُ آسيا.

«يجب أن نثبِّتَ الخيمة»، قالت وكأنها تحدِّث نفسها، أمسكت العمود وراحتْ تشده بقوة لتتأكد من ثباته.

«عاصفة» أجابتني وحملت كيسها ووضعته فوق صندوق بلاستيكي في زاوية الخيمة.

نهضتُ من مكاني فزعةً وأمسكتُ العمود مكانها أتلفَّت حولي. كل شيء كان أكبر من قدرتي على فهمه، هل هذه معركة أخرى؟ تساءلتُ وأنا أرى آسيا تروح وتجيء في مساحة الخيمة الضيِّقة، وترفع الأغطية عن الأرض وتنضِّدها فوق أحد الصناديق، «تحرَّكي»، أمرتني وخرجت. أفلتُّ العمودَ وخرجت وراءها.

كان ما رأيته شيئًا أكبر من الوصف، غيوم داكنة تسدُّ المسافة بين السماء والأرض، بينما خيوط أقل دكنةً تمتد غربًا. كانت تلك الغيوم السوداء أشبه بغُول يسحب تلك الخيوط ويتقدم نحونا، كل غيمة عضلةٌ ضخمة في جسده، وكل عضلة محشوَّة بالمطر والبرق. كانت خطواته الريح الهائجة تثير الغبار والحصى الصغيرة التي تطايرت لتضرب كل شيء يقف أمامها.

راح الناس يتراكضون في كل اتجاه وتتطاير معهم أشياء كثيرة، أباريق فارغة، قطع ثياب، أكياس نايلون، غبار وحبَّات مطر كبيرة في الوقت ذاته، أصوات قريبة وبعيدة، نداءات في كل مكان، «ياألله» كثيرة مع كلمات أخرى تتحرك هي الأخرى باضطراب وكأنها استحالت زوابع تدور حولي.

نظرتُ إلى القرية، بدتْ وكأنها قد استراحتْ أخيرًا، نائمةً في صمتها وظلامها قريبًا من العاصفة التي تمر بمحاذاتها دون أن تتدخَّل تمامًا، ثم ارتفع صوتُ الرصاص ليؤكد استمرار المعركة.

جاءني صوتُ آسيا تناديني لأساعدها. كانت تحمل حجرًا كبيرًا بحضنها، مشيت إليها أقاوم الريح التي تدفع بجسدي إلى الوراء مصدرة صفيرًا عاليًا ومزعجًا في أذني. وضعتُ يدي على وجهي لأتقي صفعاتها.

«بسرعة» صرختْ بي.

أمسكتُ الحجر معها ومشينا. كانت الريحُ تلفُّ عباءتي على جسدي مقيِّدة حركتي، وبصعوبة وضعنا الحجر على إحدى زوايا الخيمة، «العباية الخرا»، تذمَّرتْ آسيا ثم شلحتْ عباءتها ورمتها عليَّ لألتقطها، «فوتي ضبِّي الاغراض بسرعة»، أمرتني وأدارتْ ظهرها.

«خليني ساعدك»، صحت بها لكنها لم تلتفت إليَّ وركضت تبحث عن حجرٍ آخر.

كان المطر قد بدأ يهطل بقوة وغزارة أشبه برصاص يضرب الخيمة فوقنا. جمعتُ الأغطية ونضَّدتها فوق أحد الصناديق الفارغة. دخلتْ خولة تحمل كومة من الأحذية، ألقتها على الأرض في إحدى الزوايا، ودخلت آسيا وراءها تحمل كرسي الحاجة زهرة. بكت نجاح مناديةً على أمها، أمرتها أن تكفَّ عن البكاء، لكن الطفلة الصغيرة واصلتْ بكاءها، حملَتْها آسيا محاولةً تهدئتها ثم ألبستها حذاءها. كان أحمد ما يزال نائمًا، أيقظته أمه ودسَّت الحذاء بقدميه ثم أجلسته إلى جوار الحاجة زهرة، راح ينظر إلينا غير واعٍ لما يحدث أمامه.

«ماذا نفعل»؟ سألتْ خولة.

«يجب أن نرفع كل شيء، سيتسرب الماء إلى الداخل»، أجابتها آسيا وأمسكت عمود الخيمة مرة ثانية، هزَّته أكثر من مرة، ثم تابعتْ:

«هذا إذا لم تقعِ الخيمة».

تلفَّتتْ خولة حولها قبل أن تناولني إسماعيل، ثم وضعتْ وسادة على كرسي الحاجة زهرة وساعدَتها على الجلوس عليه، وتناولت صندوقًا فارغًا وجلست

إلى جوار الحاجة زهرة مع طفليها قبل أن تطلب منّي إعادة إسماعيل إلى حضنها.

كانت الريح تهب باردة وقوية كأنها شياطين غاضبة راحت تصفر من فتحات صغيرة في رواق الخيمة. «يا أالله» لا تتوقف على لسان الحاجة زهرة، تلتقطها شفاهُ خولة وترددها، ألتقطها بدوري وأرددها مع آسيا، ثم تمتزج ببكاء الطفلين متشبِّثين بثوب أمهما قبل أن نرفع رؤوسنا ننظر إلى الشقِّ الذي أحدثته الريحُ في سقف الخيمة.

بدأ الماء يندلقُ من الشقِّ على الأرض، انفتح البابُ بعنفٍ وتناثرت أواني المطبخ من الصندوق الذي ثبِّتت به خولة باب الخيمة القماشي. التقطتْ آسيا سكينًا كبيرة من الأرض وخرجت كالمجنونة. خرجتُ وراءها تحت المطر الذي اندفع أشبه بحبال ماء تتدلَّى من السماء، ولم يبقَ سوى ظلال تهتزُّ وتتأرجح لبشرٍ وخيامٍ وكلاب بعيدة لا تتوقف عن النباح، يختلط بأزيز رصاص غير آبهٍ بالمعركة التي أعلنتها السماءُ علينا.

كانت آسيا تغرس الأرض بالسكين وتشدّها جارفةً الطين نحوها، ضربتْ بها مرَّات عديدة قبل أن تلقيها إلى جانبها وتمسح بظاهر كفِّها الماء المنسكب على جبينها ثم راحت تحفر بيديها. وقفتُ قبالتها أنظر إلى جسدها الملطَّخ بالوحل. كانت عيناها مثبتتين على الأرض أمامها وكأنها تحفر بهما أيضًا. انحنيتُ وجثوتُ على ركبتيَّ أمامها. «فوتي جوا»، أمرتني من دون أن تتوقف عن الحفر، «مو قبل ما تفوتي إنتي»، قلت لها وغرست كفِّي في الأرض أحفر معها لنوسِّع الخندق. كانت كل واحدة منا تدفع الوحل نحوها لنمنع الماء من التسرُّب أكثر إلى الخيمة، ولم يكن لعملنا هذا أي معنى أمام العاصفة.

«ما ينفع»، جاءني صوت يوسف من ورائي.

أدرتُ رأسي أنظر إليه وتوقفتْ يداي عن حرث الأرض. ظلت آسيا تحفر الأرض متجاهلةً كلامه.

«ما ينفع»، كررها قبل أن يضرب بمجرفته الأرض قريبًا منا. راح ينهال بقدمه صُلبةً على المجرفة لتنغرس عميقًا في الأرض. أخذني صوتُ أنفاسه تتكسَّر في كل مرة يضرب الأرض بمجرفته ويلقي بطينها على قاعدة الخيمة. أزاح بيده الماء عن عينيه.

«ادخلا بسرعة»، قال يوسف بنبرة حازمة.

«يلّا»، نادتني آسيا وأدارت ظهرها لتدخل الخيمة، «بسرعة»، رفعتْ صوتها ودخلتُ وراءها.

جلستُ بجوار خولة أنظر إلى آسيا التي أمسكتْ عمود الخيمة وراحتْ تشده إلى صدرها. كان الماء قد بدأ يتسرَّب من شقوق أخرى أحدثتها الريح في الخيمة عندما دوَّى انفجار عظيم، ولا أعرف حتى هذه اللحظة إذا كان هذا دويَّ قذيفة أم دويَّ رعد. اهتزَّت الأرض بعدها، قفزتُ من مكاني فزعة وأمسكت بالعمود مع آسيا. انقطع صوت المطر، أو هكذا خيِّل إليَّ قبل أن يندفع غزيرًا من أعلى الخيمة، زاحفًا على عمودها أشبه بخيوط متعرِّجة سرعان ما راحت تنسكب من قبضتي يدينا. كان العمود قد تحرَّك عن مكانه محدثًا شقًّا كبيرًا في الأعلى. سحبتْ آسيا وسحبتُ معها، «اطلعوا بسرعة»، قالت آسيا داعيةً الجميع للخروج. كان الماء ينهمر فوق رأسينا ونحن نحاول تثبيت العمود عندما خرج الطفلان تبعتهما خولة حاملة صغيرها وتسند بيدها الثانية الحاجة زهرة من دون أن تتوقف عن الصراخ مستنجدة.

«اطلعي»، صرختْ آسيا بي، «مارح أتركك»، أجبتها واهتزَّ العمود بقوة وسحبنا معه قبل أن تمتد يد يوسف لتعيده إلى مكانه.

سحبتْ آسيا يدها مفسحةً المجال ليوسف وخرجتْ بعد أن أعدنا رفعه قليلًا. فكرتُ أن أخرج وراءها، سحبتُ يدي لحظة وأعدتها إلى العمود قريبًا من يده. راحت يداه تتنقَّلان على طول العمود تشدَّانه أكثر إلى صدره. تلامستْ أكفُّنا أكثر من مرة، ثلاث مرات على الأقل، ثلاث مرات على نحوٍ خاطف. وفي المرة الرابعة، وكان قد اقترب مني كثيرًا، تقاطعتْ نظراتنا، لم يتفوَّه أيٌّ منا بكلمة، ولم يسحبْ أحدٌ منا يده. كنت أريد أن أحس به قريبًا، القرب الذي لا يتجاوز ملامسة يدين على عمود يوشك أن يسحبنا هو الآخر مع الخيمة إلى الأرض.

ازدادتْ نبضاتُ قلبي خفقانًا عندما بدأتْ أصابعُه تتسلَّق ببطء أصابعي مطمئنةً إلى ثبات العمود، وتتسرَّب إلى مسامعي أصوات أنفاسنا ونداءاتٌ وتكبيراتٌ تخلَّصتْ من التباسها في أذني. كانت عيناه مصوَّبتين على كفه التي احتوت كفِّي، وببطء سحبتها من تحت يده من دون أن أفلت العمود. نظراتُنا قالت ما لم تقلْهُ شفاهنا، صمت أدار حوارًا طويلًا بيننا، أنظر إليه لأعتذر، أنني آسفة لأنني عرفتكَ في مثل هذه الظروف، أكرر أعذاري وأترك له الباب مواربًا في كل واحد منها. كان يتحدث هو أيضًا، «اخرجي»، تأتي أشبه بفاصلة بين جملتين، تأتي أضعف مما يقوله صمته، جمل مشحونة بانفعالات حادة تعكسها نظراته، لا أبتعد ولا يقترب هو أيضًا، ثم لا أدري كيف تضيق المسافةُ بين جسدينا، يعلو صمتُنا فوق كلِّ الأصوات التي تستغيث، تنادي، تصرخ. كانت أنفاسه أقرب بكثيرٍ من أن أتجاهلها هذه المرة، يقرِّب وجهَه مني، أفعل مثله وينقطع الحوار الطويل، يقبّلني، أقبّله، تنقطع أنفاسنا، أسحب شهيقًا، يشدُّني إليه، يلتصق صدري بالعمود، وصدره أيضًا، ألمٌ خفيفٌ أحسه وأتجاهله في

الوقت ذاته، أترك شفتيه تلتهمان شفتيَّ، وقلبي يخفق أكثر كلما شدَّني إليه بيديه اللتين التبسا عليهما جسدي والعمود، أشهقُ، يميل برأسه نحوي مرة ثانية، تفلت يدُه العمودَ وتطوِّقني، بينما يده الأخرى تنسحب ببطء لذيذ على طول ظهري، تزحف بأصابع محشوة بالكهرباء قبل أن تستقرَّ على خاصرتي، تشدُّني إليه في قبلةٍ أطول وأكثر وضوحًا، تختلط دموعي بالمطر، أبكي ويشرق ضوءٌ في قلبي، يتوهَّجُ أكثر، ترتفع الأصوات مهللة بانتهاء المعركة والعاصفة عندما اجتاح ضوء الشمس المخيم وتسرَّب إلى الخيمة من شقوقها التي ظلت تقطر ماءً لتغمر وجهينا.

أردتُ أن أنسحب في تلك اللحظة، انزلق العمود من يدينا. التفتنا إليه ورحنا نشُّده بقوة مرة ثانية.

«خلصت المعركة»؟ سألتُه.

«مبروك»، قالها وانشغل يشدُّ العمودَ بقوّة وأشدُّ معه. وقفنا في الجهة ذاتها، يدُه توازي يدي، كتفُه يلامس رأسي، وكتفي ينغرز في الجهة اليسرى من صدره.

«الله يبارك فيك»، أجبته، وكنت أقاوم الجاذبية التي كانت هي الأخرى تشد جسدينا الملطَّخين بالوحل إلى الأرض. كنا سنسقط معًا، وستسقط الخيمة فوقنا، وسيكون هذا كافيًا لاستكمال حديثنا قبل أن يتصدَّى الآخرون لمهمة إنقاذنا.

ازدادتْ نظراته المصوَّبة إلى أعلى العمود حِدَّةً. لمحتُ شامة أسفل عنقه، لم أرها قبل ذلك اليوم، كانت لحيته تغطيها، بقعة سوداء لكنها شدَّتني إليها، الليل والعباءات والرايات السوداء مقابلَ شامة بحجم حبة العدس، الخوف مقابل الأمان، القبح والجمال، الكراهية والحب، أربكتني وأنا أتخيَّل نفسي ألتهمها.

«سأناديهم»، قلتُ وأنا أبتعد قليلًا عنه.

«لا داعي»، قال وراح يشدُّ أكثر، تصلَّبتْ ملامُحه ونفرت عروق وجهِه وعنقه يحاول رفع العمود مرة ثانية. لم أنتظرْ أكثر، خرجتُ من الخيمة ودخَل رجال آخرون..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش السادس عشر

توقَّف الرصاص، وتوقَّف المطر.

وضعتُ يدي أمام عيني أتقي أشعة الشمس التي راحت تتسلق الشرق ببطء لتسبيح كل مساحة معتمة تطالها. كان الرذاذ ينهمر خفيفًا من غيومٍ رمادية متفرقة تزحف نحو الغرب لتلتحق بالعاصفة وقد أكملتْ طريقها نحو زُورٍ آخر وخيامٍ أخرى.

بصعوبة قطعتُ بضع خطوات بعد أن غاصت قدمي في الوحل، ووقفت بجوار آسيا التي تحجَّرت ملامحها تنظر مثل الجميع نحو القرية. كان الدخان يتصاعد من مواضع مختلفة وقد تهدَّمت بعض البيوت والجدران المطلَّة على كتف الوادي.

أزحت نظري إلى المخيم أتأمل الدمار الذي خلَّفته العاصفة فيه. انهارت بعض الخيام وتمزَّق بعضها الآخر، وتناثرت الثياب والأغطية والأواني في كل مكان، وتوزَّعت الأغنام في كل اتجاه خارج الحظيرة التي انهارت، بينما انسلت عصافير الدوري من أشجار التوت، وراحت تطير في السماء قبل أن تحطَّ على الأرض، وتقفز بين برك الماء الصغيرة التي اتصلت فيما بينها على مد النظر إلى أسفل الوادي الفاصل بين القرية والزور حيث تشكَّلت بحيرة كبيرة هناك. كانت الكلاب تسير وراء بعضها على مهل عند أطراف تلك البحيرة، رأيتها تنفض الماء عن أجسادها قبل أن تتوقف بعد ذلك في مكانها تراقب مثل الجميع ما يحدث. بعض أهل القرية كان واقفًا في مكانه لا يتحرَّك، وبعضهم الآخر جلس فوق السحارات وعلب التنك الفارغة برفقة أطفاله الذين ارتدوا معاطفهم البالية وتدثروا بما بقي صالحًا من الأغطية وأكياس النايلون.

أُنزلت رايةُ التنظيم وسط وابل من الرصاص الذي أطلقته تلك القوات ابتهاجًا بالنصر، ولم نكن نرى أيَّ شيء من موقعنا. ومقابل ذلك الصخب كان الجميع في المخيم قد توقَّف عن الحديث، ورانَ الصمت فوق الأجساد المنهكة والوجوه الشاحبة، لا شيء سوى تنهدات قصيرة ونظرات تعلَّقت برأس السارية وقد خلا من أية راية.

أحسستُ بالهواء ينسحب ثقيلًا إلى صدري، وشعرت بقشعريرة تصيب مسام جسدي عندما هبَّت نسمة باردة، وسالت بعض قطرات الماء من شعري على جبيني وأنا أرى تلك الراية تسقط أخيرًا، الراية التي كانت أوَّل ما رأيته وأنا أدخل هذه القرية وظلَّت طوال إقامتي فيها أوَّل ما أراه كلما صعدتُ لأنشر الغسيل على السطح، أنظر نحوها بنظرات خاطفة كلَّما علَّقت قطعة من

الثياب على الحبل. كنت أتخيلها تزحف نحوي، تتسلّق الهواء لتصل إليَّ، تدثّرني بسوادها، وكثيرًا ما تخيَّلت نفسي جاثية تحتها مكبَّلة اليدين، ورجل يتمتم بآيات قرآنية فوق رأسي بينما سبابته تضغط على الزناد.

«خلصنا»، تمتمت امرأة كانت تقف إلى جوارنا، ثم قالت بصوت شجيٍّ:

«گلبي مثل مزن الرعيد/ع الْمَيْتْ والحيّ الْبعيد».

انتبهت المرأة إلى أنني كنت أنظر نحوها فابتسمتُ في وجهها، لكنّها لم تبتسم واكتفت بهزّ رأسها، ثم أدرنا رؤوسنا جميعًا نحو امرأة أطلقتْ زغرودة قصيرة سرعان ما نهرها زوجُها في الوقت الذي بدأتْ تظهر فيه راية أخرى راحت تتسلق السارية ببطء.

راح رأسي يرتفع هو الآخر ببطء مثل رؤوس الجميع ننظر إلى الراية التي ارتفعتْ وسْطَ وابل من الرصاص الذي انطلق كثيفًا مرة ثانية. التفَّ قماشُها على السارية قبل أن تنفضها الريح وتفردها في سماء القرية.

أجلتْ نظري إلى الناس من حولي أبحث عن يوسف، رفعتُ عنقي أنظر إلى أبعد مسافة يقف فيها بعض رجال القرية مع الحاج حسين قريبًا من أشجار التوت، لكنني لم أرهُ. كانت بعض أغصان الأشجار قد تكسّرت وانتثرت على الأرض تحتها، رأيت قطعًا من الثياب قد تعلَّقتْ على أغصان الأشجار. ركض أحمد نحو عمه متجاهلًا نداء أمه عليه تحذره من الوقوع في الوحل مرة ثانية. كانت خولة تجلس مع الحاجة زهرة ونساء أخريات لم أعرف منهن سوى حليمة التي جاءت الليلة الماضية قبل أن تبدأ المعركة. كانت حليمة تربت بيدها على امرأة أخرى تبكي على بيتها الذي تهدَّم، وإلى جوارها امرأة أخرى قدَّرت أنها أختها المشلولة وقد أسندت رأسها إلى ركبتها وتكوَّر جسدُها منكمشًا في المساحة المتبقية من بساط مهترئ فُرشَ فوق أكياس السماد. كانت وحدها تحدِّق إلى الفراغ رافعةً رأسها إلى السماء دونما هدف.

انسحبت المرأة التي كانت تقف إلى جوارنا، نادتْ على ابنتها لتساعدها في جمع أمتعتهم المتناثرة، وعلا صوت رجل كان يدعو الأطفال إلى إخراج الخراف من الحقول وإعادتها إلى الحظيرة التي باشر بعضُ الرجال بإصلاحها. نهضتْ حليمة بعد أن وضعتْ تحت رأس أختها وسادة صغيرة وراحت تحثُّ النساء على النهوض لتنظيف وإصلاح ما يمكن إصلاحه، استجبْنَ لطلبها وتحركن في كلّ اتجاه، ولم يبقَ سوى الحاجة زهرة تجلس بجوار المرأة المشلولة وقد لفَّت إسماعيل في حضنها.

بدأ الجميع يستعيد الارتباك الذي يصيب الإنسان وهو يجرِّب إعادة كل شيء إلى سياقه الطبيعي، كان بمقدوري أن أسمع كلمات لم أسمعها منذ فترة

طويلة، شتائم ولعنات وتأفف، ضحكة قصيرة هنا، نداء هناك، وسرعان ما اكتسب المخيم الصخب عندما هدأت البنادق وبدأت خطوط الدخان تتلاشى في القرية.

أكثر ما أثار انتباهي في ذلك الصباح السيجارة الأولى التي دخَّنها الرجل الذي وقف طويلًا إلى جوارنا متجاهلًا الصخب الذي لفَّ الجميع. تلفتُّ حولي لأرى ما إذا كان أحد غيري قد انتبه إليه. كنت أراقب يده وهي تمسك بالولّاعة وتقرِّبها من السيجارة بين شفتيه، وببطء راح ينفث الدخان من أنفه دون أن يزيح نظره عن القرية. ألقى بعقب سيجارته في نقعة ماء أمامه، وأخرج سيجارة ثانية وأعاد الكَرَّة. لم يلتفت لنداء زوجته على مسافة بعيدة تحثُّه على القدوم لمساعدتها، انتبه بعض الرجال إليه، علَّقوا ساخرين على تدخينه علنًا. «وين هالسيگارة أوَّل أمس»؟ سأله أحدهم، «لو إنهم يشوفونك ألّا ايْگُطّون بلاجمك»، علَّق آخر. «يقطّون»، كلمة رهيبة، دوَّرت الكلمة برأسي قبل أن ترتفع أصوات ضحكاتهم ويرتفع معها دخان السجائر التي توزَّعت في أرجاء المخيم، دخَّن الكثير من الرجال والنساء، تشارك أكثر من واحد في سيجارة. سعل أحدُهم قبل أن يُبعد رأسه محاولًا التملُّص من آخر كان يدسُّ عقب السيجارة في فمه. نادى أحدهم على زوجته لتعدَّ له الشاي، «ضربك الكيف»؟ علَّقتْ متجاهلة طلبه وأكملتْ التقاط بعض الثياب من الوحل، ركض نحوها، حاولت أن تهرب منه، غاصت أقدامها في الوحل، لحقها وأمسك بطرف عباءتها، اختلَّ توازنهما ووقعا معًا. ضحك الناس من حولهم وضحكت أنا أيضًا، تذمَّرت المرأة، احتضنها ضاحكًا، «دشِّرني»، تململت ثم وقفتْ وخلعتْ عباءتها، «ما انتَ أحسن مني»، قالت لزوجها قبل أن تلقي العباءة في الوحل وتزغرد امرأة أخرى كانت قد خلعتْ عباءتها والدِّرع الذي ترتديه فوقها ورمتهما أيضًا، عباءات راحت تخلعها النسوة أمامي قبل أن أمسح دمعة سالت من عيني أفكر في أن إحدى هذه العباءات قد أكون أنا من خاطتها بيديها وها هي الآن تُلقى في الوحل. وعلى الرغم من أن نساء الرَّقة كنَّ يرتدين العباءات في لباسهن التقليدي، لكن عباءات التنظيم لم تكن تعني في تلك اللحظة شيئًا، مجرد قماش أسود، قماش زائد!

التفتت آسيا تنظر ببرود إلى الناس الذين راحوا يطلقون ضحكاتهم ولعناتهم في الهواء، ثم عادت تراقب الراية التي راحت ترفرف عاليًا مع اتجاه الريح غربًا، الاتجاه ذاته الذي تتقدم فيه قواتها.

كانت الراية الجديدة صفراء وأكبر من راية التنظيم، تتوسطها بقعة بيضاء قدَّرت بأنها خريطة سوريا من بعيد. هي رسالة واضحة من الحكَّام الجدد، فكرت وأنا أنظر نحوها مرة ثانية. يخرج محتلٌّ جاء محررًا ليدخل آخر، النظام

بصورة أخرى، الثورة بتعريف آخر، وجمل راح عقلي يجمعها من الأحاديث الجانبية التي اختزنتها مما سمعته هنا وهناك.

لم يتّفق الجميع إلَّا على ما حدث، ولكنهم اختلفوا في التأويل كثيرًا. لا أحد يريد بقاء تنظيم الدولة، على الأقل من بقي في هذا المخيم من أهل القرية بعد أن هرب من هرب، سواء أولئك الذين أعلنوا ولاءهم للتنظيم أو الذين تمكنوا من الفرار إلى أماكن أخرى. لكن بعضهم كان متخوفًا من فاتورة إخراجهم على يد قَسَد، أو عودة النظام إليها، هذا ما سمعته بأصوات عالية كانت تتجادل فيما بينها بعد أن أعيدَ التَنظيم الذي حكم طوال تلك الفترة باسم الدولة الإسلامية إلى اسمه الدارج: «داعش»، وصار عناصر الدولة «الدواعش» الذين جاؤوا من كل مكان إلى هذه البلاد، ما كان يقال بحذرٍ في الخفاء صار يتردد على ألسنة الناس في العلن. أمَّا قَسَد فكانت لا تعني شيئًا سوى الأكراد الذين تدعمهم أميركا وشركاؤها لتحقيق حلم كردستان في أكبر مساحة يستطيع الأكراد السيطرة عليها، هذا ما صار يقوله البعض متندرًا وهو ينادي طفله باسم «مستو» أو زوجته باسم «فاتي» بعد أن يصبحوا مواطنين في الدولة الكردية الجديدة، بينما كان البعض الآخر مؤمنًا بأنّهم سيسلمون هذه القرى إلى النظام، ويتحدَّثون بإسهاب عن معارك يخوضها شريكهم المفترض هذا في الجهة الثانية من النهر في منطقة الشامية.

أدرت رأسي نحو الجهة المقابلة للقرية من الزور. كانت حقول الحنطة تمتد على مدِّ النظر، تفصل ما حررته قَسَد، عما بقي تحت حكم داعش من القرى التي تنتظر دورها. في النهاية، كان الجميع يحلم بالنجاة من خاتمة مذلّة لأناسٍ عزَّل وسط هذه المعركة. أخذت نفسًا عميقًا وهززت رأسي كمن يحاولُ أن يقنع نفسه بما توصَّل إليه.

كانت آسيا قد جمعت أطراف ثوبها بيدها وراحت تعصره، نفضته في الهواء ثم ضربت كتفي برفقٍ، «فوتي خلينا نبدل تيابنا»، قالت لي واستدارت عائدة إلى الخيمة.

أدرت رأسي أنظر إليها قبل أن يجيئني صوتها:

«يلّا أحسن ما تمرضي».

دخلتُ وراءَها وأسدلتُ بابها القماشي المبلل بصعوبة. كانت هنالك بركة ماء قد تشكّلت وسط الخيمة، ونفذت أشعة الشمس من خلال الشقوق في رواقها.

«ظلّي واقفة عند الباب»، طلبت مني وبدأت تخلع ثيابها المبللة.

ألقت بشالها وثوبها وكنزة صوفية كانت ترتديها تحته على الأرض. شلحت بنطلون بيجامتها وألقته أيضًا. تأففت من الوحل الذي لطَّخ ثيابها وتسرَّب إلى جلدها، حاولت فكَّ حمالة صدرها لكنها لم تستطع.

«ساعديني»، قالت وهي تتقدم نحوي، أدارتْ ظهرَها لي، ساعدتها ثم التفتتْ إليَّ واندلق ثدياها أمامي، رفعتهما بساعدها، وبيدها الأخرى خلعت سروالها الداخلي وألقته.

«وين كيسي»؟

سألتْ وكأنها تحدِّث نفسها، لم أجبها. أبعدتُ عيني ورحت أتلفَّت حولي وأنظر إلى الشقوق لأتأكد من أن أحدًا لا يتلصص علينا، وأخطف نظرات إلى جسدها الذي انتصب أمامي عاريًا ومكتملًا في عُريه، رأيتها امرأةً مرسومة بعناية، جسدها يشي بعمرها، أرداف مكتنزة بلا ندوب السلوليت التي ترتسم على ردفي، وصدر أكثر امتلاء من صدري، يتكوَّر حول حلمتين بنيَّتين منتصبتين، وامتلاء خفيف أعلى بطنها ينحدر نحو عانتها التي نبتت فيها شعيرات قصيرة. كان لون جسدها أفتح من لون وجهها، حنطيًّا مائلًا إلى الحمرة قليلًا. آسيا جميلة جدًّا لو أنها عاشت حياة مترفة لغطَّت على الكثيرات ممن امتلكن فرصة أفضل في هذه الحياة. حدَّثت نفسي وأنا أراها تنتشل كيسها من كومة الأغطية والأكياس التي نضَّدناها وقت العاصفة. تناولتْ ثوبًا وراحت تنشِّف شعرها به. نظرت نحوي وهي تمرره على عنقها قبل أن تنزل به إلى ساقيها وينحدر ثدياها مرة ثانية إلى الأرض.

«بحياتك ما شفتي مرا بلا تياب»؟ سألتني.

«لا، أقصد..»، تلعثمت وأنا أزيح نظري بعيدًا عنها.

ارتدتْ ثيابها وجمعت الثياب المبللة في كيس.

«بدلي ثيابك بسرعة»، قالت وهي تجرب أحد الأحذية المكوَّمة في الخيمة. تناولتُ حقيبتي وأخرجت ثيابًا نظيفة منها. خلعت ثيابي بسرعة متحاشية نظراتها التي راحت تتفحَّصني، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أقف فيها عارية أمام امرأة أخرى. لكنني ارتبكت وأنا أراها تربط شعرها وتلفُّه بشال آخر من دون أن تبعدَ نظرها عني تتفحصني. ارتديتُ بيجاما نظيفة وعباءة فوقها.

«ناطرتك برا»، قالت وهي تزيح الباب بيدها تريد الخروج. لكنها عادت والتفتت نحوي تسألني:

«آه صحيح، ما باسك»؟

«لا»، أجبتها مستنكرة.

«كذَّابة».

ضحكتْ ساخرة وأسدلت باب الخيمة وراءها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش السابع عشر

نشرنا ثيابنا على طرف قناة الرَّي المحمولة بعد أن ثبَّتنا أطرافها بالحجارة. بدت أشبه برايات ملوَّنة هي الأخرى ترفرف فوق أخضر الحنطة اللامتناهي.

كان المخيم يعج بالحركة، رجال ونساء يتحدثون وآخرون يكملون عملهم في ترتيب وتصليح ما أمكن إصلاحه، أصوات تنبعث من كل مكانٍ، نداءات ومطارق تنهال على أوتاد لتثبِّت خيمة لم تسقط، أو لترفع خيامًا منهارة، ثياب ملوَّنة عُلِّقت على حبالٍ امتدت بين جذوع الأشجار الثلاث وأخرى على حبال مربوطة على ما بقي واقفًا من الخيام، وأطفال يتراكضون غير آبهين بالوحل الذي لا يمكن لشمس يومٍ واحد أن تجففه.

رأيت يوسف يساعد بعض الشباب في إصلاح الخيام وتثبيتها من جديد، تقاطعت نظراتُنا أكثر من مرة دون أن نتحدث، مجرد ابتسامات سريعة قبل أن يعود كل واحد منا إلى عمله، ودون أن يفارقني الارتباكُ اللذيذ منذ قبلتنا في الصباح، أعيد اجترارها مرة بعد مرة، وتغمرني سعادة اجتمعت أسبابها كاملة في قلبي. أنهينا مساعدة خولة بالغسيل والترتيب، ثم جلسنا نشرب الشاي تحت سماء زرقاء صافية، تغمرنا الشمس بدفئها قبل أن نسحب بساطنا إلى ظل الساقية.

أسندتُ رأسي إلى يدي أنظر إلى آسيا تدندن إحدى أغانيها العراقية وتسحب المشط على طول شعرها الذي لامستْ أطرافه مؤخرتها. ابتسمت وأنا أراها أمامي تعود كما كانت، تغني وتدخن منشغلةً بنفسها وقد أشرق وجهها وانبسطت أساريره.

«لماذا تبتسمين»؟ سألتني دون أن تتوقف عن تمشيط شعرها.

«لا شيء مهم، أريد فقط أن أشكرك على ما فعلته من أجلي».

«تقصدين نومك طوال الليل على فخذي»؟

ضحكتُ محرجةً لتعليقها، قلت:

«لا أعرف ما كان سيحلُّ بي لولا وجودك معي هنا».

«ولاشي، بعدين بسلامة يوسف»، علَّقتْ غامزةً.

«يوسف مجرد صديق».

التفتتْ تنظر إليَّ مستهجنةً كلمة صديق، أكملت:

«أعني هو الشخص الوحيد الذي كان يطمئن علينا».

«يحبك»؟ سألتني ثم أكملتْ:

«هذا واضح، عيونه قالت هذا في الصباح، وعيونك أيضًا».

«لا، كل ما في الأمر أنني..».

قاطعتني:

«إنك مرا متجوزة، بعرف شو رح تقولي، حكي فاضي».

«فاضي؟! سألتها مستنكرةً، لكنها لم تجبني، عادت تدندن أغنيتها السابقة، ولم أكن راغبة بمجادلتها. أنهتْ تمشيط شعرِها وراحت تلمُّ ما تساقط منه على ثوبها، تلتقطه بأصابعها وتكوِّره بين يديها، ثم التقطتْ عودًا صغيرًا نبشتْ به الأرض إلى جوارها ووضعتْ كبكوبة شعرها فيها وأعادت ردمها.

«أحسن ما يبول عليه الشيطان»، قالت ثم ضحكتْ من استهجاني.

«شَعر المرأة لا يجب أن يلقى في أي مكان، ندفنه أو نحرقه، أمي كانت تقول إن الشيطان يبول عليه فتصبحين غير محصنة من الحسد والسحر، وأنتِ»؟ سألتني.

«ألقيه في الزبالة».

«أحسن شي، والله كله خرافات».

«إذا كنت ترينها خرافات فلماذا تفعلينها»؟

«تعوَّدت، صار الطبيعي أن أمشِّط شعري وأدفنه بعد ذلك، ولكن حتى الخرافات قد يكون فيها شيء من الصحة، إلَّا شعري، الشعر نصف جمال المرأة، هل تعرفين ما نصفه الثاني»؟

«لا»، أجبتها في الوقت الذي أشارتْ فيه إلى فرجها. ضحكتْ بصوت عالٍ من ردَّة فعلي عندما عبستُ مستهجنة بذاءتها، ثم أكملت:

«أمزح، ولكن على سيرة الخرافات دعيني أخبرْكِ بما فعلته بشعري».

صبّتْ لنفسها كأس شاي، ثم قالت:

«قبل سنوات طويلة، أيام ما كنت أعمل في القطاف، صارت كل واحدة منا تصنع وسادة صغيرة من شعرها لزوجها أو حبيبها، وأنا فعلت هذا أيضًا لزوجي الثاني، كنت كلما انتهيت من تمشيط شعري وضعت كبكوبة الشعر في وسادة صغيرة. أحببته، وتزوجنا، وأنا أدسُّ كبكوبة وراء أخرى، أكثر من ثلاث سنوات وأنا أصنعها».

صمتت بعد ذلك وواصلت جَدْل شعرها. انتظرتها لتكمل حديثها لكنها ظلت صامتة. سألتها مستفسرةً عما حدث بعد ذلك.

«لا شيء، ألقيتها في الحظيرة في حوش جيراننا، تركتها مبَوْلة للشيطان وللأغنام معه».

قالت جملتها الأخيرة بنبرة ساخرة قبل أن تطرقَ برأسها إلى الأرض دون أن تتوقف عن ضفر جديلتها.

«هل كنت تحبينه»؟ سألتها.

«أحببته كثيرًا، لكن، كما أخبرتكِ مات في قلبي قبل أن يموت في الحادث».

تنهَّدتْ ثم أكملت: «هذا كان منذ زمنٍ بعيد، السنوات التي مرت كانت كفيلة بنسيانه، الله يرحمه».

«هل سامحته على خيانته لكِ»؟ سألتها.

«سامحته لأنه مات، لكن خيانته ظلت غصة في قلبي».

ألقتْ جديلتها على ظهرها، ثم أخرجتْ سيجارةَ وأشعلتها وأرختْ ساقيها أمامها تنظر معي إلى المخيَّم صامتة.

كان بعض الرجال يعملون على إصلاح خيمتنا، سحبوا الماء من أرضيتها وردموها بالتراب والحصى، ثم دثروها بأكياس السِّماد التي خاطتها خولة ونساء القرية على هيئة غطاء. قالتْ وكأنها تحاول استعادة ما حدث معها:

«كان غائبًا لثلاثة أيام بحجة سفره إلى دمشق مع أحد زبائنه الذين اعتاد مرافقتهم خارج الرَّقة، وعندما عاد في المساء لم أواجهه بالحقيقة، ولم نتشاجر، نمت معه».

«لماذا»؟ سألتها مستغربة.

«كنت أريد أن أفهم السبب الذي يدفعه إلى خيانتي مع امرأة أخرى، أردت أن أعرف إذا كان قد فعل هذا لمجرد اللعب أم أنه ببساطة لم يعد يحبني؛ هذا أمر لا يمكن اكتشافه إلا في الفراش».

«وماذا اكتشفتِ»؟

أخذتْ نفسًا عميقًا ثم زفرته ببطء. قالت بعد أن أشعلتْ سيجارة أخرى:

«اكتشفتْ أنه لم يعد يحبني».

«كيف»؟

«مثل هذه الأمور لا تُشرح، يكفي أن تُحسّ المرأة بها».

«هل كنت غاضبة منه أم حزينة، أعني بعد أن..».

«تقصدين بعد أن مات»؟ سألتني بعد أن لاحظت ترددي.

هززتُ رأسي مؤكدة. رفعتْ رأسها وأجالت نظرها في حقول الحنطة أمامها وقتًا، ثم قالت:

«غضبتُ منه، وحزنتُ عليه وعلى نفسي، أيهما الأكثر»؟!

«الحزن»، أجبتها.

رفعت حاجبها الأيمن وأومأت برأسها توافقني على إجابتي، ثم صمتنا ننظر معًا إلى الخيمة. كان الرجال قد انتهوا من إصلاحها.

«ألم تحبي بعده»؟! سألتها.

«حاولت، لكن الحياة لا تكون كريمة معنا دومًا، لم يعد مهمًّا أن أعثر على رجل أحبه، صار همي أن أجدَ رجلًا يقدّرني».

لم أعلق، كنت أراقبها وهي تلمُّ ما بقي من شعر متساقط على ثوبها، ثم دفنته في حفرة ثانية وألقت العود بعيدًا عن مجلسنا.

«وأبو كريم، ألم تصنعي وسادة له من شعركِ»؟ سألتها ممازحة بقصد تبديد الضيق الذي قادنا الحديثُ إليه.

«بلى، صنعت له وسادة من سراويلي القديمة».

ضحكنا معًا إلى درجة أن الدموع راحت تطفر من عينينا. عادت تغني أغنيتها السابقة بعد أن لفَّت جديلتها على مؤخرة رأسها، مسحتْ وجهها براحتي يديها.

«عندك مرايه»؟ سألتني.

أجبتها بالنفي وتذكَّرت أنها كسرت مرآتها ليلة نزوحنا وهي تحاول مساعدتي. أخرجتْ علبة دهانٍ صغيرة ودهنت يديها ووجهها به قبل أن تمدَّه إليَّ، أخذت قليلًا منه وفعلتُ مثلها.

«لماذا تزوَّجت بأبي كريم»؟ سألتها.

«من قلة الخيل، بعدين شو قصتك اليوم نازلة تحقيق وأسئلة»؟!

«أبدًا آسفة، كنت حابَّة أعرفك أكثر»، أجبتها مرتبكة من نبرتها الحادة.

«ليش؟ لا يكون عندكِ عريس زيادةٍ»؟

أحسستُ بالحرج فلم أعرف بماذا أجيبها، لكنها وضعت يدها على كتفي لحظة وكأنها أحست بضيقي من أسلوبها.

«ما سمعتي بالحب من أول نظرة، هيك لما شفته غِمي ع قلبي وحبيته».

سحبتْ يدها وفتحتْ كيسها تفتش فيه، أخرجتْ علبة مناكير أحمر، رجَّتها بين أصابعها ثم فتحتها وشمَّتها قبل أن تعيد إغلاقها.

قلت:

«لا أخفيكِ، تساءلتُ كثيرًا عن السبب الذي يدفع امرأة مثلك للزواج بأبي كريم، أنتِ جميلة وصغيرة، لا أدري».

أجالت نظرها في المخيم وقتًا ثم قالت:

«ما كان عندي خيار، أبي وأمي ماتوا وشبعوا موت، بيتنا تدمَّر، أخي لا أعرف طريقًا له ولا أريد أن أعرف، أخي الثاني مات، أخواتي كلهنَّ خارج الرَّقة. كنت في بيت خالي، بلا إخوة ولا مال، فقيرة ومن يستضيفني أفقر مني».

هززتُ رأسي دون أن أعلِّق على كلامها. أكملتْ:

«كنت برفقة خالي في السوق، ذهبنا لنستريح قليلًا في دكَّان أحد معارفه. كان أبو كريم هناك يتفحَّص القماش الأسود ويتحدَّث مع البائع. سلَّم عليه خالي بحرارة، فهمتُ أنهما يعرفان بعضهما. تركته يتحدَّث مع خالي والبائع وجلستُ على طرف مصطبة في مدخل الدكان ألتقط أنفاسي، رأيته يخرج بعد ذلك برفقة خالي، تحدَّثا قليلًا، ثم ناداني خالي وخرجنا. عرفتُ في طريق العودة أنه يطلبني للزواج، أخبرني خالي أنه رجل وحيد وأن زوجته ماتت قبل فترة قصيرة».

تناولتْ كأسَ الشاي، رشفتْ منه رشفة سريعة وأكملتْ بعدها:

«لم يكن لرفضي أي معنى، في اليوم التالي كنت قد أصبحتُ زوجته».

«ألم يخبركِ بوجودي»؟

«بلى، عندما ركبنا الحافلة باتجاه القرية، أخبرني بأنك زوجة ابنه المفقود منذ سنوات».

«غريب، لماذا يخبرك بأنني زوجة ابنه بخلاف ما أخبر به أهل القرية، لماذا يفشي لك سرًّا كهذا»؟

«لأنه يعرف جيدًا أنني لن أخبر أحدًا، ما الفرق إذا كنت ابنته أو زوجة ابنه أو زوجته هو أيضًا؟ لا فرق، كل هذه الخيارات أفضل من البقاء في بيت خالي،

أيّ رجل مكانه يعرف هذا جيدًا».

أجابتني وصمتت وقتًا رحت أفكر فيه بما فعله أبو كريم، وأستعيد كلماته عندما جاء بآسيا أول مرة. رفعتْ صوتها بعد ذلك وقالت:

«في النهاية، كان عليَّ أن أختار أحسن المتاح وإلا كنت سأتزوج أحد رجال التنظيم».

«هل عُرض عليك الزواج بأحدهم»؟ سألتها.

«كان متوقعًا، نساؤهم تطوف في الشوارع والأزقّة تبحث عن نساء للزواج، لا أدري كم كنت سأصمد».

«لماذا لم تتزوجي أحد رجال التنظيم»؟

«كلب عن كلب يفرق»!

أجابتني مستهجنة، ثمّ أعادت علبة المانكير والمشط إلى الكيس وربطته.

«ولكن أبو كريم تركك في عزِّ حاجتك إليه».

«صحيح، ولكنْ في النهاية انتهتْ حاجتي إليه اليوم».

أدارتْ رأسها إلى القرية وأشارتْ بعينيها إلى الراية، ثم التفتتْ نحوي وقالت:

«عندما تأكلين لقمة وأنت ترين العيون مصوَّبة نحو حجم اللقمة التي تأكلينها فماذا ستختارين؟ عندما تبحثين في بقايا الصحون عن لقمة زائدة آخر الليل لتسكتي جوعكِ ولا تجدينها فماذا ستختارين؟ عندما لا تجدين ثوبًا دافئًا ترتدينه، حذاء ممزقًا، حمَّالة صدرٍ لا تتسع لنصف صدركِ، تخيطينها أكثر من مرة لكثرة ما تمزَّقت، خرقًا بالية تطوينها وتثبتينها في سروالك الداخلي لتمتص دم دورتك الشهرية، فماذا ستختارين»؟

سألتني قبل أن تلقي بسيجارتها في نقعة ماء قريبة منا. صمتُّ أراقب العقب وهو يتحرك طافيًا على سطح الماء. قالت وهي تلفُّ الشال على رأسها:

«الفقراء وحدهم الذين يدفعون ضريبة كل هذه المهزلة، هل سمعت بإنسان غني اضطُر إلى عيش هذه الحرب؟ لو كان لديك المال أنت أيضًا، هل كنت ستعيشين تحت رحمة أبي كريم تنتظرين ابنه الذي..».

تركتْ سؤالها ناقصًا ولم أعلِّق بدوري. قالت بعد أن استغفرت ربَّها:

«أخوك أبوك جيبك، هذا الشيء الوحيد الصحيح الذي أخذته من أمي، لا زوج ينفع، ولا أخ يسند، أين إخوتي الآن»؟!

أخفضت رأسها تفكّر وتدوِّر كأس الشاي بين أصابعها. أخذني صمتها إلى أهلي وإخوتي الذين تبرَّؤوا مني وصرت ميتة في نظرهم كما قالت سمر ليوسف عندما راسلتها من هاتفه، «إنتي ميتة بنظر الكل، لا تفتحي أبواب ما صدقنا سكرناها»، جملتها التي لا يمكن لي أن أنساها ما حييت. كان ذلك عندما عرض يوسف عليَّ مساعدته بعد زواج أبي كريم بآسيا، أعطيته رقم هاتف سمر وطلبتُ منه التواصل معها، لكنّ ردها ألقى بي بعيدًا وجعلني أنكسر أكثر وأغلق الباب على نفسي بانتظار وعود أبي كريم التي لا تتحقق.

«ما الذي يدفع امرأة تتعرض للإهانة يوميًّا إلى الإنجاب»؟ سألتني ثم أكملتْ وقد لاحظتْ عجزي عن فهم ما تريد إيصاله:

«أمي أنجبت ثمانية، عاش منهم خمسة على الرغم من الفقر والضرب والشتائم، هل يمكنك أن تفسري هذا أستاذة نسرين؟ ما الذي يدفع امرأة تتلقى كلَّ هذه الإهانات يوميًّا إلى الإنجاب»؟

«ربما هو تعويض عاطفي، بعبارة أبسط، امرأة مثل أمك تحتاج إلى أكثر من ولد لتشعر بالأمان والحب اللذين حُرِمت منهما، يمكنك أن تنظري حولك إلى النسوة في المخيم، وفي مثل هذه الظروف، بعضهن أطفالهن لم يتجاوز السنة، خولة مثلًا».

هزَّت رأسها ومطت شفتيها تفكر في كلامي. قالت بعد ذلك:

«تعرفي؟ لا تعويض ولا غيره، قلَّة حيا ماله اسم ثاني».

ضحكت لتعليقها الساخر قبل أن نسمع صوت أحدهم ينادي على يوسف. كان يوسف ما يزال واقفًا عند خيمتنا، ثم رأيته يحمل على كتفه حزمةً من الحبال قبل أن يمضي صوب الرجل الذي ناداه.

«ابن حلال هالولد»، قالت آسيا وكانت تعني يوسف.

«صحيح»، تمتمتُ مؤكّدة وفي رأسي أصوات تتعالى وأقمعها. رحت أنظر إليه وأفكِّر في حقيقة مشاعري تجاهه. وشعرت بغصَّة لمجرد التفكير في أنني تلاعبت به عن غير قصد. كان نبيلًا معي، حتى بعد أن سددتُ الباب، لم يُلح عليَّ، بلْ استوعب شتاتي وعرض عليَّ المساعدة على الهرب لو شئت، لكنني لم أشأ أن أعرِّضه وأعرِّض نفسي للخطر.

«زعلتِ مني»؟ سألتني بعد أن طال صمتي.

«لا»، أجبتها وابتسمت.

«معناته إذا بتشوفي حبيب القلب وصِّيه ع دخان، وإلا رح نضطر ندخَّن بعر الغنم».

«تكرم عينك»، علّقت.

مدَّتْ قدميها واضطجعتْ مسندة رأسها إلى الوسادة، ثم قالت:

«المهم بس يجهز الأكل ناديني».

«حاضر آسيا خانم»، أجبتها بلطف ونهضتُ أحمل الصينية لأعود إلى الخيمة. ارتسمتْ ابتسامة على شفتيها قبل أن تغطي وجهها بشالها تتقي أشعة الشمس التي نامت تحتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الثامن عشر

«أمي تناديكِ».

قال لي أحمد وأشار إلى مجموعة من النساء كنَّ قد جلسنَ بالقرب من الأشجار، ثم ركض عائدًا إلى صغارٍ كانوا يلعبون بالقرب من الحظيرة. رأيتُ خولة تلوِّح لي بيدها، وضعتُ صينيَة الشاي عند باب الخيمة، عدَّلتُ شالي وعباءتي ومضيتُ إليهن.

مشيتُ بصعوبة بين الخيام بحذائي الذي ثقُلَ لكثرة ما علِق به من الوحل، رحت أقفز بحذرٍ متحاشية برك الماء الصغيرة التي تجمَّعت وسط المخيم. كان هنالك مجموعات صغيرة من رجال ونساء يجلسون خارج خيمهم، ويتحدثون بأصوات عالية فيما بينهم، لكنهم كانوا يصمتون كلما عبرت أمام مجموعة منهم، يتهامسون ويتردد على مسمعي اسم أبي كريم، بعضهم كان يهمس مستهزئًا به، وبعضهم الآخر كان يتأسَّف على حالتي أنا وآسيا، «تركَ امرأتَه وابنتَه وراءه وهرب»، «ليست ابنتَه بل زوجة ابنه»، «ربما اعتقلوه»، «الله يجيرنا»، «مسكينة»، «حضريَّة»، «غريبة»، وكلمات أخرى لم أفهمها أربكتني قبل أن ينبِّهني صوت خولة تنادي ابنتها التي ركضتْ نحوي فاردةً يديها، حملتها وأكملت طريقي.

أحسست بالدم يندفع حارًّا إلى رأسي وقطرات من العرق تنزُّ على جبيني عندما وصلت إليهن. ألقيت التحيّة وأنزلت نجاح من يدي، نهرتها أمها لأنها لطَّخت عباءتي بوحل حذائها، لكن الفتاة ظلت تنقِّل نظرها بيني وبين أمها ثم ركضت إلى الأطفال عند الحظيرة.

كن قد افترشنَ حصائر وبسط صوف فوق أكياس السِّماد. دعتني حليمة إلى الجلوس إلى جوارها بعد أن أفسحتْ لي النسوة مكانًا بالقرب منها. ارتسمتْ على شفتيَّ ابتسامة أخفيتُ خلفها ارتباكي من نظراتهن التي راحت تتفحَّصني وهن صامتات، ثم ترددت على شفاه بعضهن تحية هزيلة ألقينها دون أن يتوقفن عن النظر إليَّ. رحت أهزُّ رأسي وأتمتم بتحية أردها على كل واحدة منهن، ثم أدرت رأسي نحو أخت حليمة. كانت نائمة على فراش قريب من مجلسنا.

كنَّ ثماني نساء، بَدَون للوهلة الأولى نسخًا مكررة بثيابهن السوداء وأثدائهن الكبيرة، وقد ارتدين ثيابًا متشابهة بألوانها الداكنة، وعصَبن رؤوسهن بملافع سوداء وكوفيات. وحدها خولة كانت الأصغر سنًّا، وكانت ترتدي ثوبًا بنيًّا من المخمل وقد لفَّت شعرها بشال زيتي غامق، ووضعتْ طفلها بين ساقيها اللتين أرختهما أمامها ودثَّرته بحرام صوفي.

لملمتُ العباءة وغطيت بها ما ظهر من بيجامتي مرتبكة من نظراتهن المصوبة نحوي. سألتني خولة عن آسيا، أخبرتها بأنها نامت، ثم راحت تشرح للنسوة ما فعلناه لنمنع الخيمة من السقوط. قاطعتها إحداهن تسألني عن سبب وجودنا هنا ولم يتركن لي مجالًا لأجيب عن سؤالها، وشرعن يمطرنني بأسئلة كثيرة رحت أجيب عنها الواحد تلو الآخر وكأنني أكمل قفزي بين بِرَك الماء، وفي رأسي تتردد وصايا آسيا لي بألا أتدخَّل فيما لا يعنيني، وألا أجيب بأكثر مما يحتمله السؤال، «غريبات ما إلنا دخل بشي»، «لا تتدخلي لو شو ما صار»، «الكلمة اللي ما بتلزمك اعلكيها وكبِّيها». كنَّ يصمتن ويراقبن وجهي كلما تحدثت، ثم إذا صمت انشغلن عني بسرد ما حدث لبعض أهل القرية ممن اعتقلهم التنظيم أو النظام، ومن خرج بعد اعتقاله ومن غاب مثل زوجي ولا أحد يعرف طريقه. لم يكنَّ حذرات في كلامهن كما كنت أنا عليه في إجاباتي، لذلك أطرقت برأسي أدوِّر أصابعي على كأس الشاي أمامي وأرفعه إلى وجوههن كلما ارتفع صوت واحدة تسرد قصةً مؤلمة من القصص التي عاشها الجميع خلال أكثرِ من ثلاث سنوات وأعلِّق بالكلمات ذاتها: «الله يجيرنا»، «خلصنا»، «الحمد لله».

«إلى أين ستذهبان»؟

سألتني إحداهن قاطعةً حديث النسوة الأخريات.

«لا أعرف، ربما سنذهب إلى تركيا».

«أين أهلكِ»؟ سألتني أخرى.

«في حمص».

«ولماذا لا ترجعين إليهم»؟!

«أهلي ما كانوا راضيين عن زواجي بسبب الشي اللي صار بالبلد».

كانت كلمة «الشي» اختصارًا مقبولًا لما حدث من دون الوقوع في فخ التعريف، ثورة أو أزمة أو حرب. كل كلمة من هذه الكلمات كانت ستضعني في خانة لا أريد لي أن أكون بها مع هؤلاء النسوة.

«مسلمة»؟ سألتني إحداهن.

هززت رأسي مجيبة بالإثبات.

«ولماذا لم يوافقوا على زواجك»؟ عادت وسألتني هي ذاتها.

«من غير طائفة»، وكانت إجابتي بابًا لجولة ثانية من أسئلتهن.

«يعني خطفتِ»؟ سألتني أخرى وكانت تجلس ملاصقةً فخذها بفخذي.

لم أجب عن سؤالها وأطرقتُ برأسي مرة ثانية أهشُّ الذباب الذي تجمَّع فوق كأس الشاي أمامي.

«من أين امتلكتِ هذه الجرأة»؟ سألتني حليمة.

«إنهم ليسوا مثلنا، المرأة التي تقوم بهذا الفعل هنا تقتل فورًا»، ردَّتْ إحداهن مجيبة عن سؤال حليمة.

«من الظلم».

التفتنَ جميعًا ينظرنَ نحوي، حتى الحاجة زهرة رفعتْ نظرها عن حبَّات مسبحتها إليّ.

«الظلم يجعلنا نفعل أكثر من هذا».

أجبتهنَّ وأطرقتُ برأسي إلى الأرض، وارتفع صوت أخت حليمة تهمهم بكلمات غير مفهومة وكان هذا مخرجًا مناسبًا للخلاص من أسئلتهنَّ.

نهضتْ حليمة إلى أختها وراحت تحدِّثها أمام النسوة اللواتي جلسن يستمعن إليها وهي تمسح وجهها، ثم عدَّلت الوسادة ورفعت جذعها لتجلسها، وراحت تحدِّثها عن عودة قريبة لزوجها وأولادها إلى القرية، ذكرتهم لها بأسمائهم قبل أن تقطع حديثها إحداهن ساخرةً من كلامها عن عودة قريبة لزوجها بعد أن طابت له الحياة في لبنان، وأنه ربما سيتزوج بامرأة أخرى، «صار أستاذ، يلبس بنطرون وقميص شفتْ صورته بموبايل ابني»، علَّقت إحداهن، «باچر يتجوز له وحده شگرا عيونها خضر مثل هالبنية». ردَّتْ أخرى. ابتسمتُ لتعليقاتهن الساخرة، «الله يهنيه»، ردت حليمة وانشغلت بأختها التي بدت وكأنها في عالمٍ آخر لا يمكن لأحد أن يدخله سوى حليمة، وحدها تفهم عليها وتشير لها بأصابعها وهي تتكلم بصوت عالٍ. لم أكن أعرف وقتها إذا كانت تسمع ما تقوله، ولكنني عرفت هذا لاحقًا منها، قالت إن أختها صمَّاء بكماء بالإضافة إلى كونها مشلولة، لا تحرِّك ساقيها منذ أن سقطتْ من سطح الدار عندما كانت في التاسعة عشرة من عمرها، حدث ذلك قبل أكثر من عشرين سنة، كانت عروسًا وقتها عندما علِق ثوبها بسيخ حديد كان بارزًا عند طرف السُّلم فسقطت وحدث لها ما حدث، تركها زوجها، وبعد موت أمها تولَّت هي رعايتها، وأنها منذ أكثر من خمس عشرة سنة تسكن معها في بيت زوجها. كانت أخت حليمة تُدعى نجمة، وكانت تشبهها إلى حدٍّ كبيرٍ، الملامح ذاتها، ووشم النجمة الذي يتوسَّط جبينها بين حاجبيها، لولا أنها تبدو أكثر شحوبًا ونحولًا من حليمة.

«گَعَد الألماني»، قالت إحدى النسوة مخاطبة خولة.

فتح الطفلُ عينه ينظر إلى النسوة حوله بفضول محرِّكًا رأسه في كل اتجاه. رفعته خولة عن ساقيها وأوقفته فوقهما لحظاتٍ تغني له:

«ماني يا يُمّه ماني، تايه والظّو اِهداني

شِفتْ الماني يگودونُه، مَدْري الصُّوبْ يودُّونُه

يُمّه يا زين عيونُه، عيونَ الخشفَ العطشانِ».

حفظتُها لكثرة ما كانت تتكرَّر هذه الأهزوجةُ على شفتي خولة كلما التفتتْ إلى صغيرها وكانت في مزاج رائق، ثم عادت ووضعته في حضنها وألقمته ثديها. سألتها إحدى النسوة إن كانت ستذهب إلى ألمانيا، أخبرتها خولة بأنها تنتظر أن يُفتحَ الطريق لتسافر إلى لبنان من أجل مقابلة السفارة.

«يگولون باردة حيل».

عقَّبت إحداهن قبل أن تكمل: «ابني يحلف ألا يرجع بس تخلص هالسالفة».

راحت النسوة يتحدَّثن عن ألمانيا ويذكرن أسماء مدن فيها لا أعرفها. تحدَّثن عن التهريب عبر الحدود، عن تركيا والبحر الذي غرق فيه الكثير قبل أن يصلوا إلى شواطئ اليونان، عن الجزر التي تلقَّفتهم، والغابات التي سار فيها الآلاف من الناس، عن الساحات والحدائق التي افترشوا في طريقهم، عن الإعانات الشهرية والإقامة المؤقتة ومقابلات السفارات. كل هذا لم أكن أعرفه جيدًا، إشارات سريعة كنت أسمعها عن أناس لجؤوا إلى دول أوروبية، لكنني لم أكن أتخيل أن الأمر كما وصفته النسوة اللواتي انشغلن يفنِّدن حسنات كل مدينة ومساوئها، وتعامل مواطني دول اللجوء معهم، بين مرحِّب بهم ومن يترك لهم رسائل تهديد تدعوهم إلى العودة إلى بلادهم.

«ليش ظلت بلاد يا حسرتي»؟ سألتْ إحداهنَّ وكأنها تحدِّث نفسها، «يظلون بالغربة أحسن ما يرجعون ع الموت والذل»، عادت وأجابت هي ذاتها.

التفتُّ إلى خولة وسألتُها:

«كيف وصل زوجك إلى ألمانيا»؟

«تهريب، ذهب مع ابن عمه وشباب آخرين من القرية إلى تركيا ومنها إلى اليونان إلى أن وصلوا ألمانيا». أجابتني.

«هاجر الكثير، عوائل بأكملها ذهبت»، علَّقتْ امرأة قبل أن تكمل:

«حسين الخلف الإبراهيم غرق بالبحر، أمه ماتت من حسرتها عليه». قالت موجهةً كلامها إليَّ وكأنني أعرفه.

عقَّبتْ امرأةٌ أخرى:

«المهرِّب التركي ركّبهم بالبَلَمْ وتركهم لحالهم».

رحت أستمع إلى حديثهنَّ وأفكر في الغيبوبة التي كنت غارقة فيها لأصحو بعد ذلك معتقدة أن العالم توقَّف عندما غبت عنه، وما عدت أعرفه إلا بما تساقط من أحاديث أبي كريم.

قطع شرودي صوت خولة تناديني، التفتُّ إليها، ابتسمتْ وقد لاحظت أنني لم أنتبه لسؤال إحداهن لي. أدرتُ رأسي نحو المرأة التي أعادت سؤالها:

«تعرفين تخيطين ثياب»؟

«عبايات ودروع بس».

بدت إجابتي غير واضحة لها. أكملت مستدركة:

«أبو كريم لم يعلمني سوى خياطة اللباس الشرعي».

«اشتريت منّو عباية بعشرتالاف، والله الخيَّاطة اتگصْ ذَهَب»، عقَّبت المرأة.

«آني باعني اياها باثنعش ألف»، علَّقتْ أخرى.

صدمتني الأرقام، أبو كريم كان يقول لي إن سعر العباءة لم يتجاوز خمسة آلاف، ثم قال إنه رفع سعرها إلى سبعة آلاف فقط. نبَّهتني يدُ المرأة التي كانت تجلس إلى جواري عندما ضغطتْ على كتفي قائلةً:

«الآن عليكِ أن تتعلَّمي خياطة الفساتين اللمَّاعة، أخضر وأحمر وأصفر، هذي ألوان الكرديَّات».

ضحكت النسوة لتعليقها، ثم أكملنَ حديثهن عن الأكراد وأزياء نسائهم. لم أعد قادرة على سماعهن، وسخرتُ من نفسي أنا أيضًا عندما وجدتني مجرد خيَّاطة في نظرهن، وعليَّ أن أتعلم خياطة ثياب تناسب المرحلة الجديدة، والجديد يفترض الألوان الزاهية والفاقعة بدلًا من الأسود، الأمر هكذا ببساطة. لم يسألنني عن حياتي السابقة ولاعن الحياة التي حلمتُ بها. تفوقتُ في دراستي الجامعية، كان من الممكن أن أكون معيدة الآن في كلية الآداب وأحقق أحلامي، أركب سيارتي وأطوف شوارع مضاءة بالأنوار والوجوه الملوَّنة، مطلِقةً شعري للريح تلهو بخصلاته، أن أرتدي تنورتي الجينز التي أحبها على تيشرت أبيض وألف عنقي بشالي الملوَّن وأمشي في ممرات الكلية سعيدة بنفسي ومكتملة بنظرات الإعجاب التي كانت ترافق خطواتي. أمَّا الآن، فأنا أجلس هنا في العراء، غارقةً في الوحل، وأرتدي عباءة وشالًا، تترصَّدني النظرات كلما تحركت أو تفوَّهت بكلمة. أطرقتُ برأسي أنظر إلى

خطوط الحصيرة غير قادرة على الإحساس بذاتي، حجر ثقيل كان يهوي من رأسي ببطء نحو صدري دون أن تنقطع أصواتهنَّ، استحالت وجوههن إلى خطوط سوداء أشد دكنةً من خيوط الحصيرة التي افترشنها، تقترب من بعضها، تتقاطع، تتشابك، تصبح مربعات صغيرة، تضيق أكثر، وفي أذني تمتزج أصواتهن بأصوات المطارق التي تضرب أوتاد الخيام بقوة.

رفعتُ رأسي أنظر إليهن. كن يقتربن مني أكثر، يتشابهن، تتطابق وجوههن قريبةً من وجهي. أردت أن أنادي آسيا، لكن صوتي خانني مرة ثانية، ارتدَّ في داخلي، أسمعه ولا تسمعه، أنادي عليها ولا تجيب.

آسيا..

آسيا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش التاسع عشر

«الحمد لله ع السلامة».

فتحتُ عيني أكثر من مرة وأغلقتها على وجه آسيا. ندَّتْ عن شفتيها ابتسامة عندما نطقتُ باسمها، وعادت تمسح وجهي بقطعة قماشٍ مبللة بالماء.

كانت النسوة قد تجمَّعن حولي ووقف إلى جانبهن أطفال صغار راحوا يمدّون أعناقهم بين أجسادهن بفضولٍ ليلقوا نظرة عليَّ. سمعتها تطلب منهن أن يفسحنَ المجال للهواء. استجبنَ لطلبها بعد أن وقفتْ خولة تنهر الصغار وتدعوهم إلى اللعب بعيدًا.

حاولت أن أنهض، لكن آسيا وضعتْ يدها على كتفي تمنعني. استسلمتُ لها ولصوت الحاجة زهرة تطلب مني أن أستريح. نظرتُ نحوها لحظة قبل أن تأخذني كلمة «مسكينة» نطقتْ بها امرأة كانت ما تزال واقفة بعد أن انفضَّت النسوة. نادتها خولة ودعتها إلى الذهاب معها.

«شو في»؟ سألتُ آسيا.

«دختِ»، قالتها بلطف وراحت تمسح وجهي من جديد.

«وجهها أصفر يمكن أخذت برد الصبح»، قالت آسيا مخاطبةً الحاجة زهرة. أغمضتُ عيني وحاولت أن أضبط أنفاسي مجددًا، واستسلمتُ ليد آسيا تمسك بمعصمي وتحاول جسَّ النبض في وريدي.

«انهَضيها»، قالت الحاجة زهرة مخاطبةً آسيا، فتحتُ عيني وحاولت أن أرفع جذعي، ساعدتني آسيا على الجلوس وأسندتْ ظهري إلى حضنها، فكَّتْ أزرار العباءة من جهة صدري.

«ارتاحي»، قالت آسيا وهي تصبُّ لي كأس شاي. قربتها من فمي وطلبت مني أن أشربها دفعة واحدة.

كان الشاي باردًا ومرًّا، ألحَّت هي والحاجة زهرة كي أشربها دفعة واحدة.

«شو حاسّة»؟ سألتني آسيا. أخبرتها أنني أشعر برأسي يتصدَّع. نهضت ووضعت الوسادة تحت رأسي، ثم ذهبت إلى الخيمة عندما طلبتْ منها الحاجة زهرة أن تحضر طعامًا وكيس أدويتها لتعطيني مسكنًا.

راحتْ الحاجة زهرة تزحفُ نحوي، رفعتُ رأسي إليها، لكنها أعادته إلى الوسادة واستجبت لحركة يديها وهي تمسك بكتفي وتديرني برفقٍ نحو حقول الحنطة، ثم بدأتْ تمسِّدُ رأسي.

كان ملمس يدها على وجهي خشنًا كأنه جذع شجرة، ومع ذلك، فقد أحسستُ بأنها تسحب ألم الصداعِ وهي تمر ببطء على جبيني وتنحدر إلى كتفيَّ، ثم ترتفع بالرتابة ذاتها إلى الأعلى مرورًا برقبتي وصولًا إلى مؤخرة رأسي، وشرعت تتلو على مسامعي آيات من القرآن الكريم، كان صوتها ينخفض كلما مرَّت بيدها فوق أذنيَّ، فلا أعود أسمع سوى تمتماتها بعيدةً كأنني أغرق في الماء، ثم يرتفع قليلًا بعد أن تنسحب يدها نحو أعلى رأسي ببطء شديد، وتصمت لحظة لتفسح المجال لتنهيدة تزفر بها أنفاسها قبل أن تعيد الكَرَّة.

ارتخى جسدي وأذعن لرتابة صوتها وحركة يدها والمشهد أمامي، حيث لا شيء سوى الحنطة تلمع رؤوسها كأنها بحرٌ أخضر ساكن، ورؤوس تلال تبرز في البعيد كأنها سفن شراعية عند خط الأفق. صورة ثابتة لا شيء يتحرك فيها سوى الأصوات التي لم تنقطع ورائي، لكن ذهني كان مشوَّشًا، ألتقط صورًا لما حدث معي منذ أن نزحنا إلى الزور، صورة تقفز أمام عيني ثم تتلاشى منسحبةً لتفسح المجال لصورة أخرى، وجوه النساء ثم وجه يوسف، خولة ثم حليمة، أبو كريم والمرأة التي سألتني عن خياطة العباءات، ضحكاتهن ونظرات آسيا المرتعدة وأنا في حضنها.

رفعت رأسي نحو الحاجة زهرة عندما توقفت يدها عن تمسيد رأسي، كانت تنظر إلى أشجار التوت وذقنها يهتز مرتجفًا، وعيناها غارقتان خلف سحابة من دموع. أشاحت وجهها عني وبطرف ملفعها راحت تمسح خيط الدموع الذي امتدَّ على طول جفنيها. رفعتُ جذعي واقتربت منها أكثر، مددتُ يدي إلى يدها، قرَّبتها من شفتيَّ وأردت تقبيلها، لكنها سحبت يدها من يدي واحتضنتني بين ذراعيها، فدفنتُ رأسي في حضنها وأجهشت بالبكاء.

أخذت يداها تمسِّدان ظهري، وشفتاها تتضرعان بالمغفرة، لم تبعدني عن صدرها، بل تركتني وقتًا أشمُّ رائحة ثوبها الذي ابتلَّ بدموعي، وكأنني أشم ثوب أمي. لثياب الأمهات رائحة مشتركة، مزيج من عرق الولادة والحليب والدموع، لاذعة وشهية في الوقت ذاته، رائحة تترسَّخ في أجسادهن بعد الولادة وتتعمَّق بالرحمة والسلام كلما تقدمن في العمر.

مسحتُ دموعي وانسحبتُ من حضنها بلطف، شكرتها، اكتفتْ بهزِّ رأسها ثم تناولتْ مسبحتها وعدَّلتْ من جلوسها دون أن تزيح نظرها عن أشجار التوت أمامها.

كانت آسيا قد وصلت تحمل صينية الطعام وكيس الدواء، «ساعة ندور على كيس الدوا بين الأغراض»، قالت آسيا وهي تجلس بجواري. وضعت أمامي صحنًا من اللبن الخاثر ورغيف خبز، وبدأتْ تقطِّع الخبز وتغمسه باللبن وتناولني إياه، ثم أعطتني الدواء ونهضت. قالت إنها ستذهب لتبدِّل ثوبها الذي

تلطّخت أطرافه بالوحل بعد أن ركضت كل تلك المسافة عندما جاء الأطفال ينادونها. تناولتْ حرامًا صوفيًا وانحنتْ تدثرني بها.

«قولي إني عاطلة»، علَّقتْ غامزةً ومضت.

اتكأت الحاجة زهرة على وسادتها، وراحت تتمتم وِردها المعتاد. كانت الشمس قد مالت نحو الغروب، وتطاولت ظلال أشجارِ التوت حتى خيَّمت علينا. أدرتُ رأسي إلى الخيام أبحث عن يوسف، لكنني لم أره، وأحسستُ بالحرج من أن يكون قد رآني غائبة عن الوعي وسط النساء اللواتي تحلَّقن حولي ينظرن إلى الفتاة الحضريَّة والهزيلة التي سقطت مغشيًّا عليها وتكوَّمت وسطهنَّ.

«أمك عايشة»؟ سألتني الحاجة زهرة.

«لا، ماتت قبل زمن طويل، عندما كنت في التاسعة، ثم لحقها والدي بعد خمس سنوات».

«الله يرحمهم»، قالت.

«آمين»، تمتمتُ.

«وإخوتك»؟

«إخوتي؟ من لا يراني عارًا يراني عبئًا».

«لاحول ولا قوة إلا بالله»، علَّقتْ.

رفعت جذعي واستندت إلى الوسادة خلفي أنظر مثلها إلى الأشجار التي ازدادت دكنةُ أوراقها، تتخللها أشعة الشمس النحاسية ساعة العصر، أتأملها وأفكر في جلوسي هنا مع هذه المرأة العجوز، لا أعرف شيئًا مما سيحدث لي بعد أن أخرج من هذه البقعة، ثم قلتُ:

«لو كنت أعرف أنني سأمسي وحيدة وغريبة هنا لما هربت».

«كلُّه مكتوبٌ من عند الله»، علَّقت.

«ظلم واحد يكفي، منذ أن هربت وأنا لا أخرج من حفرة إلا لأقع في أخرى، لم تكن هذه الحياة التي أريدها».

«الحياة لا تعطينا ما نتمناه دومًا يا ابنتي، لكنها تعطينا ما نحتاجه، كله مكتوب من عند الله».

هززتُ رأسي وقد استوقفني تعليقها. لكنها التفتتْ إليَّ وسألتني:

«إلى أين ستذهبين بعد أن نخرج من هنا»؟

«لا أدري، أرض الله واسعة يا حاجة».

«ونعم بالله»، قالت وصمتنا وقتًا طويلًا، ثم التفتنا معًا إلى أخت حليمة التي راحت تتمتم وتحرِّك يديها باضطراب. أشارت الحاجة زهرة بيدها لامرأة كانت تقف قريبًا منا. فهمت المرأة وذهبت لتنادي حليمة التي لم تتأخر، جاءت وجلست إلى جوار أختها وسقتها الماء، ثم نهضت بعد ذلك وجلست إلى جوارنا. وضعت ثوبًا في حضني وقالت:

«هذه ثوب ابنتي، جديد، على مقاسك».

«ولكن..».

«هو لكِ»، قاطعتني وابتسمت في وجهي، ثمّ أردفت:

«خشيت ألّا يسمحوا لنا بالعودة إلى القرية، وأننا ربما سننزح من هنا إلى لبنان».

حاولت أن أعتذر عن قبول هديتها، لكنها ألحَّت عليَّ. شكرتها على كرمها ورحت أتفحَّص الثوب الذي أحضرته لي. كان الثوب من المخمل الأزرق النيلي تتوزَّع على أطراف أكمامه ومحيط الصدر نجوم صغيرة مطرَّزة بخيوط فضيَّة. وضعتْ يدها على فخذي وضغطتها قليلًا، ثم قالت:

«باچر بس نرجع تنطيني قميص وچبّونة، أريد أبو ابراهيم يلاگيني متحظرة أكثر منّو».

«تكرم عينك، رح خليه ما يشوف غيرك».

علَّقتُ ممازحة. ضحكتْ ساخرة ثم قالت:

«والله عندي الگعدة بفيّ الدار تسوى كل زلم الدنيا».

كانت آسيا قد عادت مع خولة، ووقفتا تنتظران أن ننهض لتحملا الأغراض إلى الخيمة قبل مغيب الشمس.

وقفت وبدأت أساعدهما في جمع الأغراض لنقلها إلى الخيمة. اعترضتْ خولة وطلبت مني أن أرتاح. كانت الحاجة زهرة قد نهضت ممسكةً بيد خولة ومستندةً إلى عكازها، تقدمت نحوي خطوة وأمسكتني بكتفي، ثم قالت:

«البنات ينقلْنَ الأغراض، أنتِ ستساعدينني».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

النبش العشرون

«جِمل غيدا ياحزين..».

أغمضتُ عيني على صوت حليمة تروي للصغيرَين حكاية غيدا.

كان المكان قد ازداد ضيقًا بعد أن نامت حليمة وأختها في خيمتنا. تكوَّمنا في كل مساحة متاحة. تكَّورتُ إلى جوار آسيا التي استلقت على طول الخيمة عند الباب، واضطجعتْ خولة في الجهة المقابلة لنا مع أطفالها، بينما استلقت الحاجة زهرة في فراشها مرخيةً مسبحتها على صدرها تسحب وِردها الذي لا ينتهي.

أمرتْ خولة الصغيرين أن يناما، هددتهما بأن من يفتح عينه ستأتي السعلوة وتسحبه من الفراش إلى الفرات، استجابا لها وقتًا قصيرًا وعادا يتضاحكان بصوت عالٍ، نهرتهما، طلبتْ منها حليمة أن تتركهما وشأنهما والتفتت إليهما لتروي لهما حكايةً بعد أن أثارتْ فضولهما، فسكتا ينصتان إليها.

كانت آسيا قد نامت بعد أن أغمضتْ عينيها، جرَّت الحرام إلى صدرها وكتَّفت يديها فوقه. نامت أسرع من الأطفال بلا هدهدة أو حكايات. أحسستُ بالسكينة التي تغمرها تغمرني أنا أيضًا، ثم أدارت ظهرها إلى الجهة الثانية نحو الباب مفسحةً لي مساحة صغيرة لأمدَّ ساقيَّ أكثر.

هدأ الصغيران وأغمضا أعينهما يستمعان لحليمة تسرد عليهما خرافة إثر أخرى. مددتُ يدي أتحسس بأصابعي جديلة آسيا التي ارتخت على الوسادة بيننا، وأغمضت عيني على تلك الحكاية الخرافية التي راحت تتسرَّب إلى مسمعي، حكاية غيدا، الفتاة اليتيمة التي كانت تعيش مع شقيقها محمد بعد أن تزوج والدهما بامرأة قاسية القلب، فكان محمد يرعى الجمال وغيدا تقوم بأعمال المنزل، وكان لها جملٌ أحبَّته كثيرًا وحنَتْ عليه فصار لقبُه جمل غيدا. وفي أحد الأيام، ذهبت فتيات القبيلة لجمع التوت من أشجارٍ قريبة من مضارب القبيلة، فجاء الدوَّاج على حماره يبيع كل الأشياء، الثياب والأساور والحلي والإبر والعلك، يحملها في خُرْجٍ على ظهر حماره ويقايض بضاعته بتوت الفتيات، ولما رأته غيدا هربت من زوجة أبيها وخرجت تجمع التوت هي أيضًا، لكنها وصلت متأخرة. كان الدوَّاج قد سار مبتعدًا فلحقته تناديه ليأخذ توتها ويعطيها «المعاضيد» التي رغبت بارتدائها في عضدها، لكن الدوَّاج لم يتوقف، تناديه ولا يصغي، تناديه ويتعلل بأن حماره يرفض الاستجابة له، ولم يتوقف إلا عند باب مغارة عظيمة، وسَرعان ما تحوَّل الدوَّاج إلى حنفيشٍ مخيف، سجنها في مغارته وألبسها أجمل الثياب والحلي بانتظارِ أن تكبر

ليتزوّجها، فأصبح جملها مريضًا هزيلًا لا يرعى ولا يفارق بطن الوادي بانتظار عودة غيدا، وصار أخوها ينشد:

«جمل غيدا يا حزين، مْشَلْكح بذاكَ البَطين

كُلَّ الجمالْ ترعى، ألّا جملْ غيدا حزين».

رددتها حليمة أكثر من مرة، وكان صوتها ينكسر ويخفت في كل مرة.

«مسكينة يا غيدا»، علَّقت خولة.

«كتير مسكينة»، رددتها في سرِّي وانقطعت الحكاية بعد أن نام الصغيران، وعادت حليمة لتكمل حديثها مع خولة.

لكن منطق خرافات الأطفال السعيدة يقول إن أخاها ظل يبحث عنها على الرغم من مرور السنين، ويُنشِد كلما رأى جملها: «جمل غيدا يا حزين»، واستطاع في النهاية إنقاذها فاستعاد جملها عافيته عندما رآها، أو ربما ظلت سجينة المغارة والحكاية، من يدري! ولكن، هل نحن حكايا مكرورة؟ أتساءل الآن، وأفكِّر أن الحياة ليست أكثر من مجموعة كبيرة من النماذج، تعديلات طفيفة وندخل في النظام لنعيد اجترار حقيقتنا، الزمان وحده المتغيِّر، يعيد تدويرنا لنصبح أكثر انسجامًا مع النموذج الذي ننتمي إليه، هي هكذا!

فتحتُ عيني عندما دوَّى انفجارٌ في أطراف القرية وارتفع صوت الرصاص واختلط ببكاء إسماعيل وشهقة حليمة التي وقفت في مكانها ثم انحنت نحو أختها لتتأكد أنها مازالت نائمة. سألتني الحاجة زهرة عن الوقت، أجبتها بأنها الساعة الواحدة ليلًا تقريبًا، هذا يعني أننا نمنا أكثر من ثلاث ساعات بهدوء، فكرت. مشت حليمة تتلمَّس دربها خارج الخيمة. ناديت آسيا أحاول إيقاظها، لكنها تجاهلتني، شدَّت الغطاء على رأسها متأففةً. أردت أن أخرج لكني تراجعت واكتفيت بالاستماع إلى الأصوات التي ارتفعت في المخيم. كانوا يتحدَّثون عن محاولة تسلل للتنظيم إلى القرية. «لن يسلِّموها بسهولة»، قال أحدهم، وعقَّب آخر بأنها محاولة فاشلة وستردّ عليها قوات سوريا الديمقراطية. هذا ما أكدته حليمة عندما عادت وأخبرتنا بما حدث.

كان صوت الرصاص الذي انطلق بعد الانفجار قد انقطع تمامًا. ألصقتُ صدري بظهر آسيا. رحت أسحب الهواء إلى صدري وأزفره حارًّا على ظهرها غير قادرة على النوم، تتناوب على رأسي الأفكار بين ما حدث لي، وما ينتظرني بعد أن أخرج من هنا، تشدني الرغبة بالهرب من كل شيء يأبى أن ينتهي إلى بدايات جديدة ألقي خلفها ذاكرتي وأمضي. ولكن، كيف يستطيع الإنسان الفرار من ذاكرته؟ كيف يستطيع أن يخرج سليمًا من ماضيه؟ هذه رفاهية لا يوفّرها الواقع، نحن جَمعُ ذكرياتنا البائسة، ذكرياتنا التي لا نعرف كيف نتخلَّص

منها، لأنها باختصار حقيقتنا، وكل شيء سواها لا يعدو أن يكون محاولة لتجاوزنا على نحو أفضل.

مرَّت أكثر من ساعة عندما سمعتُ جلبة في المخيم. رأيتُ خولة تعبر فوقنا تريد الخروج من الخيمة قبل أن تنضمَّ إليها حليمة. نهضت ولحقتهما.

كان بعض أهل القرية قد وقفوا يتحدثون بصوت عالٍ عن رجل جريح. سألتْ خولة أحدَ الرجال الذين مروا بالقرب منا عن الرجل. أخبرها بأنه أحدُ عناصر التنظيم وقد أُصيب بطلقٍ ناريٍّ في ساقه.

مشيتُ مع حليمة وخولة إلى حيث كان يقف الجميع يدفعني فضولي إلى رؤيته. سمعتهم يقولون إن أحدهم يساعده لإخراج الرصاصة من ساقه. رفعتُ رأسي أنظر بين الجموع إلى داخل الخيمة التي احتشد الناس أمام بابها.

كان الرجل مستلقيًا على ظهره وإلى جواره يجلس رجلٌ آخر ممسكًا بندقيته بيديه، وينقِّل نظره بين زميله ووجوه الناس الذين تدافعوا للدخول إلى الخيمة. سمعته يطلب من الحاج حسين إبعاد الناس. قالت امرأة تقف إلى جوارنا إن الرجل الجريح من أبناء إحدى القرى المجاورة وإنها تعرف أهله جيدًا. قالت أيضًا إنه التحق وبقية إخوته بالتنظيم بعد أن اعتقلت قوات النظام أخاهم الصغير ومات تحت التعذيب ولم يتمكنوا من دفنه.

خرج الحاج حسين وطلب من الجميع العودة إلى خيامهم. سأله أحدهم عمَّا سيفعلونه إذا جاءت عناصر قَسَد تبحث عنهم في المخيم، «ما يصير ألّا الخير إنشا الله»، كررها الحاج حسين محاولًا تهدئة الجمع المحتشد حوله، «ما بي شي يخوِّف» قالها وانسحب عائدًا مع ابنه إلى داخل الخيمة عندما علا صراخ الرجل الجريح. استجاب بعضهم بتثاقل وابتعد عن الخيمة، بينما ظل البعض الآخر واقفً في مكانه.

كان الجميع متوترًا، سمعتهم يتحدَّثون عمَّا فعلته القواتُ الغازية بالقرى الأخرى. قال أحدهم إنهم اعتقلوا الكثير من الرجال للتحقيق بتهمة ولائهم للتنظيم، وإن الاعتقالات طالتْ أناسًا أبرياء لا ذنب لهم فيما يحدث، واعترض آخر على هذه الادعاءات بحجّة أن ما حدث في القرى الأخرى لا يعني أنه سيحدث معنا، وأن من الطبيعي في كل حرب أن تحدث الكثير من الخسائر وتعمّ الفوضى.

خرج يوسف من الخيمة وطلب بنبرة حازمة من الجميع العودة إلى خيامهم. انسحبت عائدةً إلى الخيمة تلحقني حليمة وخولة.

كانت آسيا قد أراحت جسدها واستغلت الفراغ الذي تركه خروجنا لتمدَّ جسدها. حاولتُ أن أزيحها قليلًا. أزاحت الغطاء عن وجهها، فتحت عينيها لحظة، سألتني فيها عمَّا يحدث. أخبرتها بما رأيته، لكنها أدارت جسدها نحو الجهة المقابلة لباب الخيمة، وبنبرة غاضبة يثقلها النعاس قالت:

«للْجَهنَّم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الحادي والعشرون

«الأكراد، الأكراد».

ارتفعت الأصوات تردد ما قالته حليمة وهي تدخل الخيمة. كنتُ نائمة بجوار أختها وحدنا بعد أن خرج الجميع عند طلوع الشمس. انحنتْ نحو أختها لتجلسها.

«بيكابات محمَّلة عسكر، أله يستر»، أجابتني بعد أن سألتُها مستفسرة.

ارتديت العباءة ووضعت شالًا على رأسي وخرجت.

كانت آسيا تقف مع خولة وأطفال تجمَّعوا بالقرب من الحاجة زهرة التي افترشت حصيرة هي ونساء أخريات أمام الخيمة يشربن الشاي.

رفعتُ يدي فوق جبيني أمام شمس الصباح أراقب مثل الجميع السيارات وهي تنحدر من كتف الوادي، وتتلمَّس طريقها بعيدًا عن بركة الماء أسفل المنحدر.

علَتِ الأصوات حولي تصف ما أراه أمامي، ثم راحوا يحذِّرون بعضهم من الخوض في أي جدال؛ «كل شي يگولونه صحيح»، «لاحدا يجيب سيرة الدواعش»، «الحج حسين هو الـ يحچي بس». تبادلوا توصيات ومحاذير من التفوُّه بأية كلمة ليست في مكانها، وعدم ذكر أية قرابة أو معرفة بأسماء أشخاص قدَّرت أنهم من بعض أهل القرية الذين تورَّطوا مع التنظيم.

رحت أجيل نظري في الناس حولي. وقف بعضُهم عند خيمته، وتقدم بعضهم الآخر نحو أطراف المخيَّم وقد علا الخوف والترقُّب وجوههم.

كان هنالك رجل قد جثا عند باب خيمته، تناول ثوبًا من أحد حبال الخيمة ليجفف الدماء التي كانت تسيل على خديه بفعل الجروح التي أحدثتها شفرة الحلاقة، راح يغطِّسها بكأس من الماء بسرعة ويعيد تمريرها بعنف ليجزَّ بها لحيته الطويلة.

رأيت يوسف يخرج من إحدى الخيام برفقة الحاج حسين وابنه، وعندما رآني ركض نحوي، ألقى التحية وقال:

«لا تعطيهم هويَّتك، إذا سألك أحد قولي إنكِ زوجتي وآسيا أختكِ».

«ولكن..».

«لا تخافي، لن يتعرَّض أحد لكما بسوء»، قاطعني وابتسم في وجهي محاولًا طمأنتي، ثم أكمل طريقه نحو الحاج حسين الذي راح يغرز عصاه الثقيلة في

الأرض، ويدفعها بسرعة إلى الأمام متعجلًا الوصول إلى أطراف المخيم حيث توقفت السيارات على بُعد مسافةٍ منا.

ترجَّل الجنود مدججين بأسلحتهم، نزل ضابط ومعه امرأتان كانتا ترتديان لباسًا عسكريًّا من مقصورة إحدى البيكابات التي انتصبت على مقصوراتها رشاشات ورايات صفراء تتوسطها خريطة سوريا، وقد كتب عليها عبارة «قوات سوريا الديمقراطية» بثلاث لغات، العربية والكردية والسريانية في إشارة إلى أن عناصر هذه القوات هم سوريون بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية.

تقدَّم الضابط بضع خطوات يتبعه الجمع المسلَّح نحونا، ثم وقف وصاح بمكبِّر الصوت ملقيًا التحية على أهل القرية. تداخلت أصواتُ الرجال حولي يردُّون عليه التحية بأحسن منها، ولم تكن أصواتهم لتصل إلى مسمَعه من تلك المسافة.

«كل شي زلمة صغير كبير، كلوا يجي لهون»، قالها بعربية ركيكة.

«كردي»، تمتمتْ آسيا إلى جواري.

رفع صوته مرة ثانية:

«الكل يرفع إيدو وأي واحد يسوِّي أيْ حركة راح يعرِّض حياته للخطر».

ظل الرجال جامدين في أماكنهم وقتًا قصيرًا بلا حركة كأنهم جذوع أشجارٍ مقطوعة قبل أن يرفع أول واحد منهم يده، تبعه آخرون تحت وقع كلمة «بسرعة»، راح يرددها صارخًا عبر المكبر، ومحفِّزًا الرجال الذين بدؤوا ينسلُّون من بين الخيام، يرفعون أيديهم ثابتةً إلى السماء بشفاه مُطبَقة حتى عن الدعاء.

وقف الصغار إلى جوار أمهاتهم اللواتي افترشن الأرض حول خيمتنا وقد أمسكوا بأطراف ثيابهن، حتى إسماعيل الصغير، أفلت ثدي أمه وأدار رأسه من تحت شالها ينظر إلى رتلٍ من الرجال يمشي واحدهم وراء الآخر، وفي المؤخرة، كان الحاج حسين يمشي مستندًا إلى عكازه وإلى جواره ابنه يمسك بساعد والده ويرفع يده الثانية ثابتةً إلى السماء.

وعلى الرغم من أن الرجال كانوا قد اقتربوا كثيرًا منهم، فإن الضابط ظل يصيح بالمكبر مهددًا أي رجل سيجدونه في المخيم.

صوَّب العناصرُ أسلحتهم نحو الرجال، «يا ألله!»، صاحت امرأة تقف إلى جوارنا فزعةً قبل أن تعود خطوات إلى الوراء مُحنية ظهرها كأنّ البندقية موجهة نحوها. شددت بيدي على ساعد آسيا لكنها ظلت تنظر بوجومٍ أمامها.

تقدَّم العناصر نحو الرجال وبدؤوا بتفتيشهم، حتى الحاج حسين فتشوه، وبعد ذلك جاء الضابط ومشى معه بضع خطوات قبل أن يتوقَّفا ويكملا حديثهما.

«جايين يسألون عن الدواعش»، قالت حليمة، أجابتها امرأة بأنهم رحلوا عند الفجر بعد أن ساعده رجالُ القرية بإخراج الرصاصة من ساقه.

«يأشَّر علينا»، قالت امرأة أخرى، ولم نكن بحكم المسافة قادرين على سماع حديثهما.

ساد الصمت طوال الوقت الذي كان يتحدث فيه الحاج حسين مع الضابط. لم يطل وقوفهما منفردَين كثيرًا، عاد الضابط وأشار بحركة من يده لبعض العناصر وتبعوه بخطوات سريعة نحو الخيام، وعندما اقترب منا، أشار إلى بعض العناصر بيده فانتشروا في المكان، ووقف هو والفتاتان قبل أن يطلب منا التقدم نحوه نحن أيضًا.

«ماني گايمة»، قالت الحاجة زهرة تدفع بيدها خولة التي انحنت بطفلها لتساعدها على الوقوف.

«أنا بساعدها»، قلت.

«آني ما عَلَيْ خوف، روحِنْ»، قالت لنا.

وكما حدث مع الرجال حدث الأمر ذاته مع النساء عندما صوَّبت الفتاتان بندقيتيهما نحونا. نهضت النساء من تكومهنَّ على الحصيرة وحولها، ثم مشينا من دون أن نرفع أيدينا أشبه بحبات مسبحة سوداء انتظمت في خيط طويل، وقد مشى إلى جوار بعض النسوة أطفالٌ خافوا من البنادق، فدسُّوا رؤوسهم في أثوابهن الداكنة.

كانت هنالك طفلة تبكي طوال الوقت واختلط بكاؤها بهمس النساء اللواتي انفرط خط سيرهن وتجمَّعن في صفوف غير منتظمة على بعد مسافة قصيرة من الفتاتين.

فوضى أصوات امتزجت في أذني عندما وقفتُ بجوار آسيا في الصف الثاني ننتظر ما سيحدث، وانقبض قلبي عندما رفع الضابط صوته سائلًا:

«ليش هديك المرا ما اجتْ لهون»؟

«هذي أمي مرا چبيرة ومُقْعدة، ماتگدر تمشي».

ردت خولة بنبرة مستعطفة. لم يعلِّق على كلامها.

«فتشوهن»، أمر الضابط الفتاتين وأكمل طريقه إلى داخل المخيم يتقدَّمه جنود آخرون، ثم وقف يتحدث مع الحاجة زهرة عندما اقترب جنديان مصوِّبين

بندقيتيهما نحو الخيمة، رفع أحدُهم بابها القماشي بسرعة، انتظرا لحظة قبل أن يدخلا. خطفت عيني أنظر إلى حليمة التي ركضت مسرعة نحو أحد العناصر، منعها بيديه داعيًا إياها العودة إلى الصفِّ، رأيتها تشير بيد ثابتة نحو الخيمة قبل أن تمسكه بكمّه متوسِّلة أن يسمح لها بالذهاب إلى أختها.

رفعت الحاجة زهرة يدها تُطمئن حليمة بعد أن خرج الجنديان. نادت عليها إحدى الفتاتين، عادت ووقفت في الصف عندما بدأتا بتفتيشنا امرأةً إثر أخرى، والتي ينتهي دورها تقف خلفهما.

كانتا أول امرأتين أراهما خارج حدود السواد الذي عشت فيه، واحدة من عمر آسيا في أول الأربعين، والثانية تبدو أصغر مني، قدَّرت هذا وأنا أتأمل هيئتهما. كانتا جميلتين بثيابهما العسكرية، الجمالُ الذي يكسر حِدَّة هذا الزي بهالةٍ من الأنوثة.

هنالك عالم آخر إذًا، فكَّرت، عالم لا يعيش تحت وطأة الرغبة بالنجاة. كانتا أول فتاتين ملونتين، تلتفُّ على رأس كلٍّ منهما عصابة ملوَّنة بألوان زاهية، أحمر وأزرق وبرتقالي. ألوان غير اللون الأسود أراها بالدهشة التي تأتي أول الاكتشاف، نساء مثلِنا، ضفائر مطلقة للهواء ووجوه تتنفس الحياة من دون فلاتر التنقية التي أُجبرنا على وضعها. وعندما اقترب دوري في الطابور سمعتهما يتحدثان فيما بينهما باللغة الكردية. ولم أكن قادرة على التقاط أية كلمة، لكن ملامحهما كانت تفسر أن حديثهما كان عن شيء بعيد، شيء لا يخص المعارك ولا الأسلحة ولا هذه الثياب، شيء عن الحب والرجال مثلًا، في مكان لا تفوح منه رائحة الدم والبارود. وقفت بين يديهما:

«شو اسمك»؟ سألتني إحداهما.

«نسرين».

«افتحي إيديكي»، قالت الأخرى وعادتا إلى حديثهما السابق.

فتحت ذراعيّ إلى أقصاهما ورحت أنظر نحو أشجار التوت متجنِّبةً النظر إليهما. تحسستا جيوبي، مررت إحداهن يدها على ظهري والأخرى تحسست أكمام ثوبي. أحسست بمرارة ريقي الذي انسحب بطيئًا وحارقًا في حلقي. سرتْ قشعريرة في جسدي عندما صفقتْ إحداهما بيديها معلنةً انتهاء تفتيشي وأشارتْ إلى امرأة ورائي.

مشيتُ خطوات بعد ذلك فاتحةً ذراعي بلا وعي مني قبل أن أسدلهما. انتابني الشعور ذاته الذي كان يرافقني كلما توقفت عند حاجزٍ من الحواجز التي انتشرت في حمص، عندما يتجاهل العنصرُ وجودك وهو يفتش أمتعتك. إنه عمل روتيني في معظم الأوقات، ثم تصبح أشبه بعلبة تمر تحت يد عامل في

مصنع يلصق عليها تاريخ الإنتاج وانتهاء الصلاحية، تصبح نكرة بين يديه، تفتيش نكرة وظيفة سهلة قياسًا بغيرها في هذه البلاد، وفي مثل هذه الأوقات.

أحسست بثقل في رأسي وأنا أسير إلى آسيا التي وقفتْ مع النسوة اللواتي أنهينَ تفتيشهن قبل أن نلتفت جميعًا نحو رجل أمسك به جنديان، وأرغماه على الجلوس جاثيًا وكبَّلا يديه، حاول أن يتملَّص منهما، سقط عقاله وانزلقتْ كوفيته إلى كتفه فظهر شعره الأشيب الذي اتصل بلحيته البيضاء. صرختْ امرأة عجوز كانت تقف إلى جوارنا مناديةً على أحد الرجال ليتدخل في الأمر. تراجعت بعض النسوة وتقدَّم بعضهن الآخر قبل أن تتدخل الفتاتان وتطلبا بحزم من النساء الوقوف في أماكنهن، وعلا صوت المرأة العجوز مختلطًا بأصوات الرجال الذين حاولوا التدخل لمنع اعتقاله، لكن العناصر صوَّبوا أسلحتهم نحوهم وأمروهم بالتراجع والالتزام بالانضباط.

كان يوسف قد وقف مع رجال آخرين احتشدوا حول الحاج حسين والضابط، وإلى جوارهم كانت المرأة تتوسل مستعطفة إياه ألا يأخذ زوجها، ثم رأيت ابن الحاج حسين يسحبها مناديًا إحدى النسوة لتأخذها بعيدًا. أشار الحاج حسين بيده إلى الرجل المكبَّل دون أن يزيح نظره عن الضابط الذي راح يهزُّ رأسه، ثم مشيا معًا يتبعهم الرجال نحو المخيم بعد أن عاد العناصر الذين أنهوا تفتيش الخيام. تحدَّث الضابط معهم قليلًا قبل أن تنطلق مجموعة منهم ركبوا أحد البيكابات متوغلين في حقول الحنطة وقد أشهروا بنادقهم في كل اتجاه نحو الأرض.

وقفت أتابعهم قبل أن يعيدني صوت الضابط متحدثًا إلى الرجال الذين تدافعوا من كل اتجاه حوله وسط المخيم، تتبعهم بعض النسوة اللواتي اقتربن ليسمعن حديثه، وعلى الرغم من وقوفهم حوله، فقد تحدَّث مستخدمًا مكبِّر الصوت. قال إنهم لا ينوون البقاء هنا طويلًا، وإنهم جاؤوا لتحريرنا من طغيان داعش، وإن هذه إجراءات احترازية ضرورية لا يجب أن تُقابل بالاعتراض والتنمُّر، وإلا فإن عاقبة هذه الأفعال ستكون وخيمة.

«وإيمتْ نرجع»؟ سأل أحد الرجال.

تعالت الأصوات تكرر السؤال ذاته، أجابهم بأنهم سيعودون في أقرب فرصة بعد أن يؤمِّنوا القرية من أية هجمات محتملة، بالإضافة إلى أن كتيبة تقوم بتمشيط القرية والبحث عن الألغام والعبوات الناسفة والمفخخات.

«تِكسَّفنا، حالة الله الگشره»، قالت امرأة مخاطبة الضابط. أخبرها بأنه يعرف معاناتنا، وأنه هو أيضًا ترك عائلته خلفه وحياته ليساعدنا. كان يتحدث بنبرة هادئة وبطريقة توحي بتعاطفه مع ما يسمعه، لكنه سرعان ما استعاد نبرة صوته الحازمة عندما تكاثرت الأسئلة عليه وصار الجميع يتحدَّث في

الوقت ذاته، بين من يرغب بالعودة إلى القرية، ومن تستعطفه ليسمح لها بالوصول إلى بيتها لإحضار ثياب نظيفة لأطفالها، ومن يرجوه أن يدخل ليخرج دوابه التي تركها خلفه، ومن يريد أن يغادر هذه المنطقة كلها.

«ما في حدا راح يدخل القرية قبل ما نخلَّص شغلنا شو ما بتفهموا»؟ قال بنبرة غاضبة رافعًا صوته مُشوَّشًا بالمكبِّر، والتفت عائدًا يتبعه الجنود المسلحون، أدار رأسه نحونا مرة ثانية، وقال هذه المرة دون المكبِّر:

«اللي مو عاجبته القعدة هون بيروح على مخيَّم ثاني، أو بيروح لداعش، لجهنم».

أكمل طريقه ينظر نحو البيكاب الذي راح يخترق حقول الحنطة عائدًا إلى المخيَّم، وتبعه الجنود يمشون جماعات ومتفرقين.

تأخَّر عنهم الفتاتان وشاب آخر راحوا يضحكون بأصوات عالية عندما أشار الشاب الجندي إلى وجه الرجل تملؤه الجروح التي أحدثتها الشفرة في ذقنه. وضعوا الرجل الذي اعتقلوه في حوض البيكاب، وصعدوا يحيطون به قبل أن ينطلقوا مرة ثانيةً باتجاه القرية.

وقف الجميع لحظات بلا حراك يراقبون بنظرات مملوءة بالإحباط والتعب قافلة السيارات التي راحت تصعد المنحدر نحو القرية. ارتفع صوت المرأة التي اعتُقل زوجها تولول متحسِّرةً على حاله، التفتنا نحوها قبل أن نتفرَّق ويعود كل واحد إلى خيمته.

كانت حليمة تغيِّر حِفاضَ أختها عندما دخلنا الخيمة التي عمَّتها الفوضى وانطبعت آثار دعساتِ أحذيتهم على الوسائد والأغطية.

«لاحول ولا قوة إلا بالله»، قالت خولة ومدَّت يدها تلتقط الأكياس والأغراض المتناثرة. أرخيت شالي على رأسي وبدأت أساعدها أنا وآسيا. وضعنا الأشياء في أكياس بلاستيكية بلا ترتيب: ملعقة، علبة بهارات، إبرة وبكرة خيط، أدوية، ثياب.

كنا صامتات ثلاثتنا نستمع لحليمة تخبر أختها بما حدث قبل قليل، لكنها سردتها بطريقة ساخرة، ذكرت أشياء لطيفة لم تحدث، قالت لها إنهم سيسمحون لنا بالعودة قريبًا، يوم أو يومين على أبعد تقدير. قالت لها أيضًا إنهم سيفتحون الطريق لنا إذا أردنا أن نذهب إلى لبنان، «نروح نصيِّف وبعدين نرجع كلنا». كانت تمسح وجه أختها بطرف ملفعها وتشير لها بيديها دون أن تتوقف عن الحديث بصوت عالٍ وكأنها تسمعها. تضحك وهي تذكر أسماء أبنائها، صفات زوجها، تسرد جزءًا مما حدث، تعلِّق ساخرة على ما فعله الرجل الذي كان يحلق ذقنه، تذكر اسمه وتتنقل إلى حديث آخر. لكن وجه الرجل علق في

رأسي عندما أحنى رأسه قليلًا يراقب يد الشاب وهي تشير إليه، وظل وقتًا طويلًا يراقبهم مبتسمًا ومطرقًا رأسه في الوقت ذاته. كان الأمر موجعًا بسخريته، ولكن، ما الذي كانت تقوله ابتسامتُه وضحكاتُهم في تلك اللحظة؟ أتساءل الآن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الثاني والعشرون

الأيّام في المخيم لا تتشابه وإن بدتْ كذلك..

أصبحنا أنا وآسيا من أهل المخيَّم، تزورنا النسوة ونجلس في الخيمة أو تحت ظلال الأشجار، ويعلو الصخب في اجتماعاتنا، ضحك وقصص تتفنن آسيا بسردها عن كل شيء، بدءًا بطريقة طبخ الباميا المجففة إلى وضع طلاء الأظافر والكحل وجاراتها والرجال وطبائعهم بأسلوبها الساخر من كل شيء. نطهو الطعام أنا وخولة، المعكرونة والبطاطا والفاصولياء وما يتوفر لدينا، أساعد حليمة بالعناية بأختها قبل أن تدعوني إلى الذهاب معها لإعداد الخبز على الصاج، تضحك عندما أفشل في تقليدها، فتضيق عيناها بابتسامة لا أراها تحت لثامها، تتناول العجين من يدي، تمدُّه بأصابعها وتقلِّبه بخفَّة بيديها قبل أن تلصقه بالصاج الملتهب، تناديني الحاجة زهرة لأعطيها دواءها، أترك حليمة وأمضي إليها، أجلس إلى جوارها ونتحدث وقتًا طويلًا، ثم أعدُّ الشاي للنسوة مع غياب الشمس، وتعلو نارٌ وسط المخيم مع حلول الظلام يتحلَّق حولها الأطفال، يلقمونها أعواد الحطب لتستعرَ أكثر، ترتفع أصوات الرجال وتختلط بأحاديث النسوة من حولي مع جلبة الكؤوس والصحون التي تعد طعام العشاء، أنتظر حلول الظلام، الساعة السابعة والنصف لألتقي بيوسف، أخرج مع آسيا بحجّة قضاء حاجتنا، أتركها عند طرف الساقية تدخن وأمشي معه على طول الساقية، نتحدث من دون أن تغيب التفاصيل التي كنا نتجاهلها في لقاءاتنا الخاطفة عند باب البيت، أخبره بكل ما حدث معي منذ أن غادرت حمص، عن أحلامي التي تركتها ورائي ورغبتي في البدء من جديد، يصغي إليَّ، يعلِّق باهتمام على كل ما أقوله دون أن يتورَّط في أية أسئلة تقودني إلى كريم، أفهم هذا وأقدِّره، يحدِّثني عنه، عن حياته التي تركها في دمشق، عن أحلامه التي ينتظر تحقيقها بمجرَّد الخروج من هذا المخيَّم، عن حياة ممكنة لنا معًا هنا في القرية أو في تركيا أو في أي بلد يمكننا اللجوء إليه، أعترض على بقائنا في سوريا كلها، لا يمانع، وتأخذني أحلامه إلى أماكن بعيدة، آمنة وجميلة، أراني فيها معه تحت سقف بيت صغير ودافئ، أصدِّقه بالأمل الذي أعاد إحياءَه بداخلي، يمد يده إليَّ، يحتضنني، ويقبِّلني دون أتخلَّص من ارتباكي، أبكي وأضحك، يرتفع صوت آسيا مناديةً عليَّ، أتركه وأمضي متأخرة كالعادة، تفهم آسيا وتضحك ساخرة من ارتباكي، وفي كل مرة تسألني فيها عمَّا حدث، أكذب عليها، «حمارة»، تقولها ضاحكة ونعود إلى الخيمة، أروي لأحمد ونجاح قصصًا خيالية في الليل، قصصًا عن فتيات جميلات وأمراء نبلاء ونهايات سعيدة أتمناها لي ولهما، أحمل إسماعيل حتى تنهي خولة أشغالها، ترتسم غمازة على خده الأيسر، أداعب شعره الأشقر وأهدهده في حضني فينام، وفي الصباح يحبو إليَّ تاركًا ثدي أمه ليندس في

حضني رافعًا كفَّه لألاعبه، «باحْ باحْ يا عروق التفاح، إجا العصفور يتوضَّى، كسر إبريق الفضَّة»، أدغدغه فيضحك، ومع ضحكته يصحو الجميع.

سبعة أيامٍ انقضت منذ وصولنا، أصبحنا أنا وآسيا صديقتين، وتغيَّرت الخطة التي كنت قد وضعتها، هنالك آسيا، ويوسف، وخيارات كثيرة بدءًا بحليمة التي أصرَّت على أن نقيم معها إلى أن تهدأ الأوضاع وتفتح الطرق، وخولة التي دعتنا إلى الإقامة في بيتها بعد أن تسافر هي وأولادها إلى زوجها في ألمانيا. كانت كل الخيارات ممكنة ومقبولة مع إكرامهن لنا ومحبتهن التي غمرتنا. آسيا قررت أن تبقى في القرية بشكل مؤقت، فنزوحها إلى ابنة عمها في ريف حلب كان مرهونًا بوجود أبي كريم وقلة حيلتها، أمَّا الآن فيمكننا أن نبقى في القرية إلى أن نجد ما هو أفضل، وبالنسبة إليها، إلى أن تجد من هو أفضل كما تعلِّق غامزةً على أحد أبناء الحاج حسين. كانت شخصيتها تتكشَّف لي كل يوم، وتفاجئني كل يوم أيضًا، تحدِّثني عن نفسها وعمَّا لا تقوله أمام بقية النسوة، أراها تتعامل بكل حبٍّ وودٍّ مع حليمة وخولة والحاجة زهرة وتبادر بإظهار محبتها، ثم إذا جلسنا معًا تحاكم كل شيء تحت مبدأ اقتناص الفرص، لا يعزُّ عليها شيء، توجه انتقاداتها ساخرةً من أهل القرية والمخيَّم وتكون النتيجة دومًا لصالحها، كل ما لا فائدة منه لا قيمة له، «الحياة بنت كلب»، تعلِّق كلما استهجنت تعليقاتها الساخرة، «المحبة والبغضة بيناتهن شعرة، شدّي وارخي»، أفهمها ولا أستطيع مجاراتها.

لكن الحياة ليست كريمة دومًا، فقد آن لتلك الأيام أن تنقضي ليعود الانتظار كثيفًا وخانقًا عندما أشرق نهار اليوم الثامن.

كان يوسف قد غادر مع بعض شباب القرية إلى إحدى القرى المحررة التي سمحت قَسَد لأهلها بالعودة إليها لشراء ما يحتاجه المخيَّم وإجراء الاتصالات الهاتفية، بعد أن أعدُّوا قائمة طويلة بأسماء وأرقام أبنائهم وأقاربهم لطمأنتهم عنهم. خرجوا مع شروق الشمس يركبون دراجات نارية وسط الحقول المحايدة بين الجبهتين، القرية وضفة النهر المقابلة، متجاوزين القرية من زورٍ لآخر.

جلسنا أمام الخيمة كعادتنا بعد أن غادروا وهدأ المخيم وقتًا قصيرًا التفتَ فيه الناس إلى شؤونهم. شربنا الشاي، وتناولنا خبز الصاج مع اللبن الخاثر ومربى المشمش الذي أحضرته آسيا معها، ثم انحدرتْ سيارة جيب بيضاء من الوادي متجهة إلينا.

«ما عاد نخلص»، قالت خولة وهي تنفض بقايا الخبز المتناثر على ثوبها. نادت على طفليها اللذين كانا يلعبان مع أطفال آخرين بالقرب من حظيرة الأغنام. استجابا لها والتحق الأطفال الآخرون بأمهاتهم اللواتي جلسن في ظلال

الخيام، بينما وقف بعض الرجال قريبًا منا يتابعون السيارة وهي تتقدَّم نحو المخيَّم.

كانت آسيا قد ذهبت قبل ذلك لتملأَ الأباريق من صهريج الماء، ووقفتْ إلى جوار امرأة أخرى تنظر مثل الجميع إلى الضابط الذي أخرج ورقة من جيبه بعد أن انقطع هدير السيارة. راح الضابط ينقِّل نظرَه بينها وبين وجوه رجال القرية الذين التفُّوا حوله. تهامست النسوة عمَّا يريده الضابط من هذه الزيارة، «ربما سيسمحون لنا بالعودة إلى القرية»، قالت إحداهن، لكن امرأة أخرى كانت تجلس إلى جواري قالت إن هذا لن يحدث في القريب العاجل، وإنهم لم يسمحوا لأقارب لها في قرية أخرى أن يعودوا قبل مضي فترة طويلة، «أسبوع، أسبوعين شهر، الله أعلم»، ثم راحت تردد ما سمعته عما حدث لأهل القرى التي سبقتنا قبل أن تعلوَ أصواتهن من حولي يتحدثن في الوقت ذاته، كلٌّ إلى من تجاورها من دون أن يزحْنَ أنظارهن عمَّا يجري. وحدي كنت أنقِّل نظري بين آسيا والضابط. انقبض قلبي وأمسكت بطرف البساط وشددتُ عليه بيدي عندما استقرَّت عيوني تتابع الضابط الذي أكمل طريقه إلى داخل المخيم يتبعه بعض الرجال، بينما وقف بعضهم الآخر في مكانه يتابعون جنديًّا كان قد أخذ أحد الرجال وأجلسه في المقعد الخلفي للسيارة.

«اعتقلوه»؟ سألت إحدى النسوة.

«لا، ركب منّو ومن حاله بالسيارة»، علَّقت أخرى.

«مُخبر جديد»؟ سألت إحداهن.

«الله العالم»، أجابتها خولة قبل أن أنهض أنا وهي واقفتين في مكاننا، ثم فعلت الأمر ذاته حليمة ونساء أخريات.

كان الضابط قد توقَّف قريبًا من آسيا، رأيتها تتقدم نحوه، ارتديت حذائي ومشيت مسرعة إليها، ولحقتني خولة وحليمة التي أمسكتني بيدي وأوقفتني. وقفتُ إلى جوارهما ننظر إلى آسيا التي أطرقت برأسها إلى الأرض بين الحاج حسين والضابط، وعندما رأتني ضيَّقت عينيها ورفعت حاجبيها ببطء تحذرني من الاقتراب منها.

سمعت الحاج حسين يقول له إنها امرأة مسكينة ولا علاقة لها بأحد، امرأة راح يرددها أكثر من مرة وهو يشرح له أنها ضيفته، وكان الضابط هو الآخر يعيد التعليق ذاته: «تحقيق بسيط وبترجع».

حاول الحاج حسين أن يمنعه، لكنه أصرَّ على موقفه في وجوب أخذها للتحقيق، ثم طلب من الجندي أخذها إلى السيارة. مدَّ الحاج حسين يده فاصلًا

بين آسيا والجندي لوقفه عن أخذها، احتقن وجه الضابط، «ما في شي اسمه على مسؤوليتي»، قالها بوضوح يخاطب الحاج حسين بنبرة حازمة. تدخَّلت آسيا، رأيتها تنقِّل نظرها بين الرجلين. أسدل الحاج حسين يده ورجع خطوة إلى الوراء. مشت آسيا برفقة الجندي ومشيت ومن معي خلفها يلحقنا الضابط الذي ترك الحاج حسين ومن بقي معه من الرجال خلفه. طلبت آسيا من الضابط أن يسمح لها بارتداء عباءتها، أشار برأسه إلى الجندي ومشى معها إلى باب الخيمة، ثم دخلت آسيا ودخلت معها.

«شوفي؟ ليش رايحة معهم»؟ سألتها، ولكنَّها لم تجبني وانشغلت تفتِّش في كيسها، وعلا في الخارج صوتُ المرأة التي اعتقلوا زوجها في المرة الماضية ترجوه وتتوسَّل إليه أن يطلق سراحه وأن يراعي كبر سنه وضعف حالته، وأن لا علاقة له بما فعله أولاد أخيه. رفعت آسيا ثوبها وأخرجت من جيب بيجامتها التي كانت ترتديها تحته قطعة قماش صغيرة ودسَّتها في يدي.

«خبِّئيها جيدًا»، قالت وهي تطوق كفِّي بأصابعها.

كانت حلقة صلبة، قدَّرت أنها إسوارة ذهب، رجوتها ألا تذهب معهم، ثم التفتُّ إلى حماقة ما أطلب، فرجوتها أن تعود بسرعة.

«ما في شي بيخوِّف، أكيد حدا خبرهم عنّي وعن ابن هالكلب، لا تخافي»، قالت وهي تنقِّل نظرها بسرعة بيني وبين الباب.

«طيب ديري بالك على حالك»، قلت لها ودفعت بجذعي نحوها أريد احتضانها، لكنها تراجعت إلى الوراء وصدَّتني بعينها. لفَّت الشال على محيط وجهها وخرجت. أمسكتُ دموعي عندما رأيتها تنظر غاضبة نحوي قبل أن تسحب وجهها من أمامي وتخرج من الخيمة وأخرج وراءها.

«وين ماخذها»؟ سألت الحاجة زهرة الضابط.

توقَّف ونظر إليها حيث كانت تجلس متربعةً على غير عادتها وقد رفعتْ رأسها تنظر نحوه. أجابها الإجابة ذاتها.

«المرأة غريبة وهي ضيفة عندي»، علَّقت الحاجة زهرة.

«مَرْت شيخ الجامع تبع داعش ضيفتك»؟ سألها مستهزئًا.

«المرأة مالها علاقة لا بداعش ولا بغير داعش»، أجابته

«تحقيق وإذا ما عليها شي بترجع، هذا إجراء ضروري يا حجة».

هزَّت الحاجة رأسها. قالت بعد ذلك وهي تحاول النهوض: «أروح معاها».

احتقن وجه الضابط، أبعد نظره عن عينيها ورفع صوته غاضبًا.

«ما في حدا يتحرَّك من مكانه، ساعتين وبنرجِّعها لنص المخيم».

أكمل طريقه بعد أن كان الحاج حسين قد وقف مع بعض الرجال وراءنا عندما رفعت الحاجة زهرة صوتها مخاطبة الضابط:

«ثلاث ساعات تلاگيني عندكم».

نظر إلى وجه الحاجة زهرة وقد ضاقت حدقتا عينها وتغضَّن وجهها. انسحب من أمامها إلى السيارة دون أن يعلِّق. جلست آسيا في المقعد الخلفي إلى جوار الرجل الذي ركب السيارة قبل ذلك، ثم أدار السائق المحرِّك ومضوا.

ظللت واقفة في مكاني أراقب السيارة وهي تبتعد عن المخيم صاعدة المنحدر نحو القرية. أمسكت بيدي خولة وجرَّتني برفق لأعود معها. انهمرتْ دموعي ومشيتُ مطرقة برأسي إلى الأرض أتحاشى العيون التي صوَّبتْ نظراتها نحوي وراحت تتمتم عمَّا حدث لآسيا زوجة شيخ الجامع، وعمَّا سيحدث لابنته، زوجة ابنه، لا فرق!

راحت النسوة يوزِّعن مواساتهن بيني وبين المرأة التي اعتقل زوجها قبل ذلك. كنَّ يواسينني بالكلمات ذاتها دون أن تبدِّدَ أية كلمة الغربة التي هبطتْ فوقي وأغرقتني بها.

طلبت مني الحاجة زهرة أن أدخل إلى الخيمة وأرتاح، أومأتُ برأسي موافقة، لكنني عندما نظرت إلى الخيمة، أصابني شعورٌ بالوحشة، رأيتها قبيحة وبائسة وأحسست أنها بشقوقها التي أحدثتها العاصفة وكأنها وجه يسخر مني، لذلك أكملتُ طريقي إلى أشجار التوت.

جلست مسندة ظهري إلى جذع الشجرة التي كانت أقرب إلى الطريق المنحدرة ورحت أجيل نظري في القرية. كانت هامدة أمامي، أشجار الحور ثابتة لا تتأرجح رؤوسها المطلَّة من وراء أسوار البيوت، لا عصافير في سمائها، لا بشر يطلُّون من كتف الوادي. كل شيء رأيته كان يوحي بالموت والسكون، آسيا وحدها كانت تتحرك في رأسي وأنا أتخيَّل ما يمكن أن يحدث معها هناك. كانت الوحشة تنخر عظامي وأنا أزيح رأسي أبحث عن يوسف. كنت أعرف أنني لن أراه، ومع ذلك بحثتُ عنه كثيرًا بعد أن ودَّعته مرتين، مرة هذا الصباح بنظرات خاطفة أسرقها على غفلة من عيون النسوة من حولي، وقبلها، في لقائنا المعتاد، بقبلات كان يسرقها بين جُمل قصيرة ومتقطعة نقولها، هو يلحُّ يسألني عمَّا أحتاجه ليحضره لي وأنا ألحُّ عليه بألا يجعلني أنتظر طويلًا، لكنه انتصر في النهاية عندما استوقفته، «مرايه، بدي وصيك ع مرايه».

كانت تلك الساعات التي قضيتها من دونهما سجنًا ضيقًا على الرغم من الرحابة التي تطوِّقني من كل جانب. صار وجودي في ذلك الوقت والمكان معادلًا موضوعيًّا للوحدة، بكل ما في تلك الوحدة من غربة وخوف ووحشة وترقّب لما يحدث في الحاضر ولما سيحدث بعد ذلك. خفتُ كثيرًا على آسيا، وخفتُ على نفسي أيضًا، أن تنحدر السيارة مرة ثانية وتأخذني. لم أكن قادرة على تحديد ما إذا كنت أريد أن أكون معها ولو في زنزانة، يكفي أننا نتشارك وحدة الحال، السبب ذاته فيما كنا فيه على الأقل، أبو كريم، والارتياب ذاته مما ينتظرنا.

بكيت وقتًا طويلًا في جلوسي وحيدةً تحت الأشجار. كنت «غيدا» أخرى حبيسة هذا الفضاء الواسع من حولي، وكانت السهول الخضراء التي تحيط بي من كل جانب هي الحرية، لكنها اتساع مسيَّج بالخوف، «هو كذلك»، قلت في سرِّي وابتسمتُ ساخرة وأنا أوافق أبا كريم عندما وصفه بخيار من لا خيار له.

أخرجتُ قطعة القماش من جيبي وفتحتها. كان إسوارة ذهبية كما توقعت. لم تذكر آسيا لي وجودها ولم أرها في يدها عندما كنا في القرية، هذا شأنها، لا علاقة لي. واعتقدت أيضًا أنها تخبئها للأيام القادمة إذا ما اضطرت إلى الإنفاق على نفسها. ولكن، هل اشتراها أبو كريم لها؟ من عملي؟ تساءلت مرتابة، لكنني دفعتُ بهذا الاحتمال بعيدًا عندما قفز وجهه أمام عيني لحظةً قبل أن يطرده صوتُ الحاجة زهرة تناديني وقد وقفتْ مستندةً إلى عصاها.

أعدتُ تغطية الإسوارة بالقماش ودسستها في جيبي، ونهضتُ لأساعد الحاجة زهرة على الجلوس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الثالث والعشرون

«البلاد بأهلها، فإذا غاب أهلُها ما عادت بلادًا».

كان هذا آخر ما قالته الحاجة زهرة في خاتمة قصتها وهي تتحسس جذع شجرة التوت الوسطى، ثم جلسنا صامتتين وقتًا طويلًا قبل أن ترتفعَ الأصواتُ منبهةً إلى عودة قَسَد.

توقفت السيارة بالقرب منا عند أسفل الطريق المنحدرة، أنزلتْ آسيا وعادت أدراجها من حيث جاءت. ركضتُ مسرعة إليها تتبعني المرأة التي اعتقل زوجها، احتضنتُها ودموعي تسبق كلماتي مرحبةً. ربَّتت على كتفي وأبعدتني عنها عندما أمسكت المرأة بثوبها وشدَّتها برفق متوسلةً إياها أن تخبرها إذا رأت زوجها، لكن آسيا قالت إنها لم ترَه، وإنها كانت محتجزة في غرفة بعيدًا عن الرجال. أقبلت حليمة وبقية النسوة اللواتي جئن للترحيب بعودتها، ثم عدنا جميعًا إلى ظلال التوت. انحنت آسيا وقبَّلت رأس الحاجة زهرة وشكرتها على موقفها، ثم جلسنا حولها وقد استعاد المكان صخبه، وانهالت النسوة على آسيا يسألنها عما حدث معها وعن القرية. أخبرتهن بأنها رأت بيوتًا كثيرة قد تضررت، بعضُها مدمر كليًا. قالت إنها كانت خائفة ولم تستطع التركيز، وعندما ألَحَّت النسوة عليها بالسؤال مستفسرات عن أماكن تلك البيوت، تدخلت الحاجة زهرة وطلبت منهنَّ التوقف عن هذه الأسئلة. لكن المرأة التي اعتقل زوجها عادت وسألت آسيا عنه، فأجابتها آسيا بالإجابة ذاتها، قالت إنهم أخذوها إلى مدرسة القرية الابتدائية الّتي حوّلوها مقرًا لهم، وإنها جلست طوال الوقت في صفٍّ مدرسي برفقة ثلاث فتيات تناوبْنَ على التحقيق معها.

«هل أسأن معاملتك»؟ سألت خولة.

«أبدًا، جلست طوال الوقت صامتة أستمع إليهن من دون أن أفهم كلمة واحدة. كن يتحدَّثن بالكردية، وعندما بدأن التحقيق معي تحدَّثت واحدة منهن معي بالعربية. سألنني عن أبي كريم وما عرفته منه عن الدواعش، في النهاية ما الذي أعرفه؟ لا شيء. ملأن أوراقًا بيضاء وخرجْن، ثم جاء جنديٌّ ووضعني في السيارة وعدت إلى المخيَّم».

«ونسرين»؟ سألت الحاجة زهرة آسيا.

نظرت الأخيرة إليَّ نظرة خاطفة قبل أن تجيب بالنفي برأسها، ثم قالت:

«سألنني إن كان لأبي كريم أولاد أو عائلة، فأخبرتهم بأن لديه ابنًا واحدًا معتقلًا لدى التنظيم قبل سيطرته، ولا أحد يعرف إن كان..».

تركت جملتها الأخيرة ناقصة.

«ولكن ماذا لو جاؤوا يسألون عن نسرين»؟ سألت خولة.

«ستذهب وتقول ما لديها، في النهاية هو مجرد تحقيق، تحقيق تافه».

«ما يصير ألّا الخير انشالله». علَّقت الحاجة زهرة وساد الصمت لحظاتٍ مفسحًا المجال لأصوات الأطفال وهم يلعبون قريبًا منا عند صهريج الماء. صاحت خولة على ابنيها متوعدة إياهما بعقاب شديد إذا بللا ثيابها مرة أخرى.

«وإبراهيم العلي»؟

سألت إحدى النسوة آسيا عن الرجل الذي ذهب معها صباحًا. أخبرتها بأنها رأته يركب سيارة ثانية بعد وصولهما، وأنها لم ترَه بعد ذلك ولا تعرف إلى أين ذهب معهم.

تعالت أصوات النسوة يحوقلْنَ. قالت امرأة إن زوجها أخبرها بأنَّهم طلبوا أن يرافقهم أحد رجال القرية ليدلّهم إلى بيوت بعض المطلوبين منها. ولكنّ خولة راحت تتحدث عن نهب وسلب حدث في القرى الأخرى التي تمَّ تحريرها. «حاميها حراميها»، علّقت إحداهن، وارتفعت أصواتهن يتجادلن بين من تدّعي بأن عناصر تلك القوات هم من كانوا ينهبون البيوت المهجورة، وبين من تظنّ بأن عصابات كانت تتسلل إلى القرى مستغلة نزوح أهلها عنها.

نهضت الحاجة زهرة بعد أن طلبت من خولة مساعدتها للعودة إلى الخيمة قبل مغيب الشمس، ساعدتها حليمة أيضًا، ونهضت النسوة وراءهنَّ وتفرَّقن في أرجاء المخيَّم، ولم يبقَ سوانا أنا وآسيا.

«قلقت عليكِ»، قلتُ مخاطبة آسيا.

«أنا بخير»، أجابتني وسحبت البساط إلى أول الأرض المنحدرة وراء الأشجار، ثم جلست مديرة ظهرها للمخيم. ربَّتُّ على كتفها بعد أن جلست بجوارها ورحت أتأمل أنا الأخرى حقول الحنطة التي التمعت رؤوسها بفعل أشعة الشمس، وقد نفذت خلال غيومٍ متفرقة بدت عصر ذلك اليوم وكأنها تنحدر هي الأخرى إلى المغيب.

«يجب أن أكون بخير»، قالت آسيا وكأنها تحدِّث نفسها.

«أتمنى ذلك»، علَّقتُ.

التفتت نحوي ورمقتني بنظرات حادة تتفرَّس ملامح وجهي، ثم سألتني:

«هل تعرفين أكثر ما أزعجني اليوم»؟

أومأت برأسي بالنفي، أدارت رأسها تنظر أمامها، ثم أجابت:

«كنَّ يشربن الشاي، ألقيتُ التحية، لكنهن لم يلتفتن إليَّ. مرَّ وقت وأنا واقفة في مكاني وراء الباب بعد أن أوصده الجندي الذي أدخلني وغادر. لا أدري كم دقيقة مرَّت، ربما ثلاث، خمس، عشر، لا أدري، لكنني شعرت وكأنني وقفت سنة كاملة في مكاني قبل أن تشير إليَّ إحداهن بيدها لأجلس على مقعد في آخر الصَّف، في الزاوية ذاتها التي كنت أقف فيها دومًا كلما عاقبتني المعلمة وأنا صغيرة. هذه المرة كانت عقوبتي مختلفة، تجاهلنني وكأنني لست موجودة».

التفتتْ نحوي وأكملت:

«جلست طوال الوقت أراقب حركات أيديهن، ضحكاتهن، طريقة جلوسهن. كنَّ نساءً مثلنا، وربما هذا ما زاد من شعوري بالذل والإهانة لمجرد التفكير بأن امرأة تعتقل امرأة أخرى وتحقِّق معها».

«وما الخطأ في ذلك»؟ سألتها.

«كل الخطأ، تعرفين؟ أتقبَّل كل ما يمكن أن تفعله المرأة في هذا المجتمع القذر لتعيش، لتنجو بنفسها، لكنني لم أستطع تقبَّل امرأة مثلي تتعمَّد إهانتي وإذلالي. لماذا تفعل المرأة هذا؟ لأجل ماذا؟ لأجل وطن؟ دولة؟ منصب»؟

صمتت بعد ذلك وقتًا التقطتْ فيه غصنًا يابسًا وكسرته، ثم أكملت:

«كانت ملامحهن تتغيَّر عندما يتوجَّهن بالحديث إليَّ، تصبح صارمة وحادة، وجوه رجال، ثم إذا تحدَّثن فيما بينهن عادت وجوههن إلى طبيعتها، نساء مثلنا، ماذا تسمُّون هذا؟ أنت بالجامعة وتعرفي أكيد».

كانت آسيا تعتقد أنني لكوني أحمل شهادة جامعية فهذا يعني أنني أعرف كل شيء، أشرت إليها برأسي أنني لا أعرف. قالت بعد أن أشعلت سيجارة:

«بعض النساء يتمنين لو يمتلكن قضيبًا، يكرهن أجسادهن، كل عضو في أجسادهن لا يشبه الرجل يصير عيبًا»، ثم التفت نحوي وسألتني:

«هل تمنيت يومًا أن تكوني رجلًا»؟

«مراتٍ قليلة»، أجبتها.

«أما أنا فلم أتمنَّ يومًا أن أكون رجلًا إلَّا هذا اليوم، تمنيت لو أنني أمتلك قضيبًا لأدسَّه في..».

صمتت تمنع نفسها عن التفوُّه بكلمة نابية، ولم يكن هذا طبعها، أخذت نفَسًا من سيجارتها ونفثته، ثم أكملت متسائلة:

«ما الذي تركنه لبيوتهن وأطفالهن؟ ذكريات عن بنادق ومعارك»؟

«وما العيب في ذلك؟ ما قلته عن النساء ينطبق على الرجال أيضًا، ولكن هل تعرَّضت للضرب على أيديهن أو..».

لم تتركني أكمل سؤالي، أجابت مستنكرة:

«طبعًا لا، ولو أن إحداهن فعلت هذا لقطعتُ يدها ولو قطعوا رأسي».

«على الأقل، هنَّ أفضل من كتيبة «الخنساء» في تنظيم الدولة، لا ضرب ولا تعذيب ولا إهانات».

«الأسباب ذاتها، المرأة التي تلوِّح في وجه امرأة أخرى بالبندقية عاهرة».

«ربما، ولكن، هل فعلًا لم تتمني ولو لمرة واحدة أن تكوني رجلًا»؟

«أبدًا، ما الذي يفعله الرجال أكثر من النساء؟ الحرب؟ صارت المرأة تحمل بندقية وتقتل وتلوِّح بها في وجوهنا، مثل هؤلاء الفتيات، مسخرة!».

«أقنعتني..»، علَّقتُ ممازحة بقصد التخفيف عنها.

صمتت لحظات تدخِّن فيها وتجيل نظرها في الحقول التي بدأت تغزوها العتمة، ثم قالت:

«لن أبقى في هذه البلاد النجسة، ما الذي جنيناه منها سوى التعب والجوع والحرب؟ وفي النهاية نحن من يدفع ثمن هذه الحماقات».

«نحن»؟ سألتها.

«نعم نحن، أنا وأنتِ وكل امرأة مثل حالتنا، لا رجل لديها ولا بندقية».

ألقتْ سيجارتها وأشعلتْ واحدة أخرى.

«والله يا بنت الحلال، ما الذي يفعله الرجال غير القتال والشجار والسكر والعربدة؟ مجانين لا يفكرون إلا في رغباتهم، كل شيء عندهم يقاس بمبدأ الفوز والخسارة وكأنهم يلعبون كرة القدم، يتنافسون على كل شي، النساء، المال، السُّكر، اللعب، حتى هذه الحرب».

«صحيح»، علَّقت وتركت لها المجال لتسترسل. أكملتْ:

«عندما كنت أدير نظري إلى الشباب الذين نبتت شعيرات في ذقونهم مثل لحية العنز، يحملون أسلحة ويقفون عند الحواجز من كل الجماعات، نظام ونصرة وداعش. هؤلاء لو وجدوا ملعبًا يلمّهم لما فعلوا بنا ما فعلوه».

«ممكن».

«تاخذيني على قد عقلي»؟ سألت، وأكملت دون أن تنتظر ردِّي:

«سأرحلُ ولن أعود إلى هذه البلاد أبدًا».

«الحياة جيدة حيث لا نكون»، علَّقتُ.

التفتت نحوي مستفهمة.

«هذا مثل روسي، المكان الصحيح قد لا يكون موجودًا إلا في خيالنا»، فسَّرت لها مغزى المثل.

«ألا يوجد مكان لا تُهان فيه المرأة لكونها امرأة»؟ سألتني.

«لا أعرف. ربما أمريكا، أوروبا، ولكن النساء هناك يعملن في الشرطة والجيش أيضًا». أجبتها وكنت أنوي ممازحتها.

«أفضل من رؤية كل هؤلاء الخراوات، امرأة تهينك لأنها تحمل سلاحًا تستطيع أن تفرغه في فرجك، تفيه».

علقتُ: «أنت غاضبة، هذا كل ما في الأمر، في كلِّ مكان هنالك نساء مثل هؤلاء النساء، ورجال مثلهن أيضًا. أنت فقط تشعرين أنك ضعيفة، تتعبك حقيقة أنك ضعيفة الآن، عاجزة مثلي، ومثل كل هؤلاء الناس من حولنا. كلنا في النهاية ضعفاء عاجزون، على الرغم من أننا الأكثرية، وهذه هي المفارقة!».

أمالت رأسها ومطَّت شفتيها، وراح جسدها يتأرجح ببطء إلى الأمام والخلف وقد لفَّت ساقيها بيديها. قالت بعد ذلك:

«أريد أن أذهب إلى مكان لا يعرفني أحد فيه، أعمل وأنفق على نفسي، سأدرس ربما، أريد أن أعوِّض كل ما فاتني».

«هذا تحوُّل خطير ست آسيا»، علَّقتُ قبل أن أخرج الإسوارة من جيبي وأعطيها إيَّاها. أمسكتها وراحت تتفحصها بحذرٍ، ثم لفَّتها بالقماش مرة ثانية ودسَّتها في جيب ثوبها قائلة:

«هذه كل ما بقي لديَّ بعد أن بعت ذهبي كله وأنفقته على أختي وأولادها. كان عندي ذهب كثير، وفي الأخير، ذهب الذهبُ وذهبوا معه، ولم تبقَ سوى هذه الإسوارة، أبيعها وأهرب بثمنها».

«وماذا حدث لخطتك في البقاء في القرية»؟

«شغلة فاضية»، قالت وأفلتتْ يديها عن محيط ركبتيها، ثم أسندت ظهرها إليهما وراءها.

«سنذهب إلى ابنة عمي، ومن هناك سندخل إلى تركيا مبدئيًّا».

«ندخل»؟

«أنا وأنتِ، يمكننا أن نبدأَ حياة جديدة، سنتساعد في البداية، ثم سيفرجها ربُّك».

«ولكن، أنتِ تعرفين أنني لا أملك مالًا كافيًا وهذه..».

قاطعتني:

«سنتدبر الأمر، وثمن هذه الإسوارة يكفينا معًا في البداية، لديكِ شهادة تستطيعين أن تجدي عملًا بسرعة، وأنا أعمل أيَّ شيء، في الغربة لا عيب ولا حرام».

رفعتْ نظرها إليَّ وحدَّقت بي قبل أن ترتسم ابتسامةٌ سرعان ما استحالت ضحكة عالية. ابتسمت أنا أيضًا للخاطر الذي أضحكها. قالت وهي تعتدل في جلوسها:

«أنت خياطة، شو رأيك استثمرك مثل أبو كريم؟ نهرب على شي مكان فيه داعش وتشتغلي تفصيل عبايات، قال تعودنا عليكم ماعاد نعرف نعيش من دونكن».

«تفي من تِمِّك، أنا اللون الأسود كله ما رح ألبسه بحياتي».

نظرتْ إلى عباءتها وراحتْ تتفحَّصُها بأصابعها ثم قالت:

«ولا أنا. بكرة بتركيا بنطرون أو چبُّونة فوق الركبة ويلعنْ أبو كل شي».

قالت وعادت ملامحها إلى تجهمِّها.

«مارح تدوري ع زلمة تاني»؟

«قصدك خامس؟ لا كفاها المولى إلا إذا كان بني آدم، لأنه كل اللي عرفتهم حيوانات أنتي أكبر قدر».

«ممكن نلاقي واحد بتركيا أو بأوروبا»، علَّقتُ.

ابتسمتْ مستهزئة، ثم قالت وكأنها تحدِّث نفسها:

«أشقر وعيون زرق، إيْ نجرب البضاعة الأجنبية مو غلط».

«وأنتِ»؟

أدرتُ رأسي إلى الحقول وكان هنالك أطفال يركضون أمامنا وقد استطالت خيالاتهم وعِبرتنا. رحت أنظر إلى قرص الشمس يسقط من يد الغيوم إلى المدى وأفكِّر في إجابة تختصر ما أريدُ قوله.

«صار الرجل مرتبطًا عندي بفكرة السجن، هذا ما تعلّمته».

«ويوسف»؟

أخذتُ شهيقًا عميقًا وزفرته بقوَّة قبل أن أجيبها:

«يوسف في مكان ما قريب منِّي. كان النافذة الوحيدة لي في هذا العالم، النافذة التي أوصدتُها وفتحتُها بيدي دون أن أعرف ما الذي أريده في الحالتين. وأحيانًا أراه هو الآخر سجينًا مثلي، وما بيننا ليس أكثر من حاجتنا إلى من يشاركنا الزنزانة ذاتها، هل فهمتِ ما أقصد»؟

هزَّت رأسها تفكِّر في كلامي ثم قالت:

«ربما يستطيع أن يذهب معنا إلى تركيا، عادي، الرجال عندما يحبون يرتكبون حماقات كهذه، سيترك كلَّ شيء ويلحقكِ».

«قال إنه سيحاول أن يغادر البلاد هو أيضًا».

«سيحاول»؟ سألتني وأدارت جسدها وقابلتني قائلة:

«سيحاول غير سيذهب، هذا لا يكفي».

أخفضت رأسي متحاشية نظراتها، لكنها رفعت ذقني بأصابعها، وعندما تقاطعت نظراتنا قالت بابتسامة:

«أنت تحبينه».

«لا، لا أدري».

«خائفة»؟ سألتني وسحبت أصابعها.

«ربما، ولكن، تصدِّقين؟ ما عدت أميِّز بين خوفي وانتظاري».

مطَّتْ شفتيها تفكِّر في كلامي، ثم قالت:

«أعرف ما يريده الرجلُ من المرأة، ولكنني أحيانًا كثيرة لا أعرف ماذا نريد نحن من الرجال».

«أريد أن أستعيدَ نفسي، أن أختبرَ شعوري نحوه في ظرف غير هذا الظرف، أريد أن أعرف إذا كنت أحبه، أو أنني باختصار أكرِّر الخطأ ذاته مع رجل آخر، أحتاج إليه، وأدلُّه إلى مفاتيح زنزانتي».

هزَّت رأسها، ثم نظرت نحوي وقالت مستهزئة:

«شاطرة بصفّ الكلام».

ابتسمنا معًا ساخرتين. طلبت مني أن أخبرها بعد ذلك بما حدث بيني وبين يوسف ليلة البارحة. لم يكن هنالك شيء يستحق أن أقوله، لكنني مع ذلك أخبرتها بما حدث. ضحكتْ بصوت عالٍ، «حمارة»، قالت وهي تمطّ يديها إلى الأعلى.

«هذه قصة جميلة على الأقل، أفضلُ من بقية القصص في هذا المخيم».

«وأنتِ»؟ سألتها.

«أنت تريدين استعادة نفسك وأنا أريد نسيانها، ما أجمل أن يصبح الإنسان منسيًّا»!

أجابتني ورمت نفسها على البساط، ثم عقدت يديها تحت رأسها وأغمضتْ عينيها..

«ستنامين»؟ سألتها.

هزَّت رأسها بالنفي. قالت بعد ذلك دون أن تفتح عينيها:

«هنالك قصص جميلة نريد أن نحفظها، وقصص سيئة نريد أن ننساها، هل هنالك طريقة لذلك»؟ سألتني وصمتت بعد ذلك وقتًا طويلًا إلى درجةٍ اعتقدت فيها أنها نامت.

أزحتُ نظري عنها ورحت أفكر في إجابة عن سؤالها الذي استوقفني كثيرًا، كيف يمكن إسقاطُ الذكريات القبيحة التي عشتها؟ وهل هنالك طريقة حقًّا لمحوها من الذاكرة، للقفزِ فوقها وكأنها لم تكن؟ كيف أنسى أنني عشت هذه الأيام؟ وهل حقًّا النسيان نعمة متاحة للجميع؟ لست أدري. كل ما أتمناه أن أخرج من هنا سالمة جسديًّا ونفسيًّا.

قالت آسيا قاطعةً شرودي: «عندما نتوقف عن سرد القصة السيئة فإننا ننساها، هكذا لا يبقى معنى لقصة لا أحد يسردها».

أدرتُ رأسي نحوها مذهولةً من تعليقها. ابتسمتْ وأغمضتْ عينيها مرة ثانية، ثم قالت:

«المعلمة آسيا إبراهيم».

«أحسن معلمة كمان»، قلت لها وجلست أفكر في قولها وأنا أجيل نظري في المخيَّم أبحث عن يوسف وأعرف أنه لن يعود الليلة.

كان أهل القرية منشغلين كلٌّ في شأنه داخل الخيام وخارجها، وكان الأطفال في مكانهم المعتاد بالقرب من حظيرة الأغنام، وكان هناك نساء يغسلن الأواني عند صهريج المياه، وكانت الشمس قد غابت تاركة أشعتها وراءها

تذوب في عتمة الشرق، ولم تكنِ العصافير تزقزق، ولم تنبحِ الكلاب، ولم أسمع صوت أحدهم يتحدَّث أو ينادي.

كل شيء كان ساكنًا لحظة الغروب، ونسمات باردةٌ تتنفسها الأرض وتزفرها مشبعة برائحة التراب، ولم يكن هذا كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش الرابع والعشرون

«شوفي»؟

سألتني آسيا ورفعت رأسها فزعةً تنظر معي إلى الفوضى التي عمَّت المخيم مع دويِّ انفجارٍ عنيف في أطراف القرية وانطلاق الرصاص كثيفًا. نداءات وصراخ واستغاثة بشرٍ يركضون في كل اتجاه. ومع أن الجميع كان يتحدَّث عن وجوب الانبطاح على الأرض في حال وقوع شيء من هذا القبيل، فقد انبطح بعضهم وبقي بعضهم الآخر يركض مخفضًا رأسه، قبل أن ينبطحوا على الأرض مستجيبين لتحذيرات آخرين لهم.

لم يدم إطلاق الرصاص طويلًا، زخات كثيفة انقطعت وانقطعت معها كلُّ الأصوات، وهيمن السكونُ علينا وقتًا طال ونحن على هذه الحالة، ثم ارتفع نباح الكلاب وتعالت الأصوات مجددًا. نهضنا بعد ذلك ووقفنا نتفقَّد أنفسنا وكأنّ كل واحد منا أراد أن يثبت لنفسه أنه ما زال حيًّا، جسده كامل على الأقل.

«الله يستر»، قالت آسيا.

نفضنا ثيابنا وحملنا البساط مسرعتين إلى الخيمة قبل أن يأخذنا صوت خولة تصيح على حليمة، ثم غاب اسمها وراء صراخ نسوة أخريات ركضن وراء خولة، ثم ما عدتُ أميِّز الوجوه، تشابهت، ثم تطابقت. أجساد كاملة كانت تركض أمامنا وخلفنا وإلى جانبنا، ألقتْ آسيا البساط وركضت. احتجت لحظة لألتقط المعنى من ركض الجميع إلى حليمة، ثم ركضتُ أنا أيضًا إليها.

الثوب يقيِّد خطواتي، الثوب الذي أهدتني إياه، الأصوات ترتفع باسمها وتختلط بالغبار الذي أثارته خطوات الراكضين حولي. أختنق، تتعلق ذرّاته بلساني، وبصعوبة أراها من وراء حجاب الغبار والوجوه الهلعة، تحتضن عنزَها، يسيل دمهما معًا، تلتفُّ يد حليمة على عنقها وعيناها مرفوعتان إلى آخر شعاعٍ تلفظه الشمس في سماء ثقيلة على رؤوسنا. تتسع بركةُ الدم، تتسع دائرة الأصوات أيضًا، تستطيل، تتمدد، تصبح الصرخة بطيئة ومستفزَّة، تصفعني أكتاف تتدافع، أتراجع، تشدُّني يد آسيا إلى الوراء، أتداعى، يغيب وجه حليمة وراء الأجساد التي استحالت إلى صراخٍ وكتلةٍ من الهلع، تفلتُ يدي من يدها فأسقط كأنني دلو ماء يندلق على الأرض دفعةً واحدة، تحاول أن ترفعني أكثر من مرة، ثم تستسلم وتقف إلى جواري ويغيب وجهها مرة ثانية. لم أعد أرى سوى كتلة الهلع وهي تتفرط إلى حباتٍ متناثرة، قطع خرزٍ غامقة تنتثر دفعة واحدة من خيط مسبحة بطول تلك اللحظة وراء رجالٍ حملوا حليمة إلى داخل المخيم. تستعيد الوجوهُ ملامحَها داكنةً في العتمة، أصواتُهم تصبح

أوضح، عويلٌ يختلطَ في رأسي مع صورة حليمة التي اندفعت إلى وجهي، واستقرَّت بصورتها التي رأيتها فيها عندما كنا تحت ظلال التوت. لم تتكلَّم كثيرًا، ذهبتْ وعادت لتطمئن على أختها أكثر من مرة. كانت تجلس ساهمةً معظم الوقت، ثم نهضت وقالت إنها ستطعم أختها وتغيِّر لها قبل مغيب الشمس، ولكن، كيف ماتت؟ تساءلتُ في سرّي، وجاءتني الإجابة على ألسنة النسوة اللواتي مشين معنا، أرادت أن تعيد عنزها التي كانت قد ذهبت بعيدًا، في المساحة الفاصلة بين الزور والقرية، وكان بعض عناصر التنظيم تسللوا عبر الزور مستغلين حركة النازحين في المخيم، واشتبكوا مع إحدى نقاط قَسَد على حدود القرية القريبة من الزور. رصاصة طائشة؟ قنَّاص؟ من قتلها؟ ولماذا؟ بالخطأ؟

وضع الرجالُ حليمة على حصيرة بالقرب من خيمتنا وانسحبوا إلى الوراء أمام النسوة اللواتي تدافعن حولها يبكين ويصرخن وقد تحلَّق الأطفالُ حول الدائرة التي ضربنها حول الجثة.

ارتميتُ على الأرض، أحسستُ بالبرد يتسلل إلى عظامي مع هبَّات الريح التي اندفعتْ تلسعُ وجهي المبلل بالدموع، كتَّفتُ يدي ورحت أشدُّهما إلى صدري، وعندما رأتني آسيا على هذه الحال، رفعتني بيدي وأدخلتني إلى الخيمة.

لم يكن أحد في الداخل سوى أخت حليمة مستلقيةً في فراشها. وفي الظلام، لم أستطع أن أميِّز فيما إذا كانت مستيقظة أو نائمة. استجبتُ ليد آسيا تجلسني على الفراش وتتناول لحافًا وتغطيني به.

«لا تخليني لحالي»، قلت لآسيا بعد أن استلقيت مذعنةً لإلحاحها عليَّ.

«لا تروحي»، قلت لها ودسستُ رأسي تحت اللحاف.

كنتُ أرتجف من البرد، تكوَّرتُ على نفسي ورحت أفرك يديَّ بين ساقي لأبثَّ الدفء في أصابعي التي استحالت قطعًا من الثلج، وراح الدمع يطفر من عينيَّ عندما ارتفع صوت امرأة بالبكاء واستحال نشيجًا طويلًا ترفعه امرأة إثر أخرى فلا ينقطع.

كل النساء بكين في تلك الليلة، بكين مثلي مرتين على الأقل، مرة حزنًا على حليمة، والمرة الثانية حزنًا على أنفسنا، أننا وباختصار قد نموت بهذه العشوائية، أليست هذه عشوائية رخيصة؟ أن تموت وأن تنجو مصادفةً؟ أن يكون موتُك بلا قيمة تُذكر في فوضى ما يحدث؟ تدافعت الأسئلة في رأسي، ارتفع صوت امرأة تولول، نداءات وأصوات أقدام تعبر حولي من كل الجهات، تتسرَّب نسماتٌ باردة عبر شقوق الخيمة، يهتزُّ قماشها، أدفن رأسي تحت الغطاء مرة ثانية، تصبح الأصوات أبعد، يأخذني خفوتُها إلى سكون الخيمة،

أتذكّر أن أخت حليمة معي، أرفع الغطاء عن وجهي، أنظر إليها حيث تنام، لا أرى شيئًا، أحاول أن أسمع أنفاسها، أرتعد وتجتاحني رجفةٌ ثانية، تعلو ضرباتُ قلبي، أسمع رجالًا يتحدَّثون عن موتها. قالوا إن قَسَد لن تسمح لهم بعبور القرية إلى الجهة الثانية حيث توجد مقبرة القرية، على الأقل، هذا لن يحدث في وقت قريب، وحليمة؟ تساءلت في سرِّي، وجاءتني إجابتهم: «إكرام الميت دفنه، سندفنها عند أطراف الزور». وفي مثل هذه الظروف، إكرام الميت وإكرام الحي أيضًا أن يتمَّ الدفنُ بأسرع وقت، فكرت، بقاء الجثة طوال الليل حزنٌ وخوفٌ فوق احتمال الكثير، الدفنُ نسيانٌ بطريقة ما، تجاهلٌ على أقل تقدير.

تنادَى الرجالُ، وتطوَّع بعضهم لحفر قبرٍ لها، «مصخّمة يا حليمة»، يعلو صوت امرأة، تردُّ أخرى سائلةً عمَّا سيحل بأختها، هي لا تسمع شيئًا من هذا، تسيل دموعي حارَّة على وجهي، أفكِّر بأختها التي تنتظرُها لتدخل عليها وتطعمها أو تغيِّر لها حفاضها الذي لم يكن أكثر من خرقٍ بالية وأكياس نايلون، من سيقوم بهذه المهام غير حليمة؟ كيف ستفهم المسكينة أن أختها ماتت؟

دخلتْ خولة إلى الخيمة وأشعلت اللمبة، ثم دخلت آسيا. توهَّج ضوء الفتيلة، رفعتُ جسدي دون أن أفلتَ الغطاء عن كتفي. كانت أخت حليمة مستلقية على ظهرها وعيناها مفتوحتان تنظر إلى سقف الخيمة، وعندما اقتربتْ منها آسيا راحت تحرِّك رأسها باضطراب. أشاحتْ خولة نظرها عنها وبدأ جسدها يهتز وهي تحاول أن تكتم عويلها. أبعدتها آسيا واقتربتْ من المرأة التي ارتفع صوتُها تحاول أن تتكلَّم، وهي تكزُّ على أسنانها وتضغطُ على الحروف قبل أن تطلقها من فمها كلماتٍ ناقصةً. قرَّبت آسيا منها كأس ماء، حاولت أن تسقيَها، لكنها ظلت تحرِّك رأسها دون توقُّف، أعادتها إلى فراشها وغطَّتها.

«نتعاون عليها لبينما الله يفرجها»، قالت آسيا موجِّهة حديثها إلينا.

نهضتُ متحاملةً على نفسي، ناولتني خولة معطفي، ارتديته وخرجت وراءهما وجلسنا أنا وآسيا عند باب الخيمة.

كان الرجال قد حملوا الجثة إلى إحدى الخيام لإعدادها للدفن. اتفقوا على ضرورة دفنها واختلفوا على وجوب غسلها من عدمه، هناك من قال إنها شهيدة، والشهيد لا يُغسَّل، وهناك من قال إن جثتها يجب أن تغسل حسب ما سمعه في إحدى دورات الاستتابة الشرعية التي كان يعقدها التنظيم للمخالفين لقوانينه، تجادلوا قليلًا، لكنهم في النهاية رضخوا لواقع الحال وتركوها بثيابها ولفُّوا حول جسدها عباءة سوداء، وضعوها فوق الحصيرة ذاتها، ثم حملوها وسط عويل النسوة وتدافع الأطفال حول الحصيرة التي قامت مقام النعش. لحقتْ بعضُ النسوة بالرجال ووقفن على مسافة قريبة ينظرن

إليهم وقد وقفوا صفًّا واحدًا وراء جثتها، وصلّوا عليها صلاة الجنازة قبل أن يدفنوها ويعودوا.

أعادت النسوة تنظيم مجلسهن في المكان ذاته بعد أن فرشن بسطًا وحصائر وتكوَّمن فوقها يبكين. تكاثف الحزن وراح يقطر كلماتٍ لم أستطع أن أفهم معظمها على الرغم من معرفتي التي اكتسبتها باللهجة الفراتية. كانت الكلمات تذوي على شفاههن قبل أن تصل إلى مسمعي، نعي يختلط ببكاء، فتنعدم المسافة بينهما، فما أعود قادرةً على التمييز بين قولهن وبكائهن، تعلو أصواتهن ثم تنخفض وتسقط إحداهن في النشيج، ينهرها أحد الرجال طالبًا من النسوة الكفَّ عن البكاء، لكنها ترد بنبرة متحدية:

«سنين ما بچينا، زاد أنتم گلوبكم ما بيها رحمة»؟ سألتْهُ وكانت تقصد ما روَّجه التنظيم من أن طقوس الحزن بِدع وتزييف واعتراض على حكم الله وقضائه. نهضتْ آسيا وانضمَّت إلى النسوة اللواتي انحزْنَ إلى بكاء من نوعٍ خاصٍّ، هدأنَ قليلًا، خفتت أصواتهن، صارت أشبه بطنين النحل، تقاربن في جلوسهن، تلامستْ أكتافهن، تلاصقن في حلقة صغيرة. رأيت امرأة تضرب صدرها بيديها، تبعتْها امرأة ثانية، ثم امرأة ثالثة، ثم انضمَّتْ نساءٌ أخريات، وشكَّلن حلقة أخرى أحاطت بالأولى، تكاثف الظلام في المركز، وما عدتُ أميِّز سوى وجوه النساء اللواتي نهضن وأحطْنَ الحلقتين بحلقة ثالثة، لا شيء سوى انعكاس أضواء الفوانيس على عباءاتهن السوداء أراها وأنا مسندة رأسي إلى يدي أتابعهن يرفعن أيديهن ويصفعن صدروهن ببطء، ثم يمضي وقتٌ وهُنَّ على هذه الحالة، يتأرجحن يمينًا ويسارًا، كتلة من سواد يلفُّه سوادٌ أعظم، تدافع الأطفال ليروا ما يفعلنه، وانسحب الرجال مبتعدين دون أن يغادروا مجلس الحزن بنظراتهم، «حليمة ما غابت عن عزا»، تقول إحداهن مثيرةً حماسة النساء، «ويل گلبي»، تردُّ أخرى، ترتفع أصواتهن، تتسارع وتيرةُ ضرباتهن، تصبح الصفعات أقوى وأعنف.

كانت آسيا تفعل مثلهن، رأسُها يميل مع جذعها، وتضرب بيديها على صدرِها، أراقب شفتيها تردِّد الكلماتِ ذاتها. أزيحُ حجاب الدمع عن عينيَّ لأرى ملامحهن على شكل خيالات يترنحن غائباتٍ عن الوعي، مستسلماتٍ لهذه اللحظة الخالصة من الوجع.

ارتفعتْ ألسنة اللهب عاليًا وسط المخيم بعد أن أشعل الرجال النار وانعكس ضوؤها على وجوه النسوة المخضَّبة بالدمع والعرق.

كانت الحاجة زهرة تجلس وحدها، مشيتُ إليها ووقفت أمامها، رفعتْ رأسها نحوي، تقاطعت نظراتنا لحظةً قبل أن أرمي بنفسي عليها وأجهش في البكاء. احتضنتني وراحت تكتم غصَّات تسرَّبت إلى مسمعي على شكل تنهدات

قصيرة، «يا ألله»، كررَتْها مرة إثر أخرى طوال الوقت الذي قضيته أبكي في حضنها، انتظرتني حتى رفعتُ رأسي إليها، مسحتْ وجهي بيديها الخشنتين، أردتُ أن أقول لها إنني خائفة، لكنني لم أستطع. هزَّت رأسها في إشارة إلى أنها تتفهَّم خوفي، ارتجفتْ شفتاها، شدَّتني إلى صدرها وبكينا معًا هذه المرة.

ارتفعتْ أصواتُ الرجال تدعو النساء إلى الكفِّ عن الندب والعويل. نهضتْ امرأة وتبعتها نساء أخريات، نادينَ على أطفالهن وتفرَّقن في المخيم، وبقي بعضهن الآخر في مكانهن يتحدَّثن بأصوات منهكة عن حليمة، وما سيحدث لأولادها عندما يعلمون بخبر موتها، وعمَّا سيحدث لأختها. الكلام ذاته يتردَّد في كل مكان، اسم حليمة مشفوعًا بدعوات لها بالرحمة. ماتت وانتهى الأمر، فكَّرت وأنا أجيل نظري في المخيم ولا أرى سوى أجساد كاملة، أنصاف مضاءة وأنصاف مظلمة تتحرَّك وتثبت أمامي، حزن واضح وآخر مبهم، ظاهر وباطن، وحدود فضفاضة وملتبسة بينهما، موت سيبقى وموت رحل بعد أن أنهى جولته الأولى، وأحزان أعرفها، وأخرى كانت تفور في داخلي، ولا حاجة بعد ما حدث إلى تفسيرِها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

النبش الخامس والعشرون

في الصباح، كان موتٌ آخر ينتظرنا.

استيقظتُ على يد آسيا تُبعد يدي عن أخت حليمة، ثم انحنتْ فوقها تتفحَّصُ وجهها.

كان مجلس العزاء قد انفضَّ في وقت متأخرٍ، وما كنت أسمع سوى أخت حليمة تصيح على نحوٍ غير مفهوم، تحرِّك رأسها يمينًا ويسارًا بسرعة وتكزُّ على أسنانها، ثم تُطلقُ صرخة عالية، فتمسكها خولة وآسيا بيديها، أمسكتها أنا أيضًا، نحاول تهدئتها، نخبرها بأن حليمة ستعود بعد قليل، نخترع في كل مرة كذبة مختلفة: ذهبتْ تجلب الدواء، تطعم العنز، تحضر الماء، تجلس مع امرأة أخرى، عادت إلى القرية لتحضر أولادها، نستذكر شيئًا من كلام حليمة لها، الحوش، الأغنام، دالية العنب، نتحدَّث بصوت عالٍ على الرغم من ثقتنا بأنها لا تسمع، نحرِّك أصابعنا أمامها بإشارات تشرح ما قلناه، تسكتُ لحظات، تستمع إلينا، تتسع حدقتا عينيها، ترفع رأسها إلى سقف الخيمة، تهدأ وكأنها تفكِّر في ما قلناه، ثم يهتزُّ رأسها ثانية ويطغى بياض عينيها على سوادهما. وفي كل مرة كنا نتفق على أنها تعرف ما حدث، نهزُّ رؤوسنا مذعنين ونعيد الكرَّة من جديد.

تذمَّرت خولة، كان أمر رعايتها مستحيلًا بالإضافة إلى رعاية أولادها والحاجة زهرة. قالت إنها ستخبر الحاج حسين ليجد حلًّا للأمر، وإن على بقية نساء القرية رعايتها، وافقناها الرأي أنا وآسيا، أخبرناها بأننا سنساعدها إلى أن يتفق أهل القرية على حلٍّ مناسب لهذه المصيبة. تناوبنا عليها طوال الليل، خولة أولًا ثم آسيا ثم جاء دوري. لا أذكر الوقت بالضبط عندما أيقظتني آسيا، هزَّت كتفي برفق وأخبرتني بصوت هامس أنها نامت أخيرًا، وأنها ستنام هي أيضًا.

أذكر أنني استيقظت بعد ذلك على صوتها تتمتم، حاولتُ أن أنهض إليها لكنني كنت متعبة جدًّا، أمسكتُ طرف لحافها وأغمضت عينيَّ مرة ثانية.

«ما تتنفّس»، قالت آسيا وأفلتتْ يدَ المرأة فوق صدرها.

«إنا لله وإنا إليه راجعون»، ارتفع صوت الحاجة زهرة، ثم مدَّت يدها ووضعت إسماعيل في حضنها.

رأيتُ خولة تنهض فزعةً تكتم صرخة أخَّرتها إلى وقت خروجها من الخيمة، ثم وقفتْ على بعد مسافة تولول. سحبتْ آسيا الغطاء فوق جسدها، غطَّتها ونهضت. أحسستُ بالخيمة توشك أن تسقط جرَّاء تدافع الناس إلى داخلها،

خرجتُ وراء آسيا ووقفت مذهولةً أنظر إليهم وقد تداخلت أصواتهم مع صراخ إسماعيل ونداءات داخل الخيمة وخارجها.

كانت السماء غائمة على مدِّ النظر، الشمس لم تشرق بعد، أجساد تتحرَّك حولي، مجرَّد خيالات، نقاطٌ أكثر قتامةً في فضاء معتم، اللحظة الملتبسة ذاتها، الضوء والظل، والوجوه التي تغيب ملامحها. كان ما حدث فوق قدرتي على استيعابه، أن تموت أخت حليمة بعدها بساعات فقط، وأن تموت وأنا نائمة إلى جوارها أيضًا، ويدي فوق جسدها؟

وقفتْ أمامي نسوةٌ يبكين، ورأيتُ من ورائهن بعض الرجال يحملون جثتها ويضعونها على الحصيرة ذاتها التي وضعوا عليها حليمة. تجمَّعت النساء حولها، ولكنهن هذه المرأة لم يفعلن ما فعلنه عندما ماتت أختها. كان بكاء هادئًا يقطعه نشيج إحداهن من حين إلى آخر، ثم سكتن بعد ذلك وجلسن يتحدَّثن عن رحمة الله بها، «ارتاحت وريَّحت»، «هي وأختها بيوم واحد»، «مصخّمة»، «الله أرحم من الجميع»، وكلمات لم تكن أقل برودةً من ذلك الصباح، أدعية واستغفار لا يتوقَّف على شفاه النسوة اللواتي تلثَّمن بملافعهن اتقاءً للبرد، ثم انحزن مثلي إلى الصمت ننظر إلى جسدها المسجَّى بينهن.

فكَّرت في أن الموت ليس سيئًا دومًا عندما يجيء في الوقت المناسب، هذا وجه آخر للحرب، قلت في سرِّي، ولم يخفف فهمي هذا من الخوف الذي ملأ قلبي لفكرة أن يدي كانت فوق جسد ميِّت، ولا من دموعي التي انهمرت بصمت حزنًا ووجعًا.

كان بعض الرجال عند باب الخيمة يتحدَّثون بغضب عمَّا حدث. سمعتُ أحدهم يقول إنه سيترك المخيم هذا اليوم بعد أن يدفنوا المرأة، سيأخذ عائلته ويمضي إلى مخيم آخر. علت أصواتهم وانقسموا بين مؤيد للفكرة ومعارض لها بحجَّة أن المخيمات الأخرى ليست أفضل حالًا، وهناك من رأى أن الأفضل هو نزوحهم إلى الطرف الثاني من القرية، بعيدًا عن الزور وعن أية محاولات تسلل لعناصر داعش، ولا سيما أن قوات قَسَد قد حررت القرية وأصبحت تلك الجهات أكثر أمنًا، والسيارات التي تستطيع السير في القرية تستطيع أن تحملنا على نفقتنا الشخصية، «يمكننا أن ندفع لهم»، قال أحدهم، واعترض آخر بحجَّة أن هذا الأمر غير ممكن. تعالت أصواتهم مجددًا قبل أن يأتيهم صوت الحاج حسين من ورائهم، دعاهم إلى الجلوس داخل خيمته ريثما تغسل النساء المرأة ويعددنها للدفن إلى جوار أختها.

أفرغتْ خولة وبعض النساء خيمتنا، وأعاد الرجال حملَ الجثة إلى داخلها. دخلت الحاجة زهرة وامرأة أخرى كبيرة في السن بعد أن أحجمتْ بقية

النساء، وتطوَّعت آسيا للمساعدة، ثم دخلت هي الأخرى وأغلقت باب الخيمة وراءها.

نهضتُ من مكاني وجلستُ بعيدًا إلى جوار خولة صامتةً أستمع إلى أحاديث النسوة التي لم تتغير، الموت والنزوح وما سيحدث لنا لو تجددت الاشتباكات، ثم خرجتْ آسيا تحمل أباريق الماء ومناشف ناولتها لخولة.

جاء الرجال ملبِّين نداء النسوة، حملوا المرأة على الحصيرة وخرجوا. أجهشتْ امرأة في البكاء وقتًا قصيرًا، ورفعت امرأة أخرى صوتها تنعيها وكان صوتُها واضحًا وجارحًا في حزنه، وكلماتها مفهومة لي هذه المرة:

«حَفّارْ وسّدْهِنْ ورگ تين، وارفعْ جدايلهنْ عن الطين

حفّارْ خَلْ للگبر بابْ، بيني وبين أختي اعْتاب»

ردَّدتها أكثر من مرة وهي تشير إلى الرجال الذين أمسكوا بأطراف الحصيرة من جهاتها الأربع ومضوا بخطوات سريعة إلى القبر.

كان المطر قد بدأ يهطل خفيفًا، نادت النسوة على أولادهن، وتراكض بعضهن يرفعن الأحذية والملابس المعلَّقة على حبال الخيم إلى داخلها. ألقيتُ نظرة أخيرة على الرجال الذين تجمَّعوا حول القبرين، وعدت إلى الخيمة أراقب المطر الذي كان يهطل ناعمًا أشبه برذاذ ظلَّت تنثُّه الغيوم طوال النهار بشكل متقطِّعٍ مضيفًا كآبة مضاعفة.

جمعتْ خولة ثياب حليمة وأختها ووضعتها في إحدى زوايا الخيمة بعد انتهت من ترتيبها، ثم خرجتْ مع الحاجة زهرة لقضاء حاجتها، وجلسنا أنا وآسيا صامتتين وقتًا قبل أن ترتفع الأصوات معلنةً قدومَ عناصرِ قَسَد إلى المخيم.

«الله يلعن اليوم اللي جيت فيه على الخرابة»، قالت آسيا وأطفأتِ النار تحت إبريق الشاي.

جلستُ أراقبهم من شقٍّ في الخيمة عندما انقطع هدير محرك السيارة. نزل الضابطُ ووقف محاطًا بجنوده. انتظر حتى تجمَّع الرجال الذين مشوا إليه بخطوات متثاقلة تتبعهم بعض النسوة ثم ألقى التحيَّة عليهم. ردُّوا عليه هذه المرة بأصوات ضعيفة وقد خلتْ نبراتهم من الاحتفاء به، ثم تعالت أصواتهم يتحدثون في الوقت ذاته يخبرونه بما حدث، لكنهم سَرعان ما سكتوا عندما رفع صوته طالبًا منهم الالتزام بالهدوء، ثم سأل أحدهم متجاهلًا الحاج حسين الذي كان يقف أمامه، وعندما تحدَّث الرجل رأيت الحاج حسين يرجع إلى الوراء ويقف وحيدًا يراقبهم. أخبره الرجل بأن ما حدث كان أسرع من استيعابهم وأنهم لم يشاهدوا أحدًا يتسلل عبر المخيَّم. سمعت الضابط يقول بعد ذلك إنها محاولة تسلل فاشلة لبعض عِناصر التنظيم، قال أيضًا إن موقع

القرية إستراتيجي نظرًا إلى ارتفاعها قليلًا عن مستوى بقية القرى التي ما يزال يسيطر عليها التنظيم، وإن خسارتهم لها كبيرة، لكنه لم يأتِ على ذكر ما حدث لحليمة ولما حدث لأختها من بعدها، تجاهل موتَهما ببساطة.

«نريد أن نغادر المخيَّم»، تعالت الأصوات تطالبه بالسماح لهم بالعودة إلى بيوتهم، قالوا له إنهم لا يريدون أن يموتوا هنا، وما حدث أمس سيحدث مرة ثانية، «المنطقة غير آمنة، أنتم تعرفون هذا جيدًا»، راح يرددها الضابط أمام إلحاحهم بالسماحِ لهم بمغادرة المخيم إلى الجهة الثانية من القرية وحمايتهم من تسلُّل عناصرِ التنظيم، لكنه صرخ على أحدهم عندما طلب منه حمايتهم:

«شو بدك أعمل؟ أترك شغلي وأحميك؟ أنا شو أعمل أصلًا غير إني أحميك، ولابدك داعش يجي مرة تانية»؟

لم يعقّب أحدٌ على كلامه. قال الضابط بأن الأمر مسألة أيامٍ وسيعودون بعدها إلى بيوتهم كما فعلوا مع القرى الأخرى.

«وشنو سوّيتُم»؟ قالت امرأةٌ كانت تقف قريبًا منهم.

ساد الصمت لحظةً قبل أن ينفجر غاضبًا في وجهها:

«رجعناها من داعش مشان حضرتك ترجعي على قصرك اللي خايفه عليه، ماتوا أحسن شبابنا مشان أنتوا تعيشوا، كل شي خسرتوه ما بيعادل خسارة شباب متل الورد، شو هالعالم اللي مابتفهم»؟!

لكن أحد الرجال ردَّ عليه مستعطفًا:

«يا سيادة الظابط، اشهد بالله ما گصرتم، بس والله متنا بالحيا، زهَدْنا، نريد أدوية، حليب أطفال..».

«الإغاثات جاية، مسألة وقت لبينما يفتح الطريق»، قاطعه الضابط بنبرة واثقة.

«الله يلعن أبو هالطريق»، قالت المرأة التي سألته قبل ذلك والتفتتْ عائدة إلى خيمتها، لكن الضابط راح يصرخ مهددًا إياها:

«والله لو مانك مرا، بس انتو جماعة ما بيمشي حالكم غير مع داعش، ما كان حدا يفصّ بكلمة، شي بده يرجع، وشي بده إغاثة، شو رأيكم تطلعوا بالتلفزيون كمان»؟

«يا بن الحلال احنا صرنا تلفزيون، احنا من يومْ يومنا مصخّمين، ما ظلت دولة ما اهبَدَتْنا بصواريخها، صرنا فرجة»، علَّق أحدهم.

«اللي بده يضل بالمخيم على مسؤوليته، واللي بده يروح كمان على مسؤوليته. مارح يقدر داعش يضرب مرة تانية، أمره محسوم به القرية، هلق احنا حررنا قريتين بعد قريتكم، بدّك تضلْ بمكانك كم يوم ضل، بدكْ تروح اتحمّلْ مسؤولية نفسك»، قال الضابط وسكت لحظة قبل أن يسأل عن آسيا لاستكمال التحقيق معها.

كان إسماعيل الصغير قد صرخ في اللحظة التي سمعتُ فيها. حملته ورحت أهدهده في حضني. أخرجتْ آسيا الإسوارة من جيبها وأعطتني إياها لأخبّئها.

دخلتْ خولة تقود الحاجة زهرة إلى داخل الخيمة وأجلستها في فراشها، ثم تناولتْ طفلها من يدي.

قال الضابط من دون أن يسأله أحدٌ إنه سيعيدها بيده إلى المخيَّم. لم يعترض أحدٌ على طلبه، سكتوا جميعًا. التقطتْ آسيا عباءتها، عدَّلتْ شالها على رأسها، مسحتْ وجهها بيديها وخرجتْ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش السادس والعشرون

انقطعَ المطر عند الظهيرة مع نزوح مجموعة من أهل القرية إلى مخيمٍ آخر.

ظللتُ طوال الوقتِ جالسة في مكاني داخل الخيمة، تتناهى إلى مسمعي أصواتهم دون أن أفكِّر في إزاحة الباب بعد أن أخذوا آسيا.

هذه المرة لم يعترض أحدٌ على أخذها، لو أنهم ينوون اعتقالها لفعلوا ذلك يوم أمس، أمَّا اليوم فإجراء روتيني، تحقيق سريع فحسب، وجوههم قالت هذا، حتى آسيا لم تتذمر، تقدمتْ نحو الضابط، أمرها أن تركب في السيارة، ثم انطلقوا عائدين بها إلى القرية.

كانت خولة تدخل وتخرج إلى الخيمة، تذكر للحاجة زهرة أسماء بعض أهل القرية ممن سينزحون إلى منطقة أبعد في الزور، عائلات بأكملها ستغادر إلى مخيَّمٍ آخر يقع على مسافة بعيدة عن مخيَّمنا، ومن هناك سيكون بمقدورهم التنقلَ بسيارات نحو قرية أخرى سمحوا لأهلها بالعودة إلى بعض حاراتها بشكل جزئي. كانت نبرة صوتها تشي برغبتها هي أيضًا بالنزوح معهم، لكنها كانت تعرف أن هذا لن يحدث، الحاجة زهرة لن تغادر هذه الأرض، الحاج حسين وإخوة زوجها سيبقون أيضًا هنا بانتظار عودة قريبة إلى بيوتهم، عائلات أخرى فضَّلت البقاء. «الأمان بيد الله وحده»، لا تقولها خولة، لكنها تسمعها مثلي من رجل ارتفع صوته يحاول يائسًا ثني الراغبين عن المخاطرة في مغادرة المخيَّم، «البني آدم حَگّوفرنگ، والله نموت ولا حدا يسأل علينا»، قال أحدهم. حاول آخرون ثنيهم، حتى خولة سمعتها تحاول، لكن دعواتهم لم تكن كافية لردعهم عن النزوح.

أزحتُ الباب عندما ارتفعت الأصوات مودعةً، رأيتهم يحزمونَ أمتعتَهم ويضعونها على الدرَّاجات النارية مع أطفالهم، ثم رفعوا رايات بيضاء علَّقوها على أعواد خشبية ومشوا وراء بعضهِم مبتعدين عن المخيَّم حتى غابوا وسط الحقول أمام تأسُّفِ الآخرين ودعواتهم لهم بالسلامة.

آسيا تقول إن الأشياء السيئة تأتي بالجملة، الموت يجرُّ الموت، لو أنها كانت هنا لأصرَّت على النزوح معهم كما ظلت تتمتم طوال ليلة البارحة، ولا أعرف إذا كنتُ في تلك اللحظة راغبة في البقاء أو النزوح، لكنني كنت متعبة إلى درجة أن كل ما أردته هو العودة إلى بيت القرية.

كان البيت وعلى الرغم من الأيام العصيبة التي عشتها فيه أكثر خيارٍ واقعيٍّ في فوضى الخيارات التي لم يكن يجدي الركض وراء سرابِها، كان يكفيني صوتُ ماكينة الخياطة في صمت الغرفة، وصوت آسيا تغني في غرفتها، ودقّات يوسف على البابِ، لكن البيت بعيد، ويوسف وآسيا أيضًا.

تناولتُ حرامًا صوفيًّا وتدثّرت به مستغلةً سكون الخيمة مع نوم الحاجة زهرة والأطفال. أغمضتُ عينيَّ ونمت تتناوب على رأسي كوابيس ناقصة، كوابيس قصيرة، تأخذني إلى آسيا فأراها واقفةً تجادل أبا كريم، ثم أراها تناديني لنجلس عند الساقية المحمولة وعندما ألحقها أراها تصفع صدرها، أرتدُّ خائفةً إلى حليمة، تبتسم في وجهي ثم يسيل الدم من رأسها، تناديني الحاجة زهرة، أركض نحوها فتأخذني بحضنها وتسيل دموعي عاجزةً عن الصراخ، لكن خولة ترفع صوتها تنادي يوسف، أسمع هدير سيارة مزعجٍ لا ينقطع، يوسف وخولة يرحِّبان بعودة آسيا، أصحو ويبكي إسماعيل.

دخلتْ آسيا وخولة، اعتدلتُ في فراشي، «مو ميِّت ابن الكلب»، قالتها آسيا وهي تزيح الشال عن رأسها بعد أن جلست بجواري.

«مين»؟ سألتها.

أجابت بأنهم أخذوها لترى الجثث التي تكدَّست خارج المدرسة بالقرب من أحد أسوارها، وإنهم كانوا يعتقدون بأن أبا كريم أحدهم. استغفرتْ ربَّها ثم راحت تصف الجثث المشوَّهة التي اضطُرت إلى رؤيتها قبل أن يسمحوا لها بالعودة.

كانت السيارة التي أوصلتها عصر اليوم قد غادرتْ بعد أن تجمهر بعضُ أهل المخيَّم حولها يتحدَّثون مع السائق الذي أخبرهم بأنهم سيعودون خلال يومين إلى الجزء الشمالي من القرية بعد أن ينتهوا من تمشيطه. هذا يعني أننا سنعود إلى البيت، فكَّرت، وارتفعت أصواتهم يتحدَّثون ساخرين من الضابط الذي لا يفعل شيئًا سوى استجواب المرأة الغريبة، آسيا، «ربما أعجبته زوجة شيخ الجامع»، علَّق أحدُهم أمام لعنات راح يطلقُها آخر على أبي كريم وما جرَّه هو والتنظيمُ على البلاد من ويلات وشقاء ما عاد محتملًا. فزَّت آسيا تريد الخروج إليهم، أوقفَتْها خولة والحاجة زهرة، راحت تطلق لعناتها هي الأخرى عليهم وعلى أبي كريم وعلى اليوم الذي جاء بها إلى هنا، ثم عادت وجلستْ إلى جوار الحاجة زهرة تحدِّثها وتطلب منها أن تستغفر ربَّها. أطرقت آسيا برأسها إلى الأرض وغطَّتْ وجهها براحتي يديها، «حسبي الله ونعم الوكيل»، رددتها مرة إثر أخرى بعد أن خرجتْ خولة ودعتهم بنبرة حازمة أن يستغفروا ربَّهم ويبتعدوا عن الخيمة، ثم دخلتْ تحمل بيدها كيسًا أعطته لآسيا، «هذا من يوسف»، قالت لها، والتفتتْ إليَّ تخبرني بأنه يريد أن يراني.

«أنا»؟! سألتُ مرتبكةً.

«يقول رسائل من أختك»، أجابتني.

«أختي»؟ سألت مستغربةً، ثم نهضت وارتديت عباءتي وخرجت إليه، وعندما رآني ارتسمت على شفتيه ابتسامة سرعان ما زالت وراء تنهيدة قالت إشفاقه على ما حدث في غيابه.

«شلونچ»؟ قالها هذه المرة بلهجتهم.

«الحمد لله على السلامة»، قلت دون أن أتخلَّص من ارتباكي وأنا أراه واقفًا أمامي جديدًا، بالهيئة التي لم أعرفه فيها من قبل، حلق ذقنه وصفَّف شعره، وارتدى بيجاما وحذاء رياضيين. وكانت هذه المرة الأولى التي أراه فيها يرتدي لباسًا آخر غير الگلابيّة القصيرة التي كانت تظهر قدميه فوق الكعب وفقًا للباس الشرعي الذي فرضه التنظيم على الرجال أيضًا، بعد أن حظر ارتداء الثياب المدنية وصار يروِّج للباس الأفغاني.

«رسائل من سمر اسمعيها»، قالها بعد أن طال صمتُنا وزاد ارتباكي من نظرات الناس التي تراقبنا. ناولني الهاتف ثم انسحب من أمامي إلى رجالٍ كانوا يجلسون أمام إحدى الخيام.

سمر بعثت تطمئن عليَّ وتعتذر عن إزعاج يوسف؟ رسالة وصلتْ قبل عشرة أيام، قبل نزوحنا إلى هنا، فكرت، تقول إنها سمعتْ بالاشتباكات العنيفة التي تدور في الرَّقة، لم توجِّه كلامها إليَّ، كان حديثُها ليوسف. رحت أمشي على غير وعي مني، تقودني خطواتي وراء الخيمة، أمشي ببطء على الأرض الزلقة نحو قبرين حديثين. «هل هي بخير»؟ تسأله ويجيبها إنني بخيرٍ وأمانٍ بينهم، مسألة أيام فقط وسنخرج من المخيَّم، تشكره وتطلب منه أن يطمئنها كلما استطاع، يطلب هو منها أن تبعث برسائل صوتية لي، أفتحها، يجيئني صوتها مرتفعًا في سكون المخيَّم، أسمعُها فتنهمر دموعي حارَّة، «كيفِك»؟ تسألني عن حالي، تصمت لحظات، «طمنيني عنك»، تصمت وقتًا أطول، «إنتي بخير»؟ تتنهَّد، «عم شوف الأخبار، وضع الرَّقة كتير سيئ بس ما عم نعرف شي»، تصمت، ثم تحدِّثني بنبرة مرتجفة عن أنها أرادتْ فقط أن تطمئن عليَّ في ظل الظروف الغامضة حول ما يجري هنا، ينكسر صوتها عندما تخبرني بأنها خائفة عليَّ، وأنها ستحاول مساعدتي في الخروج من البلاد، تتلعثم، تصمت، يطول صمتها، أسمع بكاء طفل صغيرٍ حولها، مَن هذا الطفل؟ ابنها؟ أتساءل في سري، «المهم ديري بالك على حالك»، تقول لي وينقطع صوتها. استمعت إلى رسالتها مرة ثانية في وقوفي أمام القبرين وحيدةً أدير ظهري للمخيم، ثم أجهشتُ بالبكاء.

كيف أفسِّر دموعي؟ صوتها يعيدني إلى عالمٍ بعيدٍ يخصُّ امرأة أخرى سواي، عالمٍ لا يمكن أن يكون حقيقيًّا، شيء أشبه بمتابعة فيلمٍ عن حياة لا تخصُّني، لا دليل على وجودها سوى أنني أتذكَّرها وأمضي طوالَ وقتي في تجاهلها،

أثبتها لأقول لنفسي إن لي تاريخًا، ثم ألغيها عندما أعرف أنها لا يمكن أن تغيِّر شيئًا في حاضري.

«نسرين» جاءني صوتُ آسيا من ورائي، كانت تقف مع يوسف، ودَّعته وأكملتْ طريقها تمشي بحذرٍ نحوي، ثم وقفتْ إلى جواري وقرأت الفاتحة مرةً أمام كل قبر ثم مسحتْ خيط دمعٍ تكاثف على جفنيها.

«احكيلي شو اللي صار معك»؟ سألتُها عمَّا حدث معها.

«عيفينا، ما بدي احكي»، أجابتني وانحنت إلى الأرض تثبِّت بعض الحجارة الصغيرة حول محيط القبرين.

«لم تخبريني أنك كنت تتواصلين مع أختك»، قالت دونَ أن تنظر نحوي.

«إنتي ميتة بنظر الكل، لا تفتحي أبواب ما صدقنا سكرناها»، أعدتُ على مسمعها آخر رسالة من سمر بعد أن حاولتُ التواصل معها عبر هاتف يوسف. لم تعلِّق، تنهَّدت عميقًا، ثم نفضت يديها ونهضت مستندةً إلى ركبتيها ووقفت إلى جواري، ثم قالت:

«غدًا ستنزح مجموعة أخرى من أهل المخيم، سنذهب معهم».

«إلى أين»؟ سألتها.

«ليس مهمًّا، لن أنتظر هنا أكثر، أمس حليمة، واليوم أختها، وغدًا الله أعلم».

لم أعلق على كلامها، كنت ما أزال غارقة في صوت سمر. أكملتْ:

«سألتُ يوسف وأخبرني عن الطريق الذي نحتاج أن نقطعه».

«يوسف سينزح أيضًا»؟

«لا أدري، ولكنني لن أنتظر أكثر، اليوم لولا ابن هالكلب أخذني لذهبت مع من ذهب، إذا شئتِ أن تبقي هنا وتنتظري».

«سأذهب معكِ»، قاطعتها.

هزَّتْ رأسها موافقةً وراحت تنظر إلى القرية أمامها وقتًا كنت أفكِّر في المكان الذي سننزح إليه مرة ثانية، والناس الذين سنلتجئ إليهم في مخيمٍ آخر وفي قلبي تتكاثف الوحشة لمجرَّد التفكير بأن ما حدث لم يكن أكثر من بداية اغتراب طويل ونهائي لا عودةَ بعده، أنا ميتة حقًّا هناك، ما عاد من الممكن التفكير في العودة، أو حتى تمنِّيها. هذه هي البداية التي جاءت وأنا منهكة تمامًا، وغير قادرة على تحمُّل أعبائها، لكنني لن أترك آسيا تذهب وحدها، ولن أبقى من دونها أيضًا، هي الآن كل أهلي.

«خلينا نرجع»، قالتْ وأمسكت ساعدي تحدِّثني عن الطريق الذي سنسلكه خلال الزور، وعن المنطقة التي سنذهب بها، ثم نستطيع أن نركب من هناك سيارة أجرة، والوقت الذي نحتاجه لنصلَ إلى القرية التي قال لها يوسف إنها آمنة وأكَّدت هي كلامه بحكم معرفتها، المعرفة ذاتِها التي تنقصني لأستفسر أو لأعترض. تركتها تتحدث ورحت أقيس بخطواتي المسافة بين القبرين والخيمة.

«ما رأيكِ»؟ سألتني.

«رأيي»؟ سألتها وكنا قد وصلنا إلى الخيمة.

هزّت رأسها مؤكدةً. أخذت نفسًا عميقًا وزفرته ببطء.

«أنا كلّ شيء ما عداي»، أجبتها ودفعتُ كتفها برفقٍ لندخل.

تفحَّصتني بنظراتها، زمَّت شفتيها وأرادت أن تقول شيئًا، لكنَّ أحمد نادانا لتناول الطعام، ناولتهُ هاتف يوسف ليعيده إليه ومشيتُ لأدخل إلى الخيمة.

«آه صحيح نسيت، يوسف يريد أن يراكِ بعد المغيب».

قالت بصوت هامس ونحن ندخل الخيمة للمرة الأخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النبش السابع والعشرون

كانت الساعةُ تشير إلى الثامنة إلّا خمس دقائقٍ عندما أطفأتْ آسيا ولاعتها ونحن عائدتين إلى الخيمة. عاد يوسف قبلنا سالكًا طريقًا آخر عبر الحقول بعد أن اتفقنا أننا سننزح غدًا. دفنتُ رأسي في صدره وبكيت كل ما حدث في غيابه، بكيتُ حليمة وأختها، أخبرتهُ عن الوجع الذي أحيَتهُ رسائل سمر في داخلي، وعن خوفي على نفسي وآسيا عندما أخذوها، لم يقلْ شيئًا، تركني أبكي ثم رفع وجهي إليه وابتسم، قال وهو يمسح دموعي بأصابعه:

«كل شيء سيكون على ما يرام، مسألة وقت لا أكثر».

لو أنني أستطيع رؤيتَه الآن لأخبرتُه بأن الوقت هو أسوأ ما حدث لي، وأسوأ ما يحدث الآن أيضًا، لكنني صمتُّ وتركته يحدِّثني عن رحلتنا غدًا عبر الحقول والقرى، ناولني بعد ذلك كيسًا صغيرًا قائلًا:

«العثور على مرآة في هذا الوقت أصعبُ من العثورِ على رغيف خبز».

«غلبتكْ معي».

«أبدًا، كان إيجادها سببًا لسعادتي».

قال وأمسك يدي وشدَّني نحوه. «نسرين» نادت آسيا، قبَّلَني واختلطتْ تنهداتنا بخشخشة الكيس بيننا. «نسرين»، نادتني مرة ثانية، سحبتُ نفسي رغمًا عني من حضنه وعدتُ إليها.

كانت آسيا تقف مسندةً ظهرها إلى الساقية المحمولة، وعندما رأتني قالت إنها سمعت أصواتًا في الحقول القريبة وخشيتْ أن يرانا أحدُ أهل القرية. أصغينا معًا ولكنني لم أسمع شيئًا.

«مرايه»؟ سألتني وهي تخرجها من الكيس.

«وصّيت يوسف عليها بدل مرايتك اللي انكسرت»، أجبتها، وأمسكتها بساعدها، أدفعها للمشي والعودة إلى الخيمة.

«بسرعة، أريد أن أعيد للحاجة زهرة مسبحتها، أخذتها عندما كنت أساعدها على النهوض»، قلت لها.

«كم الساعة الآن»؟ سألتني.

«الثامنة تقريبًا».

قلت لها ومشينا خطوات عائدتين إلى الخيمة، لكنها وقفتْ وقدحتْ ولاعتها تتأمل وجهها في الضوء الشحيح.

«أوف وجهي شو تعبان!»، قالتْ.

«بعدك حلوة»، علَّقت، لكنها لم تقل شيئًا، أطفأتِ الولاعة وعاد الظلام كثيفًا يطوِّق أضواء هزيلة تصدر عن الخيام الخمس التي بقيت واقفة كأجساد متهالكة، ثم رأيتُ كل شيء بوضوحٍ عندما سقطتْ أولُ قذيفة وسط المخيَّمِ وارتمينا على الأرض.

صرختُ وصرختْ آسيا، وارتفع الصراخ في كل زوايا المخيَّم، ثم نهضت آسيا وركضتْ عائدةً باتجاه الساقية، ركضت وراءَها قبل أن تسقط قذيفة قريبًا منا، فارتمينا مرة ثانية على الأرض. كنت أرى الناس يتراكضون في كل اتجاه، لا أميز سوى أجساد تتحرك باضطراب حولنا، صراخ لا ينقطع فوقنا ونحن نزحف فوق أرض موحلة، وتحت سماء تخترقها القذائفُ التي انهالتْ علينا.

كان من الصعب عليَّ التعرُّف على الناس أول الأمر، بل كان مستحيلًا إلى درجة كنتُ فيها واثقة بأنني وحيدة ولا أحد ممَنْ أعرفهم حولي. صرختُ أنادي آسيا لكنها لم تجبني، ناديت يوسف لكنه لم يجبني أيضًا، ناديت الحاجة زهرة، خولة، أحمد، نجاح، الحاج حسين، أي اسمٍ يقفز في ذهني كنت أترجمه إلى صرخة ولا أحد يجيب، كان الكل يصرخ مثليَ.

رأيت خيمة تشتعل والرجال يحاولون إطفاءها، رأيت امرأة تحمل طفليها وتركض، رأيت طفلًا يقف مذهولًا وحده، رأيت امرأة عجوزًا تستند إلى عكازها وحدَها وترفع رأسها إلى السماء، رأيت قذيفة تسقط على الساقية المحمولة وسمعتُ صوت انفجارات شرعتْ تلتهم صرخاتنا وتتقيؤها فلا أعود قادرة على تمييز شيء، أحاول أن أنهض، أفشل، تخونني ركبتاي، أقع مرة ثانية، وأدسُّ وجهي في الأرض أبحث عن ظلامٍ أخبِّئ رأسي فيه.

الوقتُ يمر ولا يمر، لا دليل على وجوده ولا دليل على انعدامه، بديهي ومستحيل. أرفع يدي أمام وجهي، أنظر إلى ساعتي، أمسح الوحل عنها لأرى عقاربها، لكنها تهشمت، كُسرت عدستُها وبقيتْ عقارِبها ثابتةً لا تتحرك. مازالت الساعة الثامنة إلا خمس دقائق، أو ربما مرَّت أكثرُ من ساعة وأنا أزحف في مكاني والجميع يزحف مثلي تحت رصاص لا ينقطع أزيزه، أتوَّهم للحظة أنني ربما أحلم، لا يمكن أن يكون ما يحدث معي حقيقيًّا، يلتبس في رأسي صوتُ الرصاص وصوت ماكينة الخياطة تضغط عليها يدي بقوة وثبات، أحرِّك يدي لأزيلَ هذا الالتباس، ولا يزول، أفتح عيني لأميِّز ما يحدث، فلا أرى شيئًا، الظلامُ ولا شيءَ سوى الظلام، وهذه الليلة قطعةٌ من قماش أسود، عباءةٌ بحجم هذه البلاد خاطتها يداي وأيدي كل النسوة على هذه الأرض، يأخذني هذا التصوُّر بعيدًا في غير وقته إلى نسوة يجلسن مثلي ويمررن القماش الأسود تحت إبرِ ماكيناتهن، صخب كثيف يقابله صمتٌ أشدُّ كثافةً

على شفاههنّ، تمسي البلادُ في رأسي ورشة خياطة كبيرة لعباءة أكبر من أن ننتهي من خياطتها.

«نسرين» يجيئني صوت آسيا من ورائي. «آسيا»، أناديها وأزحف نحو صوتها، أصرخ باسمها لأجد لندائي مكانًا بين نداءات وأدعية لا تنقطع، تردُّ عليَّ، يقودني صوتها إليها، أميِّز خيالها جاثيةً على ركبتيها، أقترب منها، أحاول أن أنهض، تقترب مني، تمسكني وترفعني إليها، أدسُّ رأسي في حضنها، تشدُّني إليها أكثر، لا أقوى على قول شيء، استنفدتُ صوتي في الصراخ، أبكي وتبكي هي أيضًا.

جلسنا في مكاننا نراقب ما يحدث أمامنا. عاد الهدوء وقتًا قصيرًا، تنادَى الناس يدعون بعضهم إلى اللجوء تحت الأشجار. كانت هناك امرأة تصرخ منديةً زوجها، رأيت خيالات تنسلخ من تحت الأشجار لتسحب جثة وسْطَ عويل يرتفع مرة ثانية.

«بردانة» أقول لآسيا، لا تجيب، «خلينا نرجع ع الخيمة»، تتجاهلني، «بدي أعطي الحاجة زهرة مسبحتها، تأخرت عليها كتير حرام»، تستغفر ربها، «لازم أعطيها إياها»، أشدُّ عباءتها، «اسكتي»، تنهرني، «معقول تكون ماتت»؟ «اسكتي»، «يمكن ما قدرتْ تهرب»، «اسكتي، اسكتي» تصرخ عليَّ، فأسكتُ وقتًا وأصغي إلى الأصوات من حولي، أسمع يوسف ينادي علينا، «يوسف يناديني»، أقول لآسيا، «أنت تهذين»، تصرخ بي، يرتفع نداءٌ يدعو الجميعَ إلى اللجوء تحت الأشجار، تبعدني عن صدرِها وتنهض، «عطيني إيدك»، تخاطبني، أناولها يدي، أشعر بألمٍ في كتفي، يزداد كلما شدَّتني إلى الأعلى، أنهض وأقف إلى جانبِها، تمشي ممسكةً يدي ونكمل طريقَنا نحو أشجارِ التوت.

ثلاث نسوة أم ثلاث أشجار؟

أتخيّل الحاجة زهرة واقفة تتوسَّط ابنتيها، أراها وهي تحفر الأرض بأصابعها، تنبشها بأظفارِها وتعوي مثل ذئبة جريحة في هذا السهل الفراتي، أراها وهي تُودِع كل حفرة ثوبًا خاطته لابنتيها كما أخبرتني هي نفسها، خَيْطانِ من دموع ودمٍ يسيلان على وجنتيها، خَيْطان أسودان. أرفع رأسي إلى الأشجار فأرى نساءً متشحاتٍ بالسَّواد ينظرن متجهِّماتٍ نحوي. «خلينا نرجع ع البيت»، أقول لآسيا ولا تعلِّق، «نمشي ع طريق السيارات ونرجع»، أقترح عليها، «أو إذا بدك بنروح نتخبَّى بشي مكان تاني، بس وين»؟ تصيح آسيا منديةً، يجيبها أحدهم، تشدُّ يدي لأسرع أكثر، «عم توجعيني»، أقول لها، فترخي قبضتها.

نجلس معهم ويخيِّم صمت ثقيل وقتًا طويلًا أو قصيرًا، لا أدري، أرفع رأسي إلى أغصان الأشجار المتشابكة فوقنا، «هل ستحمينا هذه الأشجار»؟ أهمس في أذن آسيا، لكنها كانت في عالمٍ آخر، مطرقةً برأسِها إلى الأرض. يُحضِر

رجال أغطية ويلقون بها علينا، تمسك آسيا بأحدها ونتدثّر به، «بردانة»، أقول لآسيا، تلتصق بي وتشدُّ اللحاف على كتفيَّ، يزداد الألم، آخذ شهيقًا عميقًا وأزفره في يديَّ الملطختين بالوحل، أكرر ذلك أكثر من مرة، ولا يأتي الدفء، أسمعهم يتحدثون بهمس عمَّا حدث، يقولون إنها محاولة تسلل جديدة، هذه المرة أعنف وأقوى ولا حساب لنا فيها، «سنموت جميعًا»، تقول امرأة، «نبقى هنا إلى الصباح ثم سننزح جميعًا»، يردَّ رجل عليها، «نهرب الآن»، يقول آخر، «ولكن إلى أين»؟ يكمل، ويسقطُ سؤاله ثقيلًا على صدري عندما أدرك أن وجودنا معًا تحت الأشجار لا يغير من حقيقة أننا فرادى نواجه احتمال الموت كلٌّ على حدة. امرأة إلى جوارنا تبكي، صوت بكائها مزعج ولا أحد يواسيها، ربما زوجها من قُتل قبل قليل، سيدفنونه في الصباح، لا شيء يمكن فعله الآن سوى انتظار انتهاء هذه الليلة، ولكن ماذا لو أنها ببساطة لن تنتهي؟ أهذي، لا يمكن لشيء ألَّا ينتهي، حتى هذه الليلة لا بد ستنتهي، ولكن متى؟ أتساءل، يبكي إسماعيل لحظاتٍ ثم ينقطع بكاؤه، أكيد أن خولة ألقمته ثديها، ولكن ماذا عن الحليب الذي يفسده الخوف؟ تواصل المرأة بكاءها المزعج، الهمهماتُ تعلو من حولي، «نرفع رايات بيضاء ونمشي باتجاه النهر»، يقترح أحدهم، لا أحد يعلِّق، «أو نحفر الأرض ونختبئ»، يهذي مثلي، ويسود الصمت ثانيةً، تنقطع الهمهمات، يفكر الجميع كما أفكِّر في طريقة للنجاة ثم تعلو أصواتهم فأدرك أنهم فشلوا مثلي.

تنهض امرأة من جوارِنا مفسحةً المجالَ لنا لنستند إلى جذع الشجرة، أمدُّ يدي أتحسس لحاءها، يرتفع أنين رجل من حولي ويختلطُ ببكاء أطفال صغارٍ وهمهمات متعبة، ينادي رجلٌ على يوسف للذهاب معه إلى إحدى الخيام وإحضار مزيد من الأغطية، أرى خيالين يمشيان بحذرٍ مبتعدَين عن تكوُّمنا، الجميع يراقب مثلي صامتين، وحدها الحاجة زهرة تسحب وِردَها عاليًا. أمدُّ يدي إلى جيبي لأعطيها مسبحتها، يؤلمني كتفي، أمسك بها وأخرجها من جيبي، «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا..»، أنادي عليها ويضيع صوتي مع سقوط قذائف أخرى حولنا، نبقى في تجمُّعنا لحظاتٍ قبل أن تشتعل خيمة أخرى، فنفزع هاربين في كل اتجاه.

أركض أنا أيضًا، هذه المرة من حيث جئنا إلى أطراف الساقية بعيدًا عن الخيام، أتعثَّر برجل أمامي، أسقط إلى جواره، وأكمل الزحف تحت الرصاص.

وبعينين مذهولتين أرى ولا أرى، خيالات تركض في كل اتجاه، ويعيد الوقت دورتَهُ الأولى فيحدث ما حدث مرة أخرى، وبخوفٍ أثقل من قدرتي على النهوض، أدسُّ يدي في الأرض وأواصل النبش..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

نبش أخير

- الكلابُ تنبح، الكلابُ لم تمتْ،

آسيا.. آسيا هل تسمعيني؟!

أرفع رأسي فلا أرى شيئًا، أصواتُ اشتباكات بعيدة، رائحة البارود تتسرَّب إلى أنفي لاذعةً تختلط برائحة الطين، أصابعي توقفت عن الحفر أعمق، تعبتْ..

الساعة الثامنة إلا خمس دقائق، العاشرة، الثالثة، الخامسة، السادسة، أضواء بعيدة تقترب.

كم مرَّ من الوقت؟ ست ساعات؟ تسع؟ خمس؟

أتكوَّرُ على نفسي داخل الحفرة التي نبشتُها بأصابعي، أرفع رأسي مرة ثانية، هدير سيارات، نباح كلاب، دعاء قريب لا يتوقف، وأنين لا ينقطع.

تسع ساعات؟ خمس؟ ليلة؟ ليلتان؟ عمرٌ من الدعاء المتواصل، من البكاء، من الاستغاثة ولا أحد يسمع. تعبتُ من الهذيان، آسيا تململتْ مني، قالتْ إنني مجنونة عندما رأتني أحفر الأرض وأنبشها وأتحدَّث مع نفسي، هي تتجاهل القصص السيئة وأنا أسردها، وكل واحدة تبحث عمَّا يمكن أن يجعل هذا الوقت يمضي. يوسف كان معي، لفَّني بذراعيه، ثم رأيتهُ يركض نحو امرأة تستغيث، قال إنه سيعود، لكنه لم يعد، رأيته ملقًى على الأرض، دسستُ رأسي ثانيةً في حفرتي وواصلتُ النبش.

«آسيا..

القصص السيئة تُسرد، يجب أن تُسرد، وإلَّا ما معنى حياتِنا؟ وما معنى موتنا أيضًا؟

آسيا هل تعرفين قصة غيدا وجملها الحزين؟

آسيا لماذا لا تجيبين؟ أنا لا أهذي».

لساني أسود، قلبي أسود، أصابعي سوداء، صوتي أسود، وهذه الليلة نقطة حبرٍ سوداء بحجمِ ما يمكن أن يقوله كل واحد منا، ولكنني تعبت.

تسع ساعات؟ سبع؟ ولا شيء تغيَّر، لا شيء سيتغيَّر، «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، أسمعها ولا أسمعها ولا تنتهي. أخرج المسبحة من جيبي، أقبض عليها بقوة لأسكت هذا الوِرد الذي لا يتوقف، تسقط قذيفة أخرى، لا صراخ هذه المرة، لا أنين، لا استغاثة، أشدُّ خيط المسبحة، أقطعها، تنفرط حباتها في يدي وأقذفها خارج الحفرة.

أرى امرأة تنهض وتلتقط خرز المسبحة، وبكفِّي أمسح الوحل عن وجهي، أراها تمشي عائدةً إلى الأشجار وعلى كتفيها تنسدل عباءة سوداء تجرُّها خلفها. أمدُّ يدي إليها لأمسك بطرف عباءتها، يعود ألمُ كتفي قويًّا، أرفع رأسي ثانيةً فأرى رؤوسًا من حولي تطلُّ من حفر صغيرة، وأيادي تمتدُّ هي أيضًا إلى عباءتها. تتوقف المرأة في مكانها، تلتفت إليَّ، ترفع رأسها وتتجاهلني، تدور حول نفسها ببطء ويتحرَّك معها كل شيء، ثياب ترفرف أشبه برايات معلقة على أغصان الأشجار، أجساد تنبعث من جوف الحُفر، ضوء يسقط باهتًا على مربعٍ بحجم هذه الأرض، تلتمع نجوم فضية على محيط صدري، أوراق توت تنهمر غزيرةً فوقنا، ضباب ودخان، حنطة وبارود، والمرأةُ تدور حول نفسها، تتسارع وتيرةُ دورانها، دائرةٌ تفتح دائرةً أخرى، ترتفع يداها إلى السماء، تدور ويدور كل شيء معها.

«جمل غيدا يا حزين» أسمعها، أصواتٌ تستغيث من حولي، بكاء طفل صغير، عويلٌ، نشيجٌ، طرقاتٌ قوية تضرب في رأسي، أرى الباب ولا أرى يدي..

آسيا..

آسيا..

تتوقف المرأةُ عن الدوران، يتكسَّر السوادُ على جسدها، وبطرفِ إصبعها تزيح العباءة عن كتفيها وتمضي لتفتح الباب.

(انتهت)

إلى مَن نزحوا عن أرض الحكايات السعيدة مجبرين

إليهم في غيابهم الأخير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..
النبش الأول
النبش الثاني
النبش الثالث
النبش الرابع
النبش الخامس
النبش السادس
النبش السابع
النبش الثامن
النبش التاسع
النبش العاشر
النبش الحادي عشر
النبش الثاني عشر
النبش الثالث عشر
النبش الرابع عشر
النبش الخامس عشر
النبش السادس عشر
النبش السابع عشر
النبش الثامن عشر
النبش التاسع عشر
النبش العشرون
النبش الحادي والعشرون
النبش الثاني والعشرون
النبش الثالث والعشرون
النبش الرابع والعشرون

النبش الخامس والعشرون
النبش السادس والعشرون
النبش السابع والعشرون
نبش أخير
الفهرس..